

# الباب الثاني

## حياة ابن نباتة وآثاره

ليس من اليسير على الباحث أن يدرس حياة أديب كبير كابن نباتة ،  
ترعرع في مصر ، وأقام خلال الشطر الأعظم من حياته في بلاد الشام ، واتصل  
بأعيان العصر ، وكأنما كانت حياته ترجمة لهذا العدد الكبير من ممدوحيه الذين  
انتجع مرادهم ونال عطاءهم .

من هنا نشأت صعوبة هذا البحث ، ولعلني أستطيع أن أذلل ما يعترضني  
من عثرات فأبدأ بدراسة حياته .

## الفصل الأول

### أسرة الشاعر

### القسم الأول

### نسبة الشاعر

اهتم أدباء العصر ومؤرخوه بتراجم الأعيان والأعلام ، واصطلحوا أن يكون لكل شخص كنية ولقب بالإضافة إلى اسمه العلم . وقد اتبعوا نظاماً معيناً في ترتيب هذه التسمية ، فقدموا اللقب على الكنية ، والكنية على العلم ، ثم يضيفون بعد ذلك النسبة إلى البلاد والأصل والمذهب ، على أن يذكر قبل ذلك كله النسبة إلى العلم أو الصناعة أو الخلافة أو السلطنة أو الوزارة أو القضاء أو الإمرة أو الحرفة<sup>(١)</sup> .

لن نتبع هذا النظام في التسمية الآن ، لا لشيء إلا لأننا نجد اختلافاً في النسبة ، وتعددًا في الألقاب ، ويتطلب منا هذا التحقيق لكثرة التحريف الذي أضل كثيراً من الباحثين وعلى رأسهم المستشرق بروكلمان .

### اسمه وكنيته ولقبه

يذكر المؤرخون أنه محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ابن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب عبد الرحيم<sup>(٢)</sup> بن محمد بن إسماعيل بن نبأثة<sup>(٣)</sup> . أما لقبه الذي ساربه ذكره ،

- (١) دراسات في الحياة الاجتماعية ص ٤٠ .
- (٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، وطبقات الشافعية ج ٦ ص ٣١ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٥٩ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، وقاج العروس ص ٥٩٠ ، والخزائن ج ٢٩٣ ، واليدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٣ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ ، والوفاء بالوقيات ص ٣١١ .
- (٣) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ ، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ .

وشهره في كتب الأدب فهو جمال الدين<sup>(١)</sup>، وقيل أيضاً على قلة شهاب الدين، ولم يورده غير ابن بطوطة، وتبعه بروكلمان في الموسوعة الإسلامية، فذكره بالإضافة لقبه الأول المشهور به<sup>(٢)</sup>.

وأما كنيته التي عرف بها أيضاً فهي أبو بكر<sup>(٣)</sup>، وذكر غيرها، فقيل: أبو الفضائل<sup>(٤)</sup>، وأبو الفتح<sup>(٥)</sup>، وأبو عبد الله<sup>(٦)</sup>، والأولى هي التي اشتهر بها، وتداولتها كتب الأدب.

### نسبته وقبيلته وموطنه

إن نسبته إلى الموطن الذي سكنه أجداده قديماً، وهو ميا فارقين، لاخلاف فيها على الإطلاق، إذ أجمع المؤرخون والأدباء ممن ترجم له أنه فارقي الأصل<sup>(٧)</sup> نسبة إلى البلد الذي عرف به جده المشهور خطيب خطباء سيف الدولة عبد الرحيم ابن نباتة.

كذلك فإن الأمر نفسه في نسبته إلى الموطن الذي ولد فيه وترعرع ودرج، وهو مصر، فلا خلاف فيه أيضاً؛ إذ أجمع المؤرخون الأدباء على أنه مصري

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧، وطبقات الشافعية ج ٦ ص ٣١، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١، وتاج العروس ص ٥٩٠، وخزائن الأدب ص ٢٩٠، والوفاي بالوفيات ص ٣١١، وشذرات الذهب ج ٦ ص ٢١٢، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٧١، ج ٦ و ٢٩٤، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥، والبدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٢، والوفاي بالوفيات ص ٣١١، ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٩، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ و ٢٩٤.

(٤) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧، والبدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٢.

(٥) البدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٣.

(٦) خزانة الأدب ص ٢٥٠.

(٧) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤١٦، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥، وتاج العروس ص ٥٩٠، والبدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٢، وخزائن الأدب ص ٢٩٤، والوفاي بالوفيات ج ١ ص ٣١١، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ و ٢٩٤، و ج ٢ و ٢٧١.

الدار<sup>(١)</sup> ، إلا بروكلمان فيذكر أنه ولد بميفارقين ، وسنعود لمناقشة هذا الأمر ثانية في معرض الحديث عن مكان ولادته .

بقى علينا أن نحقق نسبة وتأكد منه بعد أن ظهر الخلاف حول هذا الموضوع لكثرة التصحيف الذي طرأ عليه ، إذ قيل إنه جذامى<sup>(٢)</sup> ، وقيل إنه حذاق<sup>(٣)</sup> ، ويتطلب منا هذا المزيد من التحقيق في كتب الأنساب المعروفة . أما من قال إنه حذاق فيعني هذا أن قومه ينتسبون إلى بني حذاقة ، وهم بطن من إياد<sup>(٤)</sup> ، أى أنهم عدنانيون من عرب الشمال . وقد وقع في هذا الوهم<sup>(٥)</sup> ابن خلكان ، واستشهد بقول لابن قتيبة لكنه استدرك قائلاً والله أعلم .

روى عن ابن عباس (رضى الله عنه) : أن نزار بن معد بن عدنان لما حضره الموت أوصى بنيه ، وهم أربعة : مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار ، وأتماذ بن نزار ، وإياد بن نزار ، وقسم ما له في حياته بينهم<sup>(١)</sup> .

وهم ابن خلكان ، فذكر في وفيات الأعيان أن حذاقة بطن من قضاة ، ونحن نرفض هذا الرأي اعتماداً على ما أورده النسابون العرب ، ولعل مصدر وهمه أن إياداً أقام فترة من الزمن في اليمن<sup>(٢)</sup> .

وأما من قال إنه جذامى فإنه ينسبهم إلى جذام ، وهي قبيلة من عرب الجنوب القحطانيين . يذكر النسابون أن لحماً وجذاماً من كهلان ، أولاد عريب بن زيد بن كهلان ، وأن لحماً وجذاماً أخوان ، وهما ابنا عدلى بن

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ومقدمة الديوان ص د وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٩٥ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والبير الطالع ج ٢ ص ٢٥٢ ، والمنهل الصافي ج ٢ ورقة ٢٧١ و ج ٦ ورقة ٢٩٤ (مخطوط) ، والوقاي بالوفيات ص ٣١١ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٣ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦ ، والوقاي بالوفيات ص ٣١١ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٣ .

(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٩٠ ، ولسان العرب ج ١٠ ص ٤١ .

(٥) وفيات الأعيان ص ٢٨٤ .

(٦) الأنساب للسعدي ص ٦ . (٧) لسان العرب ج ٣ ص ٧٧ .

الحارث بن مرة بن أدّ بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان<sup>(١)</sup>  
 أشار المؤرخون إلى تفرق القحطانيين ، ولكي نعرف موطن جذام بعد  
 هجرتها لا بد لنا من الإشارة إلى ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه  
 مع رجل من القوم ، إذ سأله : ما سبأ يا رسول الله ؟ أرض هي أم امرأة؟ قال :  
 ليست بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فأما ستة فتيامنوا ،  
 وأما أربعة فتشاموا ، وأما الذين تشاموا فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين  
 تيامنوا فالأزد وكندة وحمير والأشعريون وأعمار ومدحج<sup>(٢)</sup> .  
 نخلص من هذا الحديث إلى هذه النتيجة : وهي أن قبيلة جذام سكنت  
 بلاد الشام . يؤيد قولي هذا ما ذكر من أن هذه القبيلة تسكن بجبال ( حسمى )  
 في أرض بادية الشام<sup>(٣)</sup> . واختلف في موقع هذه الجبال بين الجنوب والشمال .  
 أما هذه الجبال فقد جاء وصفها في أخبار المتنبى عند ما سار من مصر  
 إلى العراق ، وقد ذكر أنها لا مثل لها في الدنيا ، ولا يكاد القتام يفارقها كما  
 يظهر ذلك في قول النابغة الذبياني :

فأصبحَ عاقلاً بجبالِ حِسمى دُقاقِ التُّرْبِ محتزَمِ القَتَامِ<sup>(٤)</sup>

لكن كتاب السيرة النبوية في أخبار نوح يذكر أن حسمى جبل مشرف  
 على حران قرب الجودي ، وهذا إن صح ، فإنه يكون خير دليل على أن  
 قبيلة جذام أقامت في هذه المنطقة المجاورة لميافارقين بلد الخطيب عبد الرحيم جد  
 شاعرنا ابن نباتة .

ولا بد لنا قبل أن ندلى برأينا أن نذكر أن هاتين اللفظتين تعرضتا للتحريف ،  
 فذكرت بعض المصادر أنه حمداني<sup>(٥)</sup> ، وذكر بعضها الآخر أنه خمداني<sup>(٦)</sup>  
 وأنه الخدقي<sup>(٧)</sup> ، وذكر غير هذا وذاك .

(١) طرفة الأصحاب ص ١١ . (٢) الأنساب ص ٧ .

(٣) معجم البلدان ص ٢٥٩ ، ولسان العرب ج ١٢ ص ٨٩ .

(٤) معجم البلدان ص ٢٥٩ . (٥) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ و ٢٦٤ .

(٦) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ و ٧١ .

(٧) بروكلمان : آداب اللغة العربية P4, SII .

نخلص من ذلك إلى القول إن جمال الدين بن نباتة من قبيلة جذام ، ونستبعد أن يكون من بني حذاقة ، ولو أن هذه النسبة الأخيرة كانت صحيحة لكان - كما نرى - هذا النسب هو في حقيقته الأمر صفة لجده الخطيب عبد الرحيم بن نباتة. يؤيد ما أذهب إليه ما جاء في لسان العرب من أن الحذاقي معناه الفصيح اللسان واللين اللهجة<sup>(١)</sup>، وقد عرف عن جده ذلك ، فكان مؤدب سيف الدولة وخطيب خطباء عصره . يؤيد قولي هذا أيضاً ما ذكره ابن برى : « وأما قول الآخر :

وقول الحذاقي قد يُسْتَمَعُ وقولي دُرٌّ عليه الصَّبرِ

فقد يجوز أنه يريد به واحداً بعينه وقد يجوز أنه يريد به الرجل الفصيح<sup>(٢)</sup> انتهى من قول ابن برى لتقرر باطمئنان أن أديبنا ابن نباتة جذامى فارق من أصل قحطاني ، وليس من بني حذاقة كما وهم ابن خلكان الذي أضل من جاء بعده ، هاجرت قبيلته جذام إلى بلاد الشام وأقامت في ميفارقين . بقي علينا - ونحن في معرض الحديث عن نسبه - أن نرفض رأى بروكلمان القائل إنه أموى قرشي<sup>(٣)</sup> ، وغريب جداً أن يلتبس الأمر على المستشرق المذكور ، ولعل مصدر خطئه أنه اعتمد في ترجمة ابن نباتة في الموسوعة الإسلامية على ما أورده الرحالة ابن بطوطة من كلام ابن جزى عنه في معرض حديثه عن كمال الدين بن الزمكاني<sup>(٤)</sup> ، ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى أن القدماء عرفوه باسم ( ابن نباتة المصري )<sup>(٥)</sup> ذلك لأن أرض الكنانة مصر كانت بمقام أسرته ومسقط رأسه ، فهو إذاً مصرى الدار والمولد والوفاة .

### اسم جده الأول

اقتصر الخلاف على ضبط حركة النون من حروف اسمه ، ولعل مصدره يعود لزمان جده الخطيب الحذاقي عبد الرحيم بن نباتة ، وقد أشارت بعض

( ١ ) لسان العرب ج ١٠ ص ٤١ . ( ٢ ) المصدر السابق .

( ٣ ) الموسوعة الإسلامية : E.I. V 2. P 431,432، وبروكلمان: آداب اللغة العربية 4 SH.P

( ٤ ) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ . ( ٥ ) تنمة المختصر ج ، ص ٣٤٠ .

المصادر القديمة إلى هذا الخلاف في ضبط حركة النون بين ضمها وفتحها .  
ويظهر أن بعض الأقدمين<sup>(١)</sup> قصر حركة الضم على الشاعر أبي نصر عبد العزيز  
ابن نباتة السعدي<sup>(٢)</sup> . الذي مدح سيف الدولة الحمداني بغير القصائد .  
وكان معاصراً للخطيب عبد الرحيم .

ذهب معظم الأقدمين إلى أن الضم أصل وأثبت وأكثر<sup>(٣)</sup> . ورأوا أن  
الفتح ليس بصحيح على الإطلاق .

كما جزم ابن خلكان بضم نون نباتة . ولعل منشأ هذا الخلاف أن طائفة  
من القدماء أرادت بهذا التفريق بين الخطيب الحدائق والشاعر السعدي اللذين  
عاشا في عصر واحد واجتمعا في بلاط واحد .

نتقل إلى أديبنا جمال الدين بن نباتة . فنجد أنه اختلف في حركة اسمه ،  
كما اختلف في جده من قبل . ويعنى هذا أن الخلاف تجدد في حركة النون  
للتفريق بين اسمه واسم جده في هذه المرة ، فقصروا الضم على الخطيب والفتح  
على الشاعر . وسبب ذلك أن الشاعر كان صاحب مدرسة رمزية يورثي في  
شعره كثيراً بالقطر النباتي نسبة للنبات بفتح النون وهو - كما نعلم - لفظة  
فارسية مولدة تطلق على ضرب من السكر العجيب<sup>(٤)</sup> أنشدنا الإمام ابن  
الشاذل :

حلا نباتُ الشَّعْرِ يا عاذلي لَمَّا غَدَا في خَدِّه الأَحْمَرِ  
فَشَاقَنِي ذَاكَ العِدَارُ الَّذِي نَبَاتُهُ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ<sup>(٥)</sup>

وهذان البيتان للشاعر بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ( المتوفى سنة

(١) شفاء الغليل ص ٢٠٢ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ ، والمحيط ج ١ ص ١٥٩ ،  
وتبصير المنتبه (مخطوط) ورقة ٣٢ .

(٢) أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة السعدي ، أحد شعراء بلاط سيف  
الدولة ، ولد سنة ٣٢٧ هـ وتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ ، وتاج العروس  
ص ٥٩٠ ، والمحيط ج ١ ص ١٥٩ ، وتبصير المنتبه (مخطوط) ورقة ٣٢ .

(٤) شفاء الغليل ص ٢٠٢ ، وتاج العروس ص ٥٩٠ .

(٥) تاج العروس ص ٥٩٠ .

٦٨٠هـ<sup>(١)</sup> وقد عدّهما ابن حجة من لطائف تغزلاته في فن التورية .

لم يرض كثير من القدماء بهذه التسمية النباتية ، وعدوا ذلك جهلاً ونطاولاً على اسم الشاعر جمال الدين ، والدليل على ذلك ما ذكره ابن حجر : « وأن الذى يزعمه كثير ممن لا يعرفون هذا الشأن أن الخطيب بالضم والشاعر بالفتح ليس بذلك »<sup>(٢)</sup> .

يؤيد ابن حجر ما أذهب إليه فليس من الضروري أن نحرف اسم الأديب المذكور لندلل على مذهبه الرمزي في التورية . وهل عليه من حرج إذا أكثر التورية في السكر النباتي لأنه من اسمه ؟ وهل يشفع لهم إكثاره منها أن نحرف اسم جده الأول نباتة ؟ كان القدماء يستسيغون ذلك ، لكننا لانستسيغه ، لأننا نحافظ على اسمه بعيداً عن كل قلب أو تحريف ، فاسم الشاعر غير مذهبه في شعره ، ولكل حديث .

## القسم الثاني سروات الأسرة النباتية

لا بأس علينا لو بدأنا بالتحدث عن سروات الأسرة النباتية قبل أن نفيض في ذكر الأديب جمال الدين الذى أحيا اسم جده الأول نباتة فكان من الخالدين .

### آل نباتة الجذامى

لعلنا نتساءل ومن هو نباتة الجذامى؟ قد لانستفيد من الجواب شيئاً ، لأننا لانعثر على أى خبر يلقى الضوء على هذا الرأس الكبير من هذه الأسرة النباتية . فنحن أبدأ نتعشش لمعرفة الزمن الذى جاءت فيه جذام إلى ميفارقين ، حيث عرف جده الأول هناك ، ونشأت أسرته من آل نباتة .

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٥٢ ، وخزانة الأدب ص ٢٢٧ .

(٢) تبصير المتنب (مخطوط) ورقة ٣٢ .

وهي ، كما اتضح لنا ، أسرة عربية ، كريمة المحتد ، عريقة النجار ، وقد فخر الشاعر بأنه سليل السلف الذكي منها ، ويستبد به الغرور ، فيتناول إلى الشهب عزّة وتكرماً ، إذ يكاد يحسبها من أحلافه ومنازله :

شِيمٌ عَنِ السَّلْفِ الذَّكِيِّ وَرَثَتُهَا      لَا فِي الصَّبَا عِيَّتْ عَلِيٌّ وَلَا فِي  
لِي حِينَ أَنْسَبُ أُسْرَةَ عَرَبِيَّةً      كَادَتْ تُعَدُّ الشُّهْبُ مِنْ أَحْلَافِي  
وَفَضَائِلُ مَا قَدْ سَمِعَتْ وَأَنْهَهَا      لِمَسَامِعِ الْأَشْرَافِ كَالْأَشْنَافِ  
أَشْكَو النَّأخَرَ فِي الزَّمَانِ وَهَذَا      شِيمِي لَدَيْهِ وَهَذَا أُسْلَافِي<sup>(١)</sup>

كما أشار الشاعر في موطن آخر إلى سلفه ، وافتخر بهم ، فهم «آل نباتة الغرّ السراة» ، وهو سليل هذه الأسرة النجبية ، إنه ثمرة ذلك النبات ، بل إنه القطر النباتي ، كما يحلوه أن ينعت نفسه :

ورثت اللفظَ . عَنِ سَلْفِي وَأَكْرَمِ      بِآلِ نُبَاتَةِ الْغُرِّ السُّرَاةِ  
فَلَا عَجَبٌ لِلْفَقْطِي حِينَ يَحْلُو      فَهَذَا الْقَطْرُ مِنْ ذَاكَ النَّبَاتِ<sup>(٢)</sup>

مهما يكن من أمر فنحن سنتجاوز ما دمنا لا نملك أيّ خبر ، لتحدث عن أحد أحفاده خطيب خطباء سيف الدولة .

### عبد الرحيم بن نباتة

إن جده المشهور الذي تحدثت عنه كتب الأدب والتاريخ هو الخطيب الحدائق عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي الجذامي الذي عاش في القرن الرابع الهجري في عصر سيف الدولة الحمداني .

ولد في بلدة ميافارقين<sup>(٣)</sup> سنة ٣٣٥ هـ ، وانتقل إلى حلب ، وأصبح مؤدباً

(١) الديوان ص ٢٢٣ .

(٢) الديوان ص ٨٠ .

(٣) ميافارقين ، ذكرها ياقوت في معجمه وهي أشهر مدينة في ديار بكر ، تحدث عنها بطليموس ، وحدد موقعها من الأقاليم ، وكانت قبل الفتح الإسلامي متداولة بين الفرس والروم ، واختلف فيمن فتحها من المسلمين وهل كان فتحها عنوة أو صلحاً .

لبلاط سيف الدولة ، وشهر بالخطابة ، فلقب بخطيب الخطباء . وقد جمعت خطبه الكثيرة ، وكانت تمتاز بالقصر ، يغلب عليها السجع ، وتتناول في معظمها الموضوعات الدينية العامة ، وتشير في بعض الأحيان إلى الحوادث المعاصرة ؛ وقد توفي هذا الخطيب ببلدته ميفارقين سنة ٣٧٤هـ<sup>(١)</sup> .

خلف عبد الرحيم هذا ابنه أبو طاهر محمد<sup>(٢)</sup> ، وقد عرف أيضاً بالخطابة وله فيها مجموعة من الخطب الدينية على غرار أبيه ، وتوفي سنة ٣٩٠هـ .

نقف بعد الحديث عن عبد الرحيم وابنه محمد عند حفيده أبي الفرج طاهر<sup>(٣)</sup> ، المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، وله مثلهما مجموعة من الخطب الدينية . والطريف أن هذه المجموعات الخطابية الثلاث جمعت في ديوان واحد .

عرفت هذه الأسرة بالقضاء بالإضافة إلى الخطابة ، تشير منهم إلى القاضي الأجل تاج الدين أبي سالم طاهر بن القاضي علم الدين علي بن القاضي أبي القاسم يحيى بن طاهر بن عبد الرحيم<sup>(٤)</sup> .

لا نعرف عن هؤلاء القضاء ما هو جدير بالذكر ، لكننا عثرنا مصادفة في سلوك المقرئزي على اسم جلال الدين بن نباتة ، وقد ذكر أن الملك الكامل بعث إلى ميفارقين سنة ٦٣٠هـ ، فأحضر جلال الدين بن نباتة ليستكتبه . فلما حضر خلع عليه ، ولم يستكتبه فاستكتبه الأشرف صاحب دمشق<sup>(٥)</sup> .

لا نعرف لم أحجم السلطان الكامل عن استخدام جلال الدين بن نباتة ، ولعل هذا الحادث يشير إلى أمر هام في نظرنا ، وهو أن أحفاد الخطيب عبدالرحيم كانوا معروفين بالعلم والدين ، حتى إن السلاطين كانوا يستخدمونهم في العصر المذكور .

نستنتج من هذا الخبر أن الأديب النباقي ترك شمال بلاد الشام ، وأقام في دمشق ، ولا ندرى هل توجه إلى مصر واتخذها دار مقام أم أن أبناءه وأحفاده

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٤ ، وتاج العروس ج ١ ص ٥٩٠ ، والموسوعة الإسلامية ج ٢ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ (النص الفرنسي) ، و ج ١ ص ٢٨٨ (الترجمة العربية) .

(٢) الموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر السابق . (٤) تاج العروس ص ٥٩٠ .

(٥) السلوك ج ١ ص ٢٤٦ .

هم الذين توجهوا من بعده إليها؟ نخلص من كل ذلك إلى القول: إننا لانعرف غير أبيه من هذه الأسرة. وقد أقام في مصر، فهو مصرى الدار والمولد.

## شمس الدين بن نباتة

شمس الدين محمد بن محمد بن الحسن بن الجذامى الفارقى الأصل<sup>(١)</sup>، وقد ولد في القاهرة سنة ٥٦٦٦هـ<sup>(٢)</sup> في بيت علم وأدب، وسمع من العز الحرفاني وابن خطيب المزة وغازي الحلاوي وابن الأنماطي وغيرهم<sup>(٣)</sup>. وقد أصبح شاهداً بديوان بيبرس الجاشنكير، ولكنه غادر مصر، واتجه نحو بلاد الشام، ولعل هناك سبباً سياسياً يكمن وراء رحيله الغامض، ونظن أنه كان من مؤيدي بيبرس، فلما أزيح عن السلطنة لم يجد بداً من الفرار إلى أرض الشام، فأقام فيها، وتنقل في عدة مناصب. باشر شهادة الخالص بدوما وداريا وغيرهما من مدن الإقليم الشامي، واستقر آخر أمره بدمشق فاتخذ له فيها سكناً بالظاهرية<sup>(٤)</sup>.

كان الشيخ شمس الدين من شيوخ الحديث المشهورين وقد ذكر الصنفدي أنه نال منه الإجازة بخط يده سنة ٥٧٣٠هـ، وولى مشيخة المدرسة الظاهرية<sup>(٥)</sup>. ولما توفي الشيخ زين الدين بن المزي شيخ دار الحديث النورية ولأه القاضي تقي الدين السبكي مشيختها سنة ٧٤٩هـ. وقد وافته المنية بعد توليها بعام واحد.

عرف الشيخ شمس الدين بأنه حسن الأخلاق، وكان ساكناً قليل الكلام خيراً كريماً، وقد أجمعت المصادر التي ترجمت له أنه كان ينفق كل ما يحصله على أولاد ابنه الشاعر جمال الدين، وقد عرف عنه بأنه كان حسن الحال.

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٣، والخزافة ص ٢٩٠، والوفى بالوفيات ص ٢٧٠ والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٣.

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٧٣، والوفى بالوفيات ص ٣٧٠؛ والمنهل الصافي

(مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٨٩، ٢٩٠.

(٤) الوفاى بالوفيات ص ٢٧٠.

(٥) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٣، والوفى بالوفيات ص ٢٧٠، والمنهل الصافي

(مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٨٩، ٢٩٠، وأعيان مصر (مخطوط) ج ٦، ق ٢، و ٢٣٤.

كما لا نعرف شيئاً عن إخوته ، إن كان له إخوة ، ولم نعر على أى خبر ، نستطيع به أن نلقى ضوءاً على زوجه ، ولم نعرف أيضاً عن أولاده أى حديث يذكر ، ولعله لم يكن له غير هذا الولد العبقري جمال الدين .

تلك هي لمحة خاطفة عن حياة أبيه ختمنا بها الكلام عن سرورات الأسرة النباتية ، وما كاد نجم جمال الدين يشرق في سماء هذه الأسرة حتى رأيناها قد سبق الأولين منهم والآخريين . وكأنما اجتمعت فيه هذه الصفات الوراثية التي رأيناها في أسرته منذ جده عبد الرحيم إلى أبيه شمس الدين . فأخذ عنهم العلم والدين والأدب والشعر والخطابة ، ولا سيما إن أباه كان شاعراً كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر القديمة<sup>(١)</sup> يضاف إلى ذلك أنه خلف بعض الآثار ، لكننا نعجب عن إغفال كتب التراجم القديمة ذكر ذلك ، ولقد عثرت مصادفة على كتاب تاريخي جليل مخطوط<sup>(٢)</sup> اسمه : ( الاكتفاء في تاريخ الخلفاء ) .

عرضنا بإيجاز لما وصلنا عن سرورات الأسرة النباتية ، ونشير أخيراً إلى أن ابن الأزرق الفارقي المتوفى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري أورد في تاريخه ذكر المشاهير الأعلام من الأسرة النباتية التي انتهت إلينا في شخص أمير شعراء المشرق جمال الدين بن نباتة المصري .

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) يوجد الجزء الثالث منه في دار الكتب المصرية ، ويبتدئ بذكر الخليفة أبي إسحق إبراهيم ابن أمير المؤمنين المقتدر بالله ، ويختتم بالحديث عن الخلفاء الفاطميين ، ولعل حديثه عنهم كان من العوامل التي جعلت المؤرخين والمعاصرين يهملون هذا الكتاب التاريخي . أما الجزء الثاني منه فصور مخطوط في معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وأما الجزء الأول منه ففقود .

## الفصل الثاني

### مراحل حياة الشاعر

#### المرحلة الأولى

٦٨٦ - ٧٠٦ هـ

في مصر<sup>(١)</sup> بلد الخير والجمال ، وعلى ضفة النيل المبارك مانح الخصب والحياة ، وفي القاهرة<sup>(٢)</sup> الجبارة التي لم تكن للفرنجية والتتار ، وفي حي منشية المهراني<sup>(٣)</sup> بزقاق القناديل<sup>(٤)</sup> ، كان ميلاد أديب العصر الأكبر ، في شهر ربيع الأول<sup>(٥)</sup> من سنة ست وثمانين وسبعمائة للهجرة<sup>(٦)</sup> الموافق لشهر نيسان « أبريل » سنة ١٢٨٧م في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون .

وهم المستشرق بروكلمان في مكان ولادته<sup>(٧)</sup> ، فذكر في الموسوعة الإسلامية أنه ولد بميفارقين ، وهذا قول خاطئ ، لأنه مصري الدار قاهري المولد ، وإن كان فارقي الأصل ، فالمعروف أن جده عبد الرحيم ولد في ميفارقين . لانعرف الكثير عن طفولة هذا الأديب الكبير ، وكل ما نقوله إنه بدأ

(١) حسن المحاضرة ١ ص ٢٤٥ ، والخزانة ص ٢٩١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦٠ ورقة ٢٩٤ .

(٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣١ . (٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ .

(٤) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣١٦ ، ٣٢١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، ومقدمة الديوان ص د ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٥) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٢١ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، ومقدمة الديوان ص د والخزانة ص ٢٩١ .

(٦) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤ ، والخزانة ص ٢٩١ ، وطبقات الشافعية ج ٦ ص ١١ ، ومقدمة الديوان ص د ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٧) الموسوعة الإسلامية : E.I.V.2.P43 243، تنبه بروكلمان إلى خطئه هذا، فذكر في كتابه (آداب اللغة العربية) أن ولادته في بزقاق القناديل بالقاهرة SHI.P4 .

حياته في أرض الكنانة . وعاش في جو ديني علمي . أهله ليسلك هذا السبيل  
الذي سلكه أجداده من قبل . وهكذا تضافر في حياته عاملان هامين : أحدهما  
وراثي والآخر مكتسب .

## ١

## العبقرية النباتية المبكرة

استمرت المرحلة الأولى من حياته عشرين عاماً . نال فيها قسطاً وافراً من  
الثقافة الدينية والأدبية . وقد تبدت أمارات الذكاء ولامح النباهة عليه منذ  
حدائته . ولعل والده لمس منه ذلك . فتنبأ له بمستقبل زاهر . فعنى به كل العناية  
ولم يكتف بما قدمه له من معرفة بالحديث والعلوم الأخرى . بل حاول أن يعرفه  
بأصدقائه من مشاهير علماء عصره ممن كان يأخذ عنهم علومه الدينية .

ولعل من حسن حظ ابن نباتة أن يكون والده صديقاً لتقى الدين بن دقيق  
العيد . وقد أجمع علماء العصر على أنه الإمام المبعوث على رأس السبعمائة . وأستاذ  
زمانه علماً وديناً وأديباً . وأن يكون أيضاً أحد المحدثين عن هذا الإمام العظيم .  
يضاف إلى ما ذكرناه أنه كان شاعراً وأديباً . وقد قال عنه الشباب  
محمود : « لم تر عيني آدب منه » . ولو أنه تفرغ للأدب والشعر لكان لنا منه  
شخصية أدبية كبرى . غير أن انصرافه للفقهِ ورواية الحديث<sup>(١)</sup> والتخصص  
في معرفة علله شغله واستنفد جل وقته<sup>(٢)</sup> .

مثل هذا الإمام المبعوث . كما يدعوه معاصروه قادر على تبيين عبقرية هذا  
الطفل الذي كان يرافق والده بين حين وآخر . وبالفعل تعرف على هذا الإمام  
الذي كان يخشاه السلاطين فأحبه . وأصبحت له دالة عليه . إذ سمح له بدخول  
بيت كتبه ، ولعل هذا الطفل أراد أن يقلد أباه وصديقه الإمام . فيطالع مثلهم .

(١) الموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٢) حن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ ، وفوات الوفيات ص ٢٤٤ ، وطبقات الشافعية ج ٦

ولعله طلب منه ما يقرأ ، ويتفرس الإمام في هذا الطفل العبقري ، فيتحسس منه هذه الرغبة الصادقة ، ويناوله ما يشاء ليعرف ميله ، ويروى غلة عطشه .  
أعتقد أن معرفة الإمام به كانت نقطة تحول وانطلاق في مجرى حياته ، وسرى أن ابن نباتة تأثر به كثيراً ، وكان له منه خير مثال يحتذيه في الدأب والعمل والتشرف في الحياة .

لمس أبوها اهتمام صديقه الإمام بهذا الطفل العبقري ، وقد ذكر أنه دخل به عليه ذات مرة ، فناوله كتاب الحماسة<sup>(١)</sup> ، ولم يختر له غيرها من المجموعات الشعرية القديمة . ولعله توخى من ذلك أن يطلعه على الشعر العربي القديم بعد أن لمس منه هذه الموهبة الشعرية الصادقة .

لم يكتف بذلك بل كان — كما يظهر — يختار له النصوص القديمة فيحفظها ، وقد يشرح له في بعض الأحيان ما يعسر عليه فهمه ، ويصعب إدراكه .

أما الجانب الآخر من ثقافته الشعرية فقد اتجه نحو الشعر الأندلسي والموشحات ، يؤيد قول هذا ما روى عن الشيخ أبي الفضل الحافظ فقد حكى أنه دخل صحبة أبيه كعادته على الإمام ، وهو قائم في بيت كتبه ، فبعث أباه في حاجة ، وترك الطفل عنده . نترك هذا الطفل يتحدث إلينا ، ويذكر ما جرى له مع هذا الإمام المبعوث ، قال : « فناولني كتاباً ، فإذا هو في الأدب ، أحسبه من النخيرة لابن بسام ، فنظرت فيه ، فاستغرقت ، فجاء أبي ولم أشعر بمجيئه ، فتعجب من تمكين الشيخ إياي لنظري في كتبه ، وكان ذلك كشفاً من الشيخ ، وتولعت بالنظم من ذلك الحين »<sup>(٢)</sup> .

كان ذلك قبل السبعمائة ، فهل كان قبلها بكثير أم بقليل ؟ ومعنى هذا أنه لم يكن قد تجاوز العاشرة أو الثانية عشرة على أبعد تقدير . ومعنى هذا أيضاً أنه كان في مثل هذه السن المبكرة يطالع كتب الأدب القديم ومجموعات الشعر المختارة ، فيحفظ منها ما يحلو له . وقد عجب أبوه كل العجب من صديقه الإمام المبعوث الذي مكن ولده من النظر في كتبه . إن لهذا النص دلالة خاصة

(٢) المصدر السابق .

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ .

عندنا ، إذ يوضح لنا العوامل التي نمت فيه ملكته في وقت مبكر . وما أحلى قول  
الطفل نفسه وأصدقه : إن فعل شيخه كان كشفاً منه عن عبقريته . ويذكر  
بصريح العبارة أنه أولع بالنظم من ذلك الحين ، بدأ ينظم الشعر حدثاً قبل أن  
يستكمل ثقافته الخاصة . والدليل على ذلك ما ذكره لنا في معرض إجازته  
للصفدى أن الأمير الفاضل شمس الدين محمد بن صاحب المنبى الآمدى  
قد اقترح عليه أن ينظم في زيادة النيل ، ولما يبلغ بعد سن الحلم ، فقال :

زادتْ أصابعُ نيلِنَا وطَمَتْ فَأَكْمَدَتْ الأَعَادِي  
وأنتِ بكلِّ جميلةٍ ماذِي أصابعُ ذِي أَيْادٍ (١)

تلك هي براعم الشاعر ، إنها تبشر بشعر شهى . ولعل الفضل في تفتح هذه  
البراعم يعود للإمام المبعوث الذي صقل موهبته ، وأمدّها من ينابيع الشعر العربي  
في المشرق والمغرب . لكن الغريب ألا يشير ابن نباتة إلى شيخه الجليل في ديوانه  
إلا مرة واحدة ذكره فيها عرضاً مع تقي الدين ابن بنت الأعز وتقي الدين السبكي :

إمامَ التقي دُمَ لنا مُرتجِي وما بابُ فضلكِ بالمُرتجِ  
فليسَ الدقيقُ كمثلِ الجليلِ ولا العليلُ (٢) كالخزرجي (٣)  
وورى باسمه عرضاً في مقطوعة ثانية :

ألا قُلْ لقاضي قُضاةِ الأنامِ إمامَ التقي ذى الفخار العريق  
لقد حارَ عبدُك يا سيدي وحقَّ الجليلُ بحقِّ الدقيقِ (٤)

(١) الديوان ص ١٦٣ والواقى بالوفيات ص ٣١٨ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ،  
والخزانة ص ٢٩١ ، وحلقة الكميت ص ٢٩٩ . وقد لوحظ بعض الاختلاف في رواية الحلبه .  
(٢) العليل : يقصد بها ابن دقيق العيد الذي كان ضالماً بتغل الحديث .  
(٣) الخزرجي .

نعتقد أنه قاضي القضاة ابن المرستاني واسمه جمال الدين أبو القسم عبد الصمد بن محمد بن أبي  
الفضل الأنصاري الخزرجي الدمشقي الشافعي ؛ ولد سنة ٥٢٠ هـ وقد درس وأفتى وبرع في المذهب وانتهى  
إليه علو الإسناد وقال عنه عز الدين بن عبد السلام : إنه لم يرافقه منه ، وعليه كان ابتداء اشتغاله  
توفي سنة ٦١٣ هـ في دمشق .

الديوان ص ٩٤ ؛ وشذرات الذهب ج ٥ ص ٦٠ .

(٤) الديوان ص ٣٥٥ .

أغلب الظن عندنا أنه كانت بين الأستاذ الشيخ وتلميذه مطارحات شعرية ، ولقد وقعنا على واحدة منها ، ذكرها للعاملی ، وقال : إن أستاذه ابن دقيق العيد كتب إليه :

كم ليلة فيك وصلنا السرى لا نعرف الغمض ولا نستريح  
واختلف الأصحاب ماذا الذي يُزيل من شكواهم أو يُريح  
فقيل : تعريستهم ساعة وقيل : بل ذكراك وهو الصحيح

فأجابه تلميذه ابن نباتة ، وهو بعد في مقتبل العمر :

في ذمة الله وفي حفظه مسراك والعود بعزم نجيح  
لو جاز أن تسلك أجفاننا إذا فرشنا كل جفن قريح  
لكنها بالبعد معتلة وأنت لا تسلك إلا الصحيح<sup>(١)</sup>

ذلك كل ما قاله ابن نباتة عن ابن دقيق العيد في شعره، لكننا نتساءل عن مدى العلاقة بين أسرته والإمام المبعوث ، فتنى بدأت هذه العلاقة ؟ وفي أي سنة تقابل فيها مع أستاذه ؟ .

أما العلاقة قديمة ، إذ كان أبوه يروي عنه الحديث<sup>(٢)</sup> ، وهو أئبه من روى عنه من المحدثين .

وأما بدء هذه العلاقة فلا نص بين أيدينا، يحددها تماماً . وإذا كان الأمر كذلك ، فبإمكاننا أن نحددها تبعاً للقرائن التي مرت معنا ، فنقول : إنها استمرت فترة من الزمن ما بين سنة ٦٩٥ هـ وسنة ٧٠٢ هـ ، وكانت سنة آتخذ لا تنقص عن العاشرة . ولا تتجاوز السابعة عشرة على أصح تقدير .

(١) الكشكول (ج ١ ص ٣٨) ، وقد وردت القصيدة في الديوان في السبعة السيارة في

مدح السلطان الناصر حسن (ص ١١٥) .

(٢) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣ .

## ثقافته الدينية

تلك هي مدرسته الأولى في الحياة استمد من أبيه وأستاذه علوم القرآن والحديث وفنون الشعر والأدب . لكنه لم يكتف بهذه الثقافة، بل أخذ يسعى إليها جاداً لدى أشهر علماء العصر وأدبائه . فنهل العلوم الدينية من ينابيعها الثرة غير مقصر ولا وان ، فروى الحديث النبوي عن حفاظه ، وقرأ السيرة النبوية ، وتعمق في علوم اللغة العربية وغيرها من العلوم ، وما زال هذا دأبه حتى أجزى من معظم مشاهير العصر ،

أغنانا في التفتيش عنهم ، وقد أحصاهم لنا ، وعدّهم في معرض إجازته للصفدي ، فهم من أخذ عنهم الحديث ، ومنهم من أخذ عنهم السيرة النبوية . أما علوم الحديث فقد أحضره أبوه علي غازي الخلاوي<sup>(١)</sup> ، فسمع عليه بعض «الغيلانيات»<sup>(٢)</sup> . وبخاصة الجزء الثاني والثالث ، وهي تبلغ بمجموعها أحد عشر جزءاً .

تألف الغيلانيات من أجزاء من الحديث النبوي ، وتحتوي على فوائد حديثية ، رواها أبو بكر محمد بن عبد الله ( المتوفى سنة ٣٥٤هـ ) ، وعنه رواها محمد بن محمد بن غيلان البزاز ( المتوفى سنة ٤٤٠هـ ) ، ويعتبر ابن نباتة آخر من حدث بها عن غازي الخلاوي .

كما أخذ الحديث عن الشيخ عبد العزيز الحصري<sup>(٣)</sup> ، وسمع عليه جزءاً من أحاديث ، خرّجها له والده شمس الدين<sup>(٤)</sup> .

(١) غازي الخلاوي : أبو محمد بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الدمشقي المعروف بالرداف أو الرذاف ، وقد انتهى إليه علم الإسناد في الحديث . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ١٢١٤ ، وشذرات الذهب ج ٣ ص ١٦ و ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٣) الوافي بالوفيات ص ٣١٧ ، والخزانة ص ٢٩١ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ١٦٢ .

(٤) الوافي بالوفيات ص ٢١٧ .

أما باقي المحدثين الذين أخذ عنهم ، ولم يشر إليهم في إجازته للصفدى ، فهم عبد الرحيم الدميرى<sup>(١)</sup> وابن خطيب المزة .

تظهر أهمية ابن نباتة في علم الحديث ، لأنه يعتبر آخر من حدث بالسماع عن التقي عبيد وبهاء الدين بن النحاس وجده شرف الدين بن نباتة<sup>(٢)</sup> .

ترك الحديث لنتقل إلى السيرة النبوية ، فنجد أن أديبنا الكبير ابن نباتة قد سمع عن الأبرقوهي<sup>(٣)</sup> هذه السيرة المباركة ، بقراءة الشيخ فتح الدين بن سيد الناس ، وقد تفرد بها<sup>(٤)</sup> .

هؤلاء بعض أساتذته في الدين ، وقد أجاز له كثيرون ، نشير منهم على سبيل المثال - لا الحصر - إلى العز الحرائي والفخر بن البخاري وزينب بنت مكى وابن المجاور وابن الزين وغيرهم من معاصريه<sup>(٥)</sup> .

ولقد اعتذر ابن نباتة عن تعدادهم في إجازته للصفدى لكثرتهم ، فقال : « وأما من أجازني في مصر وغيرها من الأمصار فكثير »<sup>(٦)</sup> . نذكر منهم أبا النون فتح الدين الدبابيسى<sup>(٧)</sup> يونس بن إبراهيم ( المتوفى سنة ٥٧٢٩ هـ ) ، وكان ساكناً ديناً صبوراً .

(١) محي الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم المصري توفى سنة ٦٩٥ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ .

(٣) الأبرقوهي : مسند العصر شهاب الدين أحمد بن رفيع الدين إسحق بن محمد الهمداني الأبرقوهي ولد بأبرقوه من أعمال شيراز سنة ٦١٥ هـ ، وكان رجلاً خيراً ديناً متواضعاً حسن القراءة وتفرد بأشياء ، وتوفى في مكة حاجاً سنة ٧٠١ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٢ ، والمهمل الصافي ج ١ ص ٢١٨ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١ ، والنجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٩٨ .

(٤) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٦ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧ .

(٦) الخزانة ص ٢٩١ ، والوفى بالوفيات ص ٣١٧ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ،

والوفى بالوفيات ص ٣١٧ ، والمهمل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١ ،

(٧) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٨٤ .

## ثقافته الأدبية

لازم أديبنا الكبير أعلام الأدب والشعر في عصره ، وقد ساهم لنا في معرض إجازته للصفدى . وتحدث عن ذكرياته معهم ، وما يتطارحه معهم من الشعر والأدب .

ذكر صلته بمجدي الدين بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء بمصر<sup>(١)</sup> ، وهو أديب معروف وشاعر مشهور ، وقد صنف سيرة الظاهر بيبرس . لم يذكر مدى تأثيره . ولم يشر إلى شيء من أدبه . بل اكتفى بتعته بالكاتب المصري<sup>(٢)</sup> . وذكر بهاء الدين بن النحاس النحوي<sup>(٣)</sup> ، ولعله كان أستاذه في علوم اللغة العربية .

وذكر الأمير شمس الدين محمد بن صاحب المنيني<sup>(٤)</sup> الذي شجعه على النظم . وهو لم يبلغ بعد سن الحلم ، واقترح عليه أن ينظم في زيادة النيل ، وسبق لنا أن أتينا على ذكره من قبل .

وذكر أيضاً علاقته بعلم الدين قيس بن سلطان الضرير ، وقال : إنه كان يقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب المشهورة . ويتطرح الشعر معه خلال هذه الجلسات الأدبية . وقد أنشده ابن نباتة ذات مرة :

يا غائبين ، تعللنا لغيبتهم بطيب عيش ولا والله لم يطب  
ذكرت والكأس في كفى لياليكم فالكأس في راحة والقلب في تعب

(١) مجدي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصري كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، توفي سنة ٦٩٢ هـ . حسن المحاضرة ص ٢٤٤ .

(٢) الوافي بالوفيات ص ٣١٧ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١ .

(٣) الوافي بالوفيات ص ٣١٧ ، والدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧٠ ، ٧١ .

(٤) المصدر السابق .

فقال له أستاذه : أتعب والله جزعك القدح<sup>(١)</sup>

نقف أيضاً مع ابن المفسر ، هذا الشيخ العالم الذى كان يطارج تلميذه  
نظم الشعر ، وقد أنشده لنفسه ذات مرة :

لا أرى لى فى حياتى راحةً      ذهبْتُ لذةً عيشى بالكِبَرِ  
بقيَ الموتُ لمثلِ سترَةٍ      يا إلهى ، أنتَ أولى من سَتَرَ

ولنستمع إلى شاعرنا الشاب يجيب أستاذه :

بَقَلْتُ وَجَنَةً<sup>(٢)</sup> المليحِ وَقَدْ وُلِّى      زَمَانُ الصُّبَا الَّذى كُنْتُ أَمَلِكُ  
يا عِدَارَ الحَبِيبِ دَعْنى فإِنى      لستُ فى ذا الزَمَانِ من خُلِّ بِقَلِكِ<sup>(٣)</sup>

كان ابن نباتة فى زمان الصبا والشباب ، لكنه قضى أجمل أيامه منكباً على  
التحصيل ، وذأب يزود نفسه بشتى المعارف ، ويتصل بمشاهير الأدباء والشعراء .

لا بأس أن نطوف ساعة مع الحمأى والوراق وقد اجتمع بهما فى زمان الصبا  
وأخذ عنهما مذهب العصر فى التورية. يذكر ابن نباتة أنه سمع الوراق ينشد لنفسه :

واخجَلْتى ، وصَحائفى مَسوَدَةٌ      وصحائفُ الأبرارِ فى إِشراقِ  
وتوقُّفى لموتِخِ لى قائلِ      أكذا تكون صحائفُ الوراقِ<sup>(٤)</sup>

هكذا يورى الوراق باسمه ، وهى صفة خاصة من صفات شعراء التورية  
الذين استخلموا صناعتهم وأسماءهم فى التوريات. ويذكر لنا ابن نباتة الحمأى<sup>(٥)</sup>  
الشاعر المورى أيضاً ، وقد لقيه أديبنا أيضاً ، واستمع له ، وهو ينشده لنفسه :

أحبُّ من الدنيا إلى وما جَوَتْ      غزالٌ تبدَّى لى بكأْسِ رحيقِ<sup>(٦)</sup>

(١) الديوان ص ٦٤ ، و الخزانة ص ٢٩١ ، والواقى بالوقيات ص ٣١٨ ، والمنهل  
الصاقى (مخطوط) ج ٢ و ٧٠ ، ٧١ ، والديوان ص ٦٤ .

(٢) بقل الوجبة : ظهر شعرة .

(٣) الديوان ص ٤٢٣ ، و الخزانة ص ٢٩١ والدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢١ ، والمنهل

الصاقى (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧٠ . (٤) الديوان ص ٣٥٢ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ (٦) الرحيق : الخمر .

وقد شهدت لي سنة اللّه أني أحب من الصهباء كل عتيق<sup>(١)</sup>  
وسرعان ما يجيبه ابن نباتة حول المعنى نفسه، فيرتجل له هذين البيتين :  
إني إذا آنستُ همًا طارقًا عَجَلْتُ باللذاتِ قَطَعَ طريقه  
ودعوتُ ألفاظَ المليحِ وكأسه فندمتُ بينَ حديثه وعتيقه  
يتجلى لنا مذهبه في الشعر ، وهو في سن مبكرة ، وإعلنا نلاحظ هذه  
العدوثة والسلاسة في أسلوبه . مما لم نعهد مثله في شعر من أشدوه من أدباء  
وشعراء ، وهو ما زال في زمان الصبا وربيعان الشباب ، فهل نشك في أن أستاذه  
الأول ابن دقيق العيد قد قدم للأدب العربي خير أديب أخرج للناس في هذا  
العصر ، كما أجمع على ذلك النقاد المعاصرون .

لم يكتف بالتعرف على كل هؤلاء والأخذ عنهم ، وهم أساطين الشعر والأدب  
بل عاشر غيرهم ، وقد أشار إلى ذلك في معرض إجازته للصفدي ، واعتذر  
عن ذكرهم ، لأنه عز عليه ألا يحضره شعرهم<sup>(٢)</sup> . ولقد كفانا الصفدي مؤونة  
التفتيش عنهم ، فذكر لنا أنه كان يكثر من التردد على القاضي علاء الدين  
ابن عبد الظاهر<sup>(٣)</sup> ، ويذكر أنه كان له منه نصيب<sup>(٤)</sup> .

استكمل - كما رأينا - ثقافته الدينية والأدبية في وقت مبكر ، واطلع على  
المذاهب الشعرية المعاصرة ، وكأنما أعجب بمذهب شعراء التورية ، فتأثر  
به كثيراً في أدبه ، وقد أوردنا علاقته ببعض شعراء هذا المذهب أمثال الوراق  
والحمامي وغيرهما .

وهكذا خرج للحياة بعد أن أجازته أشهر علماء عصره ، لكننا لانعرف  
على التحقيق متى نال أول إجازة ؟ ومن هو أول من أجازه ؟  
مهما يكن من أمر ، فقد أجازه الكثيرون ، وهو دون العشرين من عمره

(١) الديوان ص ٣٥٢ ، وحلبة الكمي ص ١٧ .

(٢) الخزانة ص ٢٩١ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢١ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢

و ٧٠ ، ٧١ .

(٣) علاء الدين علي بن محمد بن عبد الظاهر الأديب من كبار المنشئين وعلمائهم توفي سنة ٨٧١٧ .

(٤) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

لنبوغه المبكر ودأبه على التحصيل ليل نهار . والدليل على ذلك أن بعض الذين أجازوه ماتوا قبل السبعمائة ، فخرج للحياة يسعى في مناكبها كأحد علماء الدين .

## المرحلة الثانية

٥٧٠٧ - ٥٧١٦ هـ

بدأ ابن نباتة كفاحه في الحياة بعد أن أنهى عهد دراسته ، ولا ندري هل تسعفه الأيام ، وتبتسم له أم أنها سوف تتجهم أمامه ؟ ولعله كان يفتش عن عمل في ديوان السلطان ، لكن الأخبار أكدت أنه لم ينل منصباً يمكنه العيش ، لابل إنه لم يثبت لنا أنه تولى مشيخة أحد المساجد أو ما إلى ذلك .

كانت بضاعته الشعر ، ولم يكن ذا مال « وما كان ذو وفر يقيم له وزناً » - كما يقول<sup>(١)</sup> - وليس عليه إلا أن يستجدي بشعره ، لكنه لا يصيب حظاً ، لأنه كان مغموراً ، ومثله من يحتاج لزمن طويل حتى يشق طريقه في الحياة . ويسلك باب التعليم ليكون سبيله لكسب الرزق وأداء دوره في المجتمع ، ويفتح كتاباً للناشئة ، وقد عثرت على نص أنار لى محجة السبيل ، ووضح أمامي هذه الفترة الغامضة ، وكان ذلك في كتاب ( الانتصار ) لابن دقماق في معرض حديثه عن زقاق الأندلسيين ، إذ يقول : « ... وكان بأوله من جهة زقاق القناديل كتاب الشيخ ابن نباتة . . . »<sup>(٢)</sup> .

غير أنه قد يتبادر إلى الذهن أن ابن نباتة افتتح هذا الكتاب بعد عودته من بلاد الشام . ونحن بدورنا نرفض هذا الرأي لأسباب كثيرة ، أخص بالذكر منها أنه كان ضعيفاً عاجزاً في أيامه الأخيرة ، وأغنى من الحضور إلى الديوان الذي نقل إليه ، فكيف يقوى على إدارة الكتاب ؟

وفي هذه الفترة من هذا العصر يحدث صراع عنيف بين الناصر محمد ونائب السلطنة بيبرس الجاشنكير أتاكب العسكر ، ويترك السلطان ملكه بعد فراره إلى الكرك ، ويحتل بيبرس مكانه فترة من الزمن لاتتجاوز أشهراً معدودات ،

(٢) الانتصار، ج ٤ ص ١١ .

(١) الديوان ص ٥٨١ .

يعود بعدها- الناصر إلى ملكه ليستقر فيه زمناً طويلاً . أما أبوه فيترك مصر ، وكان من قبل شاهداً في ديوان الجاشنكير<sup>(١)</sup> ولعله كان يخاف انتقام الناصر ، ويقوم في دمشق حتى وفاته .

أما ابن نبأته فيعز عليه أن يغادر مصر ويحرم من ماء النيل ، وهو الذي أحبه ونظم فيه أول ما قاله من شعر . فكيف يتركه؟ وفضل أن يترك أباه يذهب وحده وفتح من مصره بالفقر والحرم .

نظن أن ابن نبأته قد تزوج في هذه المرحلة من حياته ، وأنشأ أسرة لكننا لانملك الدليل على ما نقول ، وإن أعوزنا ، فإننا نظن أن رحيله المقبل إلى بلاد الشام كان من أسبابه الرئيسية فقره وعوزة . ولعل أحسن صنفاً لو تحدثت في هذه المرحلة عن زوجه وجاريته وأبنائه .

أما زوجه فكانت امرأة ولوداً ، ولدت له قريباً من ستة عشر ولداً<sup>(٢)</sup> ، ومعظمهم كان يموت بين الخامسة أو السادسة أو السابعة من العمر ، ولم يعيش له إلا ولد واحد اسمه محي الدين محمد<sup>(٣)</sup> ، تعانى الأدب ، ونظم وسطاً ، وتكسب بالكتابة .

لعل عدد أولاده في هذه المرحلة لم يكن يتجاوز الخمسة ، وقد أشار إلى ذلك في معرض توريثاته :

لقد أصبحتُ ذا عُمُرٍ عجيبٍ أقضى فيه بالأنكادِ وقَتِي

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) المنهل الصافي ج ٦ ورقة ٢٩٥ (مخطوط) .

(٣) أورد ابن حجر ترجمة ولد ابن نبأته : « محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن نبأته يلقب محي الدين ، ابن الشاعر المشهور المتقدم ، تعانى الأدب ، فنظم وسطاً ، وكتب النسخ وقلم الحاشية والذمار ، وتكسب من ذلك بدمشق ، وقدم القاهرة بعد التسعين ، ومات بالقرب من ذلك » . ( الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢٩ ) . والطريف ما وقع من الوهم الكبير والتصحيح الخطير في النقل عن ابن حجر . فقد أسقط بعض النساخ كلمة ( ابن ) الواقعة بين ( محي الدين ) و ( الشاعر ) ، وصحفت ( التسعين ) فأصبحت ( السبعين ) ولذلك نشأ الخلاف حول وفاته التي لم يحددها بدقة ابن حجر ، فقال ابن العماد : « كذا قال في الدرر ، وجزم مختصر ضوء السخاوي أنه توفي في هذه السنة ، أى ٧٦٨ هـ » . وهذا الجزم ناتج عن هذا لسقط الكلمة ( ابن ) في النسخ ، فقد تحولت ترجمة الولد إلى أبيه وأعطى تاريخ وفاته . وما يؤكد مانذهب إليه أن الأب لم يلقب بمحيي الدين إطلاقاً . ( شذرات الذهب ج ٦ ص ٢١٢ ) .

من الأولادِ خمسٌ حولَ أمِّ فوا حَرْبَاهُ من خميسٍ وست<sup>(١)</sup>

تلك هي حال ابن نباتة في هذه المرحلة ، كما تصورتها ، لأنني لا أملك الكثير من الأخبار التي تجلي لنا هذه الفترة القصيرة من حياة الأديب ، لكنني حسبها هكذا كانت ، ولعلني قد وقفت في تصويرها بما تبين لي من نفسيته خلال دراستي المستديمة له . كما أنني أود لو أوضح الأسباب التي حدثت به ليتوجه إلى بلاد الشام بعد أن أخفق في نيل منصب بدر عليه ما يدرأ عن أسرته غائلة الفقر والجوع .

كما أنه - بالإضافة إلى ذلك - لمس من ممدوحه القلائل إخلاف الوعود عن بعضهم أو العطاء التزر من بعضهم الآخر . أما أشهر ممدوحيه في هذه الفترة القصيرة فهم : بدر الدين بن فضل الله ، وشرف الدين بن فضل الله ، وعلاء الدين بن الأثير .

## ١

## مع بدر الدين بن فضل الله

لعل أسرة آل فضل الله هي أول أسرة اتصل بها الشاعر ، فمدح أعيانها الذين يشغلون مناصب خطيرة في دواوين السلاطين المماليك في مصر والشام . وسرى أن ابن نباتة يستمر على مدح هذه الأسرة العمرية في معظم مراحل حياته الجديدة .

أما في هذه المرحلة فقد اتصل باثنين من رجالها : أولهما بدر الدين الذي نحن بصدده الآن وكان من أعيان الكتاب في ديوان السلطان ، وقد أسر عند هجوم غازان على بلاد الشام وهو إذ ذاك في صحبة السلطان ، وبقى في الأسر مدة من الزمن حتى تم خلاصه وإطلاق سراحه<sup>(٢)</sup> . مدح ابن نباتة بدر الدين بثلاث قصائد . أشار البشتكي جامع ديوانه إلى واحدة منها ، وذكر في الثانية أنه نقلها بعد موته لقريبه شهاب الدين . أما القصيدة الثالثة فذكر

(٢) الدور الكامنة ج ٤ ص ١٣٧ .

(١) الديوان ص ٨٠ .

أنها قيلت في الرثاء فقط<sup>(١)</sup> ، دون الإشارة إلى الشخص الذي قيلت فيه .  
وقد ثبت لدينا بعد التحقيق وإمعان النظر أنها قيلت في رثاء بدر الدين هذا .  
يضاف إلى القصائد الثلاث مقطوعة سداسية بعث بها إليه وهو مريض<sup>(٢)</sup> .

تقف عند القصيدة الأولى ، وبحلولنا أن ندعوها بالقصيدة السبكية ،  
وهي ذات طابع مصرى محض ، إذ يتغنى فيها بمصر ونيلها وسبكها وسواد عيون  
نساءها . يقول في مطلعها .

خليلي من مصر قفانَبِكِ في النَّبِكِ      على عيشنا بالنيل في فَلَكَ الفُلُكِ  
على مصرَ ، والهني على مصرَ لهفَةً      يصحُّ بها قلبِي المشوقُ على السُّبِكِ  
ويا طَربِي فيها إلى سوِدِ أَعْيُنِي      على مثلِهَا في كلِّ داجيةٍ أبكى<sup>(٣)</sup>

هذا المطلع الذي تغنى فيه الشاعر ببلاده لا يخرج في نظري عن التقليد  
المعروف للشعر الجاهلي لأنه يذكرنا بمعلقة امرئ القيس الشاعر الضليل الذي وقف  
واستوقف وبكى واستبكى ، وها هو ذا ابن نباتة يستوقفنا في النبك ويستبكيها ،  
ولا عجب إذا لم نلمه ، لأن كثيراً من الشعراء قبله ، ومنهم أبو العلاء ، قد  
مروا في طور التقليد حتى استقام لهم عمود الشعر ، ووصلوا إلى طور الابتكار .

لن نقف طويلاً عند هذا التسيب بل نتخلص منه إلى المديح ، لكن الشاعر  
لم يحسن التخلص ، بل انتقل دون أن يمهد لذلك ، والمعروف عنه - كما سئرى -  
أنه يجيد التخلص كل الإجابة ، لكننا نعذره ، ومن حقه أن يعذر لأنه نظمها  
وهو دون العشرين من العمر ، وذلك بدليل أن ممدوحه بدر الدين مات سنة  
٥٧٠٦ هـ .

التحق الشاعر في هذه المرحلة كما قلنا بأسرة آل فضل الله ، وقد قال  
في القصيدة المذكورة لممدوحه :

بكم آل فضل الله طافت مقاصدي      وتم على نجح الرجا بكم نسكي

(٢) الديوان ص ٢٣٥ .

(١) الديوان ص ٤٦٠ .

(٣) الديوان ص ٣٦٥ .

رَفَضْتُ الْوَرَى لَمَّا عَلِقْتُ حَبَالَكُمْ      وَنَزَهْتُ دِينَ الْحَبِّ فِيكُمْ عَنِ الشِّرْكِ  
وَسَرَّ فَوَادِي أَنْ أَقْلَامَ بَدْرِكُمْ      سرورٌ لذي ودٌ وغيظٌ. لذي محك<sup>(١)</sup>!

ويتحدث بعد ذلك عن أقلام مولاه في السلم والحرب ، ويصفها وصفاً رائعاً إذ يقول فيها :

لأقلامِ مولانا ثننا متضوعٌ      فهل هي في الكافور تكتبُ بالمسك ؟  
وما هي إلا القضبُ إماماً موائسماً      وإما مواضي الحدتحمي حمى الملكِ  
تربتْ بأكامِ الأسود ، ترابها      مواقعُ سُحبٍ ما نداها بمنفكِ  
مُسَخَّرَةٌ تجرى بما ينفعُ الورى      على يديه فانظرُ إلى البحرِ والفلكِ  
مؤمَّرةٌ تسرى إلى حومةِ الوغى      ومن أسودٍ في أبيضِ علمِ الرنكِ  
مسددةُ الأفعالِ والبأسِ والندى      ، ثقفهُ الآراءُ في الأخذِ والتركِ  
فأحسِنَ بها في الطَّرسِ هيفاً كحيلةً      تُريكُ قُدودَ العُربِ مع ثقلِ التُّركِ<sup>(٢)</sup>

إن دللتنا الأبيات السابقة على شيء فإنما تعطينا صورة واضحة عن العصر. ولا يهمننا كثيراً أن يتحدث لنا عن أقلام مولاه ، بل يهمننا أن ندلل على انطباع هذه القصيدة بطابع العصر ، وإن جاء أسلوبها في المطلع جاهلياً . فهو يتحدث عن حمى الملك وعن علم الرنك وعن ثقل أرداف الترك .

نخلص من دراسة هذه القصيدة إلى القول إن الشاعر لم يستكمل بعد صورته الشعرية الذاتية ، وقد أشرنا إلى التقليد في مطلع النسيب ، وذكرنا عدم قدرته على التخلص من هذا النسيب التقليدي إلى غرض المدح .

لكننا وضحنا في خلال ذلك وجود طابع مصري صميم في كثير من المعاني ، كإشارته للسبك ومصر والنيل ، يضاف إلى ذلك تعريضه بالعرب والترك واستخدامه بعض ألفاظ خاصة ، عرفها الناس في عصر المماليك .

لن نطيل وقوفنا عند شعره في هذه المرحلة ، ولكننا نستزيد من عرضها ،

(١) المحك : يقال محك يحك محكاً أي شار ونازع في الكلام ، وتمادى في اللجاجة .

(٢) الديوان ص ٣٦٥ .

ويحلو أن تقف عند القصيدة الثانية التي نقلها للشهاب بن فضل الله . ولقد تعددت الوقوف عندها لأن فيها بادرة جديدة في الشعر العربي ، فهو لم يبدأها في الغزل بل أخره وختم به قصيدته . ولم تكن نعهد مثل ذلك لدى غيره من الشعراء السابقين واللاحقين ، وهذا أول تجديد نلحظه في شعره ، وهو دون من العشرين . لكنه يبشر بخطوة جريئة ، تتعلق بعمود الشعر العربي الأصيل . يذكر لنا في مطلعها :

هنيئاً لأفقي الفضلِ ، إنك بدرهٌ      وإنَّ سجياكَ الكريمةَ زهرةُ  
قدِمتَ قدومَ الغيثِ يَهْمِي نواله      ويعبقُ رياهُ وَيَبْسِمُ ثغرهُ

لم يستطع أن يقلت الشاعر من بدره في مطلع قصيدته ، لأنه جاء تصريحاً للبيت ، ولا مناص من إبقائه بدره الأول في هذا المطلع من أفق شعره .

لائقف كثيراً عندها بعد ما تم نقلها ، لكننا نلقى نظرة عامة على هذه الخاتمة الفريدة التي هي من هيكل القصيدة ، لم تتغير بل بقيت معاني هذا النسيب ، كما كانت في هيكلها الأصلي .

أنجل العُلا ، قابلتني ساعة العُلا      مقابلةً لاقى بها القلبَ جبره  
إذا سِيدَ في نَظْمِ امتداحك بيتُهُ      فما هوَ إلا في ذوى النَظْمِ قَصْرُهُ  
لمدحك يا معني النسيب تأخرت      قوافي نسيب طالمًا طارَ شعرُهُ (١)  
على أنني مغرَى بكلِّ مَقْرَظٍ (٢)      بما خدّه ماء الحياةِ وخُضْرُهُ  
عجبتُ له في كأسٍ مرَّ شَفِيهِ الطَّلَا (٣)      وفينا ولم يقرب من الكأسِ سكرُهُ  
ثناؤك أشهى من ماء إلى قمي      ولفظك لا حلُّ الوصالِ ومرة (٤)

والطريف بعد هذا النسيب التقليدي أنه أحسن التخلص ، ليختم القصيدة

(١) الديوان ص ٢١١ .

(٢) القرظ لباس معروف ، معرب (كرته) ، يقال : قرظته فتقرظ ، أي ألبسته إياه فلبسه ، وقد تضم طاؤه وإبدال القاف من الهاء كثير في الأسماء المعربة .

(٣) الطلا : أي الطلاء بقصر المدد لضرورة شعرية ، وهي الخمر .

(٤) الديوان ص ٢١٢ .

بثلاثة أبيات ، يدعو فيها لممدوحه بطول البقاء .

يبقى علينا أن نعرض للقصيدة الثالثة التي تبين لنا — بعد التحقيق — أنها قيلت في رثاء بدره ، وقد تعجب لظهور الحكمة فيها ، وهو في مثل هذه السن المبكرة :

بَكَى لَكَ الْعَالِيَانِ : الْقَدْرُ وَالْهَمُّ      وَالْمَاضِيَانِ : سِنَانُ الرَّأْيِ وَالْقَلَمُ  
يَا غَائِبًا ، أَظْلَمْتَ دَارَ لَغَيْبَتِهِ      وَهَكَذَا الْبَدْرُ تَدَجُو بَعْدَهُ الظُّلَمُ  
« يَا مَنْ نِعَزُ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ      وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ يُبْعِدُكُمْ عَدَمٌ »<sup>(١)</sup>  
رَحَلْتَ عَنْ عَادِي صَبْرٍ وَمَا « قَدَرُوا      أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالِرَّاحِلُونَ هُمْ »<sup>(٢)</sup> (٣)

هذا المطلع لا جديد فيه لأنه صورة عن الرثاء المعروف ، لكننا نلاحظ — بالإضافة إلى ذلك — التقليد ظاهراً كل الظهور ، فقد تضمن شعره بعض شعر المتنبي في ميمته المشهورة . وسرى أن هذه الخاصة قد طبعت شعره كله بهذا النوع من التضمن ، ذلك لأننا لانمر بقصيدة ما لم نرها قد تضمنت شرطاً أو آية أو حكمة مأثورة أو كلمة مشهورة ، ويدلنا هذا على ثقافته الواسعة وقوة حافظته ، ومثله من يتصف بذلك وهو المحدث المشهور .

يظهر في هذا الرثاء بعض الإشارات الخاصة إلى الوحدة السياسية بين مصر والشام كما في قوله :

مَاذَا تَرَكْتِ لِأَرْضِ الشَّامِ مِنْ أَسْفٍ؟      إِذَا تُذَكِّرْتِ الْأَنْسَابُ وَالشَّمِيمُ  
مَاذَا تَرَكْتِ بِمِصْرٍ مِنْ حَقِيقِ جَوِي؟      يَا إِذَا الشَّيْبَةَ حَتَّى آذَهَا الْهَرَمُ<sup>(٤)</sup>

بدأ بالشام وشفعها بمصر ، وجمعهما في الهرم ، وهذا خير دليل على وحدة الشعور بالآلام والمصائب ، وهذا — في نظرنا — عنصر هام من عناصر وحدة الشاعر في ذلك العصر . والجديد في هذا الرثاء أننا بدأنا نرى ظهور براعم الحكمة في شعره :

(١) ضمن الشاعر في قصيدته هذا البيت من قصيدة المتنبي (واحر قلباه) التي عاتب بها سيف الدولة ، ومعظم البيت الذي تلاه (ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٧٠) .

(٢) الشطر الأول في بيت المتنبي هو « إذا رحلت عن قوم وقد قدروا » (ديوان المتنبي

ج ٣ ص ٣٧٢) .

(٣) الديوان ص ٤٦٠ .

(٤) الديوان ص ٤٦٠ .

مَضَى الْأَنَامُ عَلَى هَذَا وَسَاقَ بِهِمْ حَادِي الرِّدَى، وَمِنْ مَضَى نَحْنُ إِثْرَهُمْ  
وَالْمَرْءُ فِي الْأَصْلِ فَخَّارٌ وَلَا عَجَبٌ إِنَّ رَاحَ وَهُوَ بِكَفِّ الدَّهْرِ مَنْحَطٌ  
وَاللْمَنْيَّةُ فَخٌّ مِنْ هَلَالِ دُجَا «شَهْبُ الْبُرَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ» (١)

ترك حديثنا عن هذه الحكمة لموطنها في بحث الرثاء ، ولنتنقل إلى ممدوحه  
الثاني من أسرة آل فضل الله .

## ٢

## مع شرف الدين بن فضل الله

لم يصلنا شيء من مدح ابن نبأة لشرف الدين (٢) ، ولكننا نقرر منذ  
البدء أنه كان يمدحه ، والدليل على ذلك أنه رثاه عندما انتقل إلى بلاد الشام  
بعد عام واحد ، وفاءً لهذا الفقيه الذي عرفه في أيام صباه . وقف على قبره يبكي  
عهده ، ويدعوه بالسقيا . ويظهر لي أنه كان كثير الإحسان إليه ، فمدحه  
وهو بمصر ، فلما ألقى عصا الترحال بأرض الشام بلغه نعيه فزار قبره وعاده  
استعبار ، وذرف دموعاً سخينة لذكرى فقيده الراحل :

سَقَاكَ وَحْيَاكَ الْحَيَا أَيُّهَا الْقَبْرِ وَفَاضَتْ عَلَى مَغْنَاكَ أَدْمَعُهُ الْغُزْرُ  
وَزَارَتْ ثَرَاكَ الطَّهْرَ سَحْبٌ وَفِيَّةٌ لَدَى الْمَحَلِّ حَتَّى يُجْمَعَ الطُّهْرُ وَالطُّهْرُ  
تَجُودُ بِسُقْيَاهَا عَلَى جَدَثِ الْعَلَا وَإِنْ كَانَ فِي أَرْجَائِهِ الْبَحْرُ وَالْبَرْ  
إِمَامٌ تَقَى لِلْمَلِكِ فِي رَأْيِهِ هُدًى وَصَدْرٌ عَلَا لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ سِرٌّ

(١) ضمن الشاعر الشطر الثاني من قصيدة المتنبي (واحر قلباه) ، وصدر البيت « وشرف  
ما قصصته راحتي قنص » (ديوان المتنبي ج ٣ ص ٣٧٣) . الديوان ص ٤٦١ .

(٢) شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله ، ولد سنة ٦٢٣ هـ وتماي الكتابة وامتاز أسلوبه  
بعده عن التكلف والتصنع . ول كتابه السر في عهد الأشرف خليل ، ولما رجع الناصر من الكرك  
سنة ٧٠٩ هـ نقله إلى كتابة سردمشق عوضاً عن أخيه محيي الدين ، وخلفه في منصبه علاء الدين بن  
الأثير وبقي شرف الدين بدمشق حتى وفاته سنة ٧١٧ هـ . الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٢٨، ٤٢٩ .

عليك ، ابن فضل الله ، سَمَّيْتْ جِيوبَهَا      فضائلُ في طيِّ البلادِ لها نَشْرُ  
سلامٌ على الإنشاءِ بعدَ فراقِهِ      سلامَ امرئٍ أَمْسَى لِأدمعِهِ نَشْرُ<sup>(١)</sup>

٣

### مع علاء الدين بن الأثير

خلف ابن الأثير<sup>(٢)</sup> شرف الدين بن فضل الله في كتابة السر بعد عودة  
الناصر من الكرك سنة ٧٠٩ هـ ، ومن الطبيعي أن يتصل به ابن نباتة ،  
فيستريح جدواه . وقد مدحه بثلاث قصائد ، ورثاه برابعة ، ولو أمعنا النظر في  
هذه المدائح لوجدناه يشكو لأول مرة في حياته سوء حاله ، وينعت نفسه بأنه  
عبده ، و ينتظر منه العوث والرحمة .

هنأه بعد عودته من الحجاز بقصيدة تتجاوز التسعين ، وهي من أطول  
قصائد وأجملها يبدوها كالعادة بالنسب ، ويطول نفسه في هذا النسب ،  
ويحلو لنا أن نقتطف ما نراه جديداً لم نعهده في نسبه من قبل :

أما وتلقَّت الرشاً الغرير<sup>(٣)</sup>      ولينِ معاطفِ الغُصنِ النَّصِيرِ  
لقد عَبَّيْتُ لواحظُهُ بعقلي      فيا وَيَلِ الصَّحِيحِ مِنَ الكَسِيرِ  
وفيه يقول :

فربَّ دجِّي لنا فيه عِنَاقُ      تغوُّصُ به القلائدُ<sup>(٤)</sup> في النحورِ  
زمانُ العيشِ مبتسمُ الثنابيا      ووجهُ الأنيسِ وضَّاحُ السرورِ

(١) الديوان ص ٢٣٢ .

(٢) علاء الدين عل. بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي الأصل المصري ، ولد  
سنة ٦٨٠ هـ ، وكان أبوه من أعيان الموقعين ، وقد صحب الناصر إلى الكرك وبعد عودته نقل  
شرف الدين بن فضل الله المار ذكره إلى دمشق ، ووضع مكانه علاء الدين ، واستمر في منصبه  
حتى إصابته بالفالج ومات سنة ٧٣٠ هـ . حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٢ ، والدرر الكامنة  
ج ٣ ص ١٤ - ١٦ ، والوفاء بالوفيات ( مصورة المخطوطة ج ١٩ ل ١٢٨ ) .

(٣) الرشاً : ولد الظبية أو الذي تحرك ومشى مع أمه .

(٤) القلائد : جمع قلادة وهي ما تجعل في العنق من الحل .

ووصلُ معذبى جناتٍ عَدْنٍ لباسى فيه ضمُّ كالحريرِ  
 ترومُ يدائى فى خصره مَسْرَى ولكن ضاقَ فترُّ عن مسيرِ  
 وتعبا الكفُّ عن كشحِ هضمٍ<sup>(١)</sup> فأرفعها إلى ردْفِ وثيرِ  
 وأسترُ ثغرةً باللثمِ خوفاً على ليلى من الصبحِ المنيرِ  
 مَقَى صوبُ الحيا تلكَ الليالى وإن عوّضتُ بالدمعِ الغزيرِ  
 وحيّا منزلَ اللذاتِ عَنّا وإن لم يُمننَ منّا بالعميرِ  
 وبدراً فائزاً بالحسنِ يحثو ترابَ السبقِ فى وجهِ البُدورِ  
 يَلدُّ تغزلُ الأشعارِ فيه لداذةً مدحها فى ابن الأثير<sup>(٢)</sup>

لم نعهد غزل الشاعر من قبل كهذا الذى بين أيدينا ، إذ نستشق منه نفحة شعراء الغزل الأقدمين ، ولعل الشاعر أراد من هذا الغزل الرائع أن يستميل قلب ابن الأثير وأن يظهره على قوته فى الشعر وطول باعه . يؤيد قولى هذا ما وصف به الشاعر شعره إذ يقول :

ولى لفظُ رقيقُ الورْدِ جَزَلٌ كما نَبَعُ الزلالُ من الصخورِ  
 سَمّا شعري وعادَ على علاهمُ فلَقَبْنَاهُ بالفلكِ الأثيرى<sup>(٣)</sup>  
 وأحسنُ ما سرى بيتُ لطيفُ يُصاغُ ثناهُ فى بيتٍ كبير<sup>(٤)</sup>

يمدح الشاعر صاحبه بما عرفناه من معانيه السابقة ، ولعله من لغو الكلام أن نقف عندها كرة أخرى ، على أننا قد استوقف نظرنا فى هذه القصيدة الحجازية الغراء وصف حاله وذكر ما يقاسيه من عنت الحياة ، وقد ضمن هذا الوصف عتاباً يلين حيناً ويشد حيناً آخر :

أطلتُ مديحَه وأجدتُ فيه وما حابيتُه وزنَ النقييرِ<sup>(٥)</sup>  
 وقمتُ بجاهِهِ أشكو الليالى كما تشكو الرعيّةُ للأميرِ

(٢) الديوان ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٤) الديوان ص ٢١٤ .

(١) كشح هضم : أى أخمص منضم .

(٢) الأثير هو عند الأقدمين الفلك التاسع .

(٥) النقيير : النكته فى ظهر النواة .

وأعجبُ كيف أظمأُ من غَمَامٍ .  
وكيف ظلالُهُ تسعُ البرَايَا ؟  
وما في السحبِ مثلُ نَدَى يديهِ  
رعاكَ اللهُ داركَ شكوى عبدِ  
فمثلُكَ من أغاثَ حليفَ بيتِ  
أتيتُكَ مُحْرَمًا من كلِّ صنعِ  
وقد سَمَلَ الجليلَ مع الحقييرِ  
وشخصى قائمٌ وَسَطَ الهجيرِ  
وما في الأرضِ مثليَ من شكورِ  
تَمَسَّكَ منك بالعدكِ السفيرِ  
فأخيا بعضَ سكانِ القبورِ  
فدُمُ ، يا كعبةً ، للمستجيرِ<sup>(١)</sup>

تمثل هذه الخاتمة من قصيدته الحجازية أصدق تمثيل سوء حال الشاعر وفقره ، ولعل كثرة أولاده من العوامل التي أفقرته ، وجعلته يتوسل بذلة وضراعة لابن الأثير ، فيذكر له جمال شعره ورقته ، وقد سماه بالفلك الأثيري ، ثم يقول له في هذه الخاتمة : لقد أطلت مديحك ، وجودته لك ، وشكوت لك فيه سوء حالي ، ولكنني أعجب كل العجب : كيف أبقى ظمآن القلب ، والغمام يشمل الناس جميعاً ، وأنا محروم منه ؟ . وأعجب كيف يظلل الناس بظلاله الوارفة ، ويسعهم جميعاً ، لكنني محروم من ظلاله . فأنا وحدي دون الناس أجمعين قائم وسط الهجير .

إنه عتاب الشاعر لأنه محروم ، إنه عتاب إنسان بلغ به اليأس مبلغه ، إنه صوت إنسان محروم ، ينادى سيده : رعاك الله ، دارك شكوى عبدك . فهو يستجدي منه العطف ، وتهون عليه نفسه فيقول له : إنه عبده . وكنت أود لو صان ماء وجهه ، فلم يلقب نفسه بالعبد ، لكننا لاحظنا ذلك في كل قصائده التي قالها فيه<sup>(٢)</sup> ، ولعله كان تقايد العضر في أدب المخاطبة .

لا تخرج القصيدتان اللتان قالهما الشاعر - بالإضافة إلى هذه القصيدة - عما رأيناه من وصف سوء حاله . ولا حاجة بنا لتكرار القول ، لكننا نقف عند القصيدة الرابعة التي يدور حولها الشك .

(١) الديوان ص ٢١٥ .

(٢) الديوان ص ٨٤ ، ١٠٨ ، ٣٤٤ .

أما مصدر الشك فهو أن جامع الديوان البشتكى ذكر أنه قالها ولم ينشدها ،  
وهي في الحقيقة قد قيلت في رثائه . وكان الشاعر إذ ذاك قد بلغ بلاد الشام ،  
فسمع بموته ، فرثاه بالقصيدة المذكورة ، لكنه عدل عن هذه القصيدة وغيرها  
بعد أن سارت بها الركبان . استندت في حكمي هذا على ما ذكره ابن حجر  
العسقلاني في درره : ولا بن نبأته فيه مرثية طنانة ، ومن قوله فيها :

لاعدِمْنَا لابن الأثير يراعًا جاريًا للعُفاة<sup>(١)</sup> بالأرزاقِ  
كلِّما ماسَ في المهارقِ<sup>(٢)</sup> كالغصه نِ رأيتَ النَّدى على الأوراقِ<sup>(٣)</sup>

أما في الديوان فقد جاءت القصيدة في معرض المدح لا الرثاء ، بُدئت  
بالنسب وجاء المديح بعدها ، ولا بأس أن أورد نص البيتين السابقين لئرى  
ما طرأ عليهما من قلب وتحريف :

ذو يراعٍ جارٍ بفصلِ القضايا واتصالِ العُفاة بالأرزاقِ  
كلِّما ماسَ في المهارقِ كالغصه نِ رأيتَ النَّدى على الأوراقِ<sup>(٤)</sup>

نتساءل هل من دلائل أخرى تثبت وتؤكد أن القصيدة قيلت في الرثاء ؟  
وعدت لإيها مراراً فوجدت أثر البكاء واحمرار الدموع في مطلعها :

ما عليكمُ من احمرارِ دموعٍ قد تحلَّوا بها مَعَ الأطواقِ<sup>(٥)</sup>

قد يتبادر إلى ذهننا بعض التعجب ، فتساءل : لم غير الشاعر رثاءه  
في ابن الأثير ، وقلبه يمدح به غيره ؟ يذكر جامع الديوان أنه لم ينشدها وقد  
أورد أجزاء منها ابن حجر ، وقال إنها مرثية طنانة . هل نضبت قريحته ؟ أم  
لعل حرمانه له — يعطى الناس جميعاً وهو وحده قائم وسط الهجير — هو الذى

( ١ ) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .

( ٢ ) المهارق : جمع مهرق ، وهو اسم مقول من أهرق ، ومعناها الصحيفة ، تصنع من  
قماش حريرى يسق الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه .

( ٣ ) الدرر الكامنة ٣ ص ١٥ ، ١٦ .

( ٤ ) الديوان ص ٣٤٦ .

( ٥ ) الديوان ص ٣٤٥ .

أثار نقمته عليه فلم يحفظ عهده لأنه نكث وعده وأخلف ظنه .  
 إن شعر أديبنا ابن نباتة في هذه المرحلة ، وبخاصة مديحه لابن الأثير  
 يصف لنا حاله السيئة خير وصف ، ويبين لنا أنه اشتكى من الفقر وتضرع  
 لمدوحيه باذلاً ماء وجهه، لكنه أفاق من هذه الذلة والمسكنة صفر اليدين ،  
 وصمم على مغادرة أرض مصر ميمماً شطره نحو آفاق جديدة ، لأنه لأكرامه  
 لنبي في وطنه .

### المرحلة الثالثة

٥٧١٧ - ٥٧٣٢ هـ

نعتقد أن هذه المرحلة أهم مرحلة مر بها الأديب الكبير في حياته على  
 الإطلاق ، ونعتقد أيضاً أنها فترة ذبوع صيته وسيرورة ذكره في جميع بلاد  
 المشرق ، فلأ الدنيا وشغل الناس .  
 غادر مصر ، في أوائل سنة ست عشرة وسبعمائة ، وتوجه إلى بلاد  
 الشام<sup>(١)</sup> ، وكأنما كان يتشوق إلى الأرض الطاهرة التي ضمت رفات جده  
 الأول نباتة في ميفارقين ، والأرض التي استمعت لخطب جده عبد الرحيم  
 خطيب الخطباء .

يتكرر في ذهني إلهام وتساؤل عن الأسباب التي دعت ابن نباتة لترك  
 مصر ، ولا شك أن فقره كان أحد هذه الأسباب ، لكنه ليس كل شيء في  
 هذا الأمر .

وتتراحم الخواطر المختلفة في ذهني ، ولعل أحسن صنفاً لو تبينت حقيقة  
 هذه الدوافع التي شجعت على الرحيل وهو في ريعان الصبا ، ولما يتجاوز  
 بعد الثلاثين من عمره .

(١) البدر الطالع ج ٢ ص ٢٥٢ ، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،  
 والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

كان الفقر - كما أسلفنا - أحد هذه الأسباب ، لأن حياته كانت تضمن عليه حتى بالقوت الزهيد . يمدح أعيان عصره ، فلا ينال بعض ما يستحقه ، وكان يعرض حيناً ويصرح أحياناً بسوء حاله ؛ وقد فصلنا هذا الأمر في مطولته الأثيرية الحجازية عندما عاتب ابن الأثير بصريح الشعر ؛ فذكر له أن ظلاله تسع البرايا جميعاً ، وشخصه قائم وحده وسط المهجير ، يقامى لفحه وشواظه ، ويعجب كيف يظماً ، والغمام من فوقه يهطل مدراراً على الحقير والجليل ، وينتظم البلاد من أذناها إلى أقصاها ، ويمتنع عنه ، فلا يصيبه نغبة من صيبه ، ولا قطرة من ودقه .

هاجر كثير ممن يعرفهم ومن لا يعرفهم ، فأصابوا الغنى والجاه ، وهم دونه أدباً وعلماً ، فلم لا يجرب حظه كغيره ، والحياة حظوظ ؟ !  
كما أن أباه قد ترك من قبله أرض مصر ، فهل يلحق به ؟ وكان قد مضى أمد غير يسير على سفره ، وبالفعل سار على هديه فلعله يجد بعد عسر يسراً ، وبعد الشقاء سعادة وهناء .

قد يكون لابن نباتة اتجاه سيامي معين مثل أبيه ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت سلاطين المماليك غاضبين على هذه الأسرة النباتية في بعض الأحيان ، وإلا لم نلحظ إعراض أكبر شعراء العصر وأدبائه عن مدح الناصر محمد ، وهو الذي شملت مدة حكمه ثلاث مراحل تقريباً من حياته . لعل السخط الذي لحق أباه أصابه أيضاً ، وقد كان - كما ذكرنا - شاهداً في ديوان الجاشنكير بيبرس ، ويكفي هذا أن يكون سبباً كافياً لسخط السلطان عليه أيضاً .

لا نستغرب إذا لم نجد قصيدة سلطانية خلال هذه المراحل الثلاث من حياة ابن نباتة ، وقد يكون موقف ابن الأثير منه مجارة لرغبة السلطان . يضاف إلى كل تلك العوامل ما ذكرته كتب التاريخ عن قدوم الملك المؤيد أبي الفداء في العام المذكور إلى القاهرة ، ومبالغة السلطان في إكرامه . ومن الطبيعي جداً أن يتصل بهذا الملك الأيوبي كبار القضاة والشيوخ والشعراء والأدباء . ما دام السلطان قد احتفى بصديقه الذي خدمه حيناً كان منفيًا بالكرك.

ولعل ابن نباتة كان أحد الذين وفدوا عليه وهو بمصر ، فدحه كغيره ، وكان هذا بدء تعارف بينهما ، ولعله طلب إليه أن يوافيه في حماة عاصمة ملكه .

• • •

مهما كانت الدوافع التي حملته على الرحيل إلى بلاد الشام ، فالمهم أن الشاعر حل بهذه الأرض الطيبة ، لكنه لا يدري أين يقيم . في دمشق أوفى حماة أو في حلب أو في غيرها من عواصم بلاد الشام ؟ ، وقد حاولت أن أعرف المكان الرئيسي الذي أقام فيه خلال هذه المرحلة ، ومنه انتقل إلى سائر المدن الشامية .

لم يشر أحد من المؤلفين القدامى إلى هذا الأمر ، وقد درست شعره بعمق ، وصنفت آثاره التي ألفها للملك أبي الفداء . فوجدت أن كل هذه المؤلفات قد كتبها تلبية لطلب الملك العالم الأيوبي ، وأن القصائد التي قيلت فيه تعنى بالضرورة أن الشاعر أقام في حماة إقامة متصلة ، كان يسافر بين الحين والآخر إلى حلب الشهباء ودمشق الفيحاء وغيرهما من المدن .

كانت مملكة حماة الأيوبية كعبة الأدباء قبله ، فقد ألم بها كثيرون ، منهم الشرف الأنصاري والتلعفري وابن ظفر الصقلي وابن مطروح والشهاب محمود والصنبي الحلبي والمقرئ الفيومي ، بل كان العلماء والأطباء يتركون حواضرهم ليقيموا في بلاط الملك الأيوبي الذي كان يستخدمهم ، ويدر عليهم الأرزاق ، مثل الأبهري الذي كان بارعاً في الطب وعلم الهيئة ، ويعرف علم الحساب والمساحة والاسطرلاب ، فقد ذكر ابن حجر أن المؤيد اقتطفه ، وأجرى عليه رزقه ، فلم يزل بحماة إلى أن مات المؤيد وتحول بعدها إلى حلب<sup>(١)</sup> .

فهل يترك إذاً ابن نباتة هذا البلاط الأيوبي الذي يزخر بالشعراء والأدباء والعلماء من كل الأصقاع ، ويبقى بعيداً عنها ، ينتقل بين دمشق وحلب وطرابلس ، أو يُهرع إليها ليقيم فيها ، وينعم بنواقل مليكها العالم ؟

## ١ في بلاط الملك المؤيد

أشارت بعض المصادر القديمة إلى أن ابن نباتة كان يفد على حماة لينال عطاء أبنى القداء ، ويعنى هذا القول أنه لم يقم فيها إقامة دائمة ، لكننى فكرت ملياً في هذا الأمر ، وحررت فيه ، ذلك لأن ما بين يدي من المصادر ينفي قول الأقدمين ، ويشعرنى أنه أقام إقامة مستديمة في حماة بعد وفوده على بلاد الشام بمدة لا تزيد على ثلاث سنوات أو أربع . والدليل على ذلك أن كل مؤلفاته قد ألفت بناء على طلب من الملك المؤيد ، وأن مؤيدياته تضم مجموعة كبيرة من القصائد ، بله المقطوعات الصغيرة ، تزيد على اثنتين وأربعين قصيدة ومقطوعة قالها الشاعر في مدة لا تزيد على خمس عشرة سنة . وقد أشار في بعض قصائده إلى وفادته عليه كل عام . واستقصينا هذا الأمر ، فوجدناه لا يتعدى قصيدتين اثنتين أو ثلاثاً على أبعد تقدير ، كما في قوله :

إذا لم يكن للغيث في العام نجعةٌ      فحسبُك بالملكِ المؤيدِ منجماً  
غدَّتْ كلَّ عامٍ لى إليه وفادةٌ      فيا حبذا من أجلٍ لُقياهُ كلَّ عا  
تَطَوَّقْتُ تطويقَ الحمامِ بجودهٍ      فلا عجبٌ لى أن أحومَ وأسجماً<sup>(١)</sup>

قد يكون هذا الأمر صحيحاً خلال سنى وفادته الأولى ، لكننى أجزم ، وأؤكد أن ابن نباتة أقام بحماة في معظم أوقاته في هذه المرحلة ، ومنها كان ينتقل بين غيرها من المدن الأخرى . والدليل على ذلك ما عثرت عليه في بعض آثاره، إذ تحدث في سجع المطرق عن الشيخ الحموى جمال الدين بن حماد ، وذكر نبذة من مكاتباته إليه ، ثم قال « كتبت إليه أول وفودى على حماة ونزولى عنده »<sup>(٢)</sup>. وفي حماة عاش ابن نباتة ، وقضى فيها أجمل أيام حياته ،

(١) الديوان ص ٣٩٤ .

(٢) سجع المطرق (مخطوط) و ٥٥ .

فلترك الشاعر يتحدث لنا عنها بلسانه : « وبعد ذلك فكل الأحاديث الطيبة طيب حماة وحماها ، وطيب النهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، وكؤوس فواكهها المختومة ، وزراني أزهارها المبتوثة ، وفضل عاصيها فكيف طائعا؟ ونواعيرها التي كانت كأنما ترد على السحب ما في الأنهار من ودائعها . دخل المملوك فكأنما دخل دار السلام من الجنة ، واتخذها ملجأ ، فكأنما اتخذ من طوارق الأيام جنة ، وقابل ملكها ، فكأنما قابل الملك الأنور ، وشكا الظمأ ، ففاض من كل أنملة بحر يهزأ بجعفر »<sup>(١)</sup>.

يؤكد ذلك أيضاً ما ذكره ابن تغرى بردى في ترجمة الملك المذكور ، وأشار إلى شاعره ، وبين بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان مقيماً عنده ، وله عليه رواتب تكفيه<sup>(٢)</sup>.

كانت حماة ملجأه ، وكانت له دار إقامة ، فهل من بعد قوله هذا شك ؟ إنه خير قبلا وأحسن دلالة وتأويلا . قابل ملكها الأنور ، فأفاض عليه العطاء ، فأغنائه عن كل ذى مال غيره ، وانصرف يجمع له أجمل الألحان المؤيدية ، ويتحدث عن حماة القاهرة ، ويعجب بنواعيرها ، وهي تنوح وتغنى ، وهي « فلك يدور على الحجر مطلقاً أسنى الكواكب »<sup>(٣)</sup> من منازل البحر ، « وهي ذات ذوائب »<sup>(٤)</sup> مؤلفة من « دف أشجار »<sup>(٥)</sup> تغنى على الدف<sup>(٦)</sup> تارة ، وتبكي تارة أخرى « كحالة الصب بين اليأس والأمل »<sup>(٧)</sup> فإن « حنت فباطنها قلوب كله »<sup>(٨)</sup> ، وإن « بكت فظاهاها الجميع عيون »<sup>(٩)</sup> .

وناعورةٍ قَسَمَتْ حَسَنَهَا عَلَى وَاصِفٍ وَعَلَى سَامِعٍ  
وقد ضاعَ نَشْرُ الرِّبَا فَاغْتَدَتْ تَدُورُ وَتَبْكِي عَلَى الضَّائِعِ<sup>(١٠)</sup>

(١) سجع (المطوق) و ٤٠ .

(٢) المنهل الصافي (مخطوط) ج ١ و ١٧٥ .

(٣) الديوان ص ٦١ .

(٤) الديوان ص ٦١ .

(٥) الديوان ص ٣١٥ .

(٦) الديوان ص ٥٣٨ .

(٧) الديوان ص ٤٢٥ .

(٨) الديوان ص ٥٣٨ .

(٩) الديوان ص ٣١٧ .

ويتحدث بلسانها ويقول إنها تدور على قلبها الضائع :

وناعورة قالت : وقد ضاع قلبها وأضلُّعها كادت تُعدُّ من السَّقمِ  
أدورُ على قلبي لأني فقدته وأما دموعي فهي تجرى على جسمي<sup>(١)</sup>

ويتحدث أيضاً عن موج دموعها وسقام ضلوعها قائلاً :

أحسن بها ناعورة في روضةٍ عن جعفرٍ يروي الهناءَ ربُّيعها  
هذا وليس يُعدُّ موجُ دُموعها وتُعدُّ من فرطِ السقامِ ضلوعها<sup>(٢)</sup>

ويشخص هذه الناعورة أيضاً قائلاً :

يا حبِّذا في الحسنِ ناعورةٌ كأنها من فلكِ الشمسِ  
تحمي حمى الروضاتِ من مائها وشكلها بالسيفِ والترسِ<sup>(٣)</sup>

لم يقتصر الشاعر على وصفها وصف الناظر أو السامع ، وإنما كان يعبر  
من خلال ذلك عن أحواله . فهي قد نشأت مثله على عهد الأسي فأدمعها  
مستلمة من أدمعه :

ناعورةٌ نشأت على عهدِ الأسي مثلى فما تنفك ذاتِ توجعٍ  
كانت قضيبياً قبلَ ذلك يانعا في أيكَةِ نَبَتَتْ بإثرةٍ موضعٍ  
نأحَ الحمامُ بها وأبكاني الأسي فتعلَّمتْ نوحَ الحمامِ وأدمعى<sup>(٤)</sup>

ويبها الشاعر أحزانه ، ويشكو لها الغرام لتواسيه وتسليه :

وناعورةٌ كانت قضيبياً فأصبحتْ إلى القِضبِ شوقاً كالحمامة تسجعُ  
شكوتُ لها ضرَّ الغرامِ وحالها كحالي بكاءً أو حنيناً يُرجعُ  
ولا بدَّ من شكوى إلى ذى مروءةٍ يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ<sup>(٥)</sup>

(٢) الديوان ص ٣١٧ .

(٤) الديوان ص ٣١٥ .

(١) خزنة الأدب ص ٣١٩ .

(٣) الديوان ص ٣٧٢ .

(٥) الديوان ص ٣١٥ .

إن حديثه عن هذه المدينة الخالدة ذات النواير الخالدة حديث إنسان مقيم عرفها عن كتب ، فأحب أهلها وأحبوه ، وكتب إليهم وكتبوه ؛ وكأنما أسكرته طبيعتها الساحرة فتغنى بسحرها وجمالها ، ونهل من صهباء مليكها ، واستظل بدوحه الوارف ، بعد أن بقي زمناً طويلاً قائماً وسط الحجير في كتف ابن الأثير يشكو الظماً ولا يجير .

فليقر الآن عيناً ، ولينشد مع هذه النواير الخالدة في تلك المدينة الساحرة أجمل ألحانها المؤيدية ، وهل غير أبي الفداء أحق بهذه الأناشيد النباتية ؟ هكذا انقضى زمانه بالجدل ، وقد نسى الشاعر في هذا الوادي المقدس بؤسه وشقاءه . فنعيم بالحياة في ظلال هذا المليك ، وشعر بالراحة الكبرى في هذا البلاط الحافل . فنظم أجمل ما قاله من شعر في حياته ، فكان شعره في الملك المؤيد ، إسكندر زمانه - كما يقول - آية شعره على الإطلاق ، فهل يترك الإسكندر الأيوبي بعد ما شهد السعادة والصفو والهناء :

أَمَا حِمَاةُ فَعِيْشُ سَاكِنِيهَا صَفْوٌ ، وَكُلُّ زَمَانِيهِ سَحْرٌ  
إِسْكَندَرُ الْأَيَّامِ مَالِكُهَا بِدَلِيلٍ أَنَّ زَمَانَهُ الْخَضْرُ  
كان في مصر يسأل أعيان الناس . فيخلفونه وعودهم ، لكنه ما كاد يسأل أبا الفداء حتى غمره العطاء وأغناه عن كل ذي مال :

شَكَرْتَ لَهَاكَ فَمَا أَشْكُ بِأَنِّي ثَقَلْتُ وَهِيَ مَطِيْقَةٌ أَثْقَالَهَا  
أَغْنَيْتَنِي عَنْ كُلِّ ذِي مَالٍ فَلَمْ أَفْتَحْ يَدًا لِمَوْى نَدَاكَ وَلَا لَهَا  
وَكَفَيْتَنِي حَتَّى قَفَوْتُ مَعَاشِرًا كَثَرَ النَّدَى فَاسْتَكْشَرْتُ أَطْفَالَهَا  
أَيَّامَ مَالِي غَيْرَ قَصْدِكَ حِيلَةٌ تُنْجِي وَتُنْجِعُ فِي الْوَرَى نُظَالَهَا<sup>(١)</sup>  
لَا زَلْتَ مَقْصُودَ الْجَمَى بِقَصَائِدِ أَصْبَحْتَ عِصْمَةً أَمْرَهَا وَثَمَالَهَا<sup>(٢)</sup>  
لَوْلَاكَ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي نَظْمُهَا لَا وَالَّذِي يَلْقَاكَ أَنْعَمَ بِأَلْهَا

(١) نطال : جمع ناطل ، ونطل الخمر عصرها .

(٢) ثمال القوم غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

سَأَلْتُ رَوَايَاتِ النَّدَى فَتَأَخَّرْتُ عَنْهَا الْوَرَى وَأَجَزْتُ أَنْتَ سَوَّالَهَا<sup>(١)</sup>

فرق كبير بين حاله أمس واليوم ، سأل الناس الندى بمدائحهم . فأخلفوا وعوده ، أما الملك المؤيد فقد كفاه ذل السؤال وأجازه وأتابه ووظف له راتباً كل عام ، وبذلك صان الشعر النبأى من الابتدال . نقرأ في هذه القصيدة آيات الشكر وجميل العرفان . وهي تصور خير تصوير كيف أن هذا الممدوح العظيم رفعه بعد ضعف . وأغناه بعد فقر وحرمان ، فلا عجب إن حنظ له الود ، فردد ذكره في جل مدائحهم . وما أحلى هذا النداء النبأى الصادر من أعماق قلب الشاعر :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ دَعْوَةٌ تَذَرُّ الْعُدَاةَ<sup>(٢)</sup> بِغِيظِهَا تَشْكُو وَالْحَرْقُ  
وَاصَلَّتْ قِصْدِي بِاللَّهِ وَقَطَعْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ بَنَى الزَّمَانِ مِنَ الْعُلُقِ  
فَلَا شُكْرَ جَمِيلٍ مَا أَوْلَيْتَنِي شُكْرَ الرِّيَاضِ الزَّهْرِ لِلْمَاءِ الْغَدَقِ  
بِمَدَائِحِ أَهْلَتْنِي لِنِظَامِهَا فَعَدَّتْ مَحْرَرَةً وَعَنْقِي مُسْتَرْقٍ<sup>(٣)</sup>

مسكين هذا الشاعر . فما كاد يحظى بهذا الممدوح حتى كثر بالطبع أعداؤه وحساده الذين غاظهم ما رأوه من حب متبادل بين الملك والشاعر فليقدم له آيات الشكر وليذكر ما أفاء الله عليه ، وما أحلى شكره إنه أحلى من شكر الرياض للسحاب المدرار الذى نضر أزهارها بعد موات . وأنعشها بعد ذبول ، وأصبح أسير مليكه الذى حرر شعره من عبودية الممدوحين فنظم له من المدائح عقودها لكنه أصبح أسير جدواه . لن أفيض فى ذكر سائر ما قاله فى وصف هذه الحال ، ولكنه - سبحانه الله - يأنى علينا كلما حاولنا الانتقال إلا أن نكرر معانيه هذه ، وكأنما استرق عنقنا كما استرق عنقه :

يَا لِمَيْكَأَ أَحْيَا الثَّنَا وَالْعَطَايَا فَجَلَبْنَا لِسُوقِهِ الْأَشْعَارَا  
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَزِيدَكَ فَضْلاً وَسَمَوًّا عَلَى الْوَرَى وَفَخَارَا

(١) الديوان ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ . (٢) العداة : جمع عاد وهو العدو .

(٣) الديوان ٣٣٨ .

صُنِّتَنِي عَنْ أَدَى الزَّمَانِ وَقَدْ حَا وَنَبْرِي غَيْثُكَ الْهَيْتُونَ بِجَدْوَى عَلَّمْتَنِي مَدَائِحًا لَا تُبَارَى<sup>(١)</sup>

منعه مليكه عن أذى الزمان وأهليه ، هذا الزمان الذي تنكر له في فجر حياته ، وما إن فاض غيظه عليه حتى أزهق روض شجره ، فقف له خير المدائح الغر التي لا تجارى . فكان له منها أجمل عقد ينظمه شاعر مبدع . تلك هي المؤيديات ، ويعلم الله أنى ما تلوتها إلا شعرت بهذا الحب العميق المتبادل بين هذين الإنسانين ، لا يفرق بينهما ملك أو سلطان . ذلك لأن قرابة الآداب فوق كل قرابة وحتى فوق قرابة الأنساب ، وأبو الفداء عالم وأديب قبل أن يكون ملكاً ، فلا غرابة أن اصطفى ابن نبأته ليكون صفيه وخليله . فهل من كثير على الشاعر إن أنساه مليكه نفسه وأهله ومصره ونيله وأهرامه وسبكه . كان فيها قائماً وحده وسط المهجير يشكو الظماً ، أما الآن فقد ظلله دوح الملك الأيوبي فنعم بظله وعل من معينه .

كيف لا ينسى الشاعر غربته ؟ وكيف لا يسلو نفسه وأهله وموطنه في هذا الوادى الجميل ، وفي حمى الملك الظليل . فيخرج للأدب خير أسفاره ويسمع الناس أعذب أشعاره ؟

خَلِيلِي هَذَا مِنْ حِمَاةِ مَحَلِهِ فَعَوِجًا عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي تُنْبِتُ الْهِنَا وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنِّي قَصِدْتُهُ فَأَنْسَتَنِي الْأَيَّامُ أَهْلًا وَمَوْطِنًا<sup>(٢)</sup>

يتضاءل أمامه نيل مصر وكان أول شعر قاله فيه ، ويسلو مربعه ومراده بعد أن جاد عليه المؤيد :

فَدَتْ طَلْعَةُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ أَبَا الْفَدَا وَإِنْ كَانَ أَعْلَى مَنْ فِدَاهَا وَأَرْفَعَا  
أَلَمْ تَرَ أَنَا قَدْ سَلَوْنَا بِأَرْضِهِ مَرَادًا لَنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ وَمَرْتَعَا  
إِذَا ابْنُ تَقِيٍّ الدِّينِ جَادَ نَبَاتُهُ عَلَيْنَا فَلَا مَدَّتْ يَدُ النَّيْلِ لِصَبْعَا<sup>(٣)</sup>

(٢) الديوان ص ٤٨٩ .

(١) الديوان ص ١٩٠ .

(٣) الديوان ص ٢٩٤ .

ويخاطب نيل مصر كرة أخرى ، ويتحداه ، ولعله يتحدى من حرموه ،  
ويقول له إنه لا يساوى إصبعاً واحدة من يمين المؤيد :

فلا تفتخر من نيل مصر أصابعُ فما النيلُ إلا من يمينك إصبعُ  
أيا ملكاً لما دَعَتْهُ ضراعتي تيقنتُ أنَّ الدهرَ لي سوف يَضْرَعُ  
قصبتك ظماناً فجدتَ بزاجر أشقَّ - كما قد قيلَ - فيه وأذرعُ<sup>(١)</sup>

فلا غرابة إن رأيتاه قد تضاءل كل إنسان أمامه غير المؤيد ، فيعرض  
بسيف الدولة وابن عمار ، ويذكر أنه لا يضيره إذا تولى عهدهما ، ما دام  
الله قد قبض له وللأدب هذا الملك العالم :

وطاهر الخيم<sup>(٢)</sup> لا تُثنى خلائقه على الملل ولا تُطوى على الدنيس  
ما شمتُ بارقَ جدواه فأخلفني ولا عهدتُ إلى معروفه فنسي  
تلك العُلا لابن حمدانٍ على حلب ولا بن عمارة شأو في طرابلُس  
ما ضرتني إن تولوا وهو مرتقبُ ونحاس عهد الغوادى وهو لم يخس  
يابن الملوك الألى خذها عروس ثنا مصرية المنتمى غريبة النفس  
الله أكبرُ ، صاغ الحق ما دحكُم كأنه ناطقٌ في حضرة القدس<sup>(٣)</sup>

أشهد - والحق يقال - أنى ما تلوت هذه القصيدة إلا شعرت بجمال أخذها،  
لا أعرف مصدره ، ولا أتبين مبعثه : هل هو في هذا الأسلوب الجزل ؟ أو في  
هذا اللحن السني الجميل ؟ أو في هذه النفحة المؤيدية الساحرة التي سبكتها  
الطبيعة في هذا البلد الجميل على قصيدة مصرية المنتمى غريبة النفس ففيها  
رقة أندلسية . وقد وصف الأقدمون مدينة حماة أنها ذات طابع أندلسي .  
ولا أكاد أقف عند بيتها الأخير ، وأستوقفه وأناذى مع جمال الدين : ( الله  
أكبر ) حتى يقترن شعورى بنفحة صوفية قدسية ، تفعم القلب بالإيمان المطلق

(١) الديوان ص ٢٩٦ .

(٢) الخيم : بكسر الخاء الطبيعية والسجية ، والخلق ، وقيل : سعة الخلق .

(٣) الديوان ص ٢٦٤ .

والصوفية الصادقة التي تسامت في وجدها لتتحد بالذات الإلهية ، وتتلاشى في المسالك السماوية ، حيث لا يحدّها مكان ، أو يدركها زمان ، ولا يحجبها مدى عن آفاق القلوب . هكذا أنطق الملك المؤيد شاعره أروع آيات شعره ، فتفتحت أكام هذه الشاعرية التي كادت تخمد وتموت ، وهو في غلواء الشباب ، وقد اعترف بجميل مولاه ، فأنشده شعراً خلد به عاصمة ملكه ، وقرنها بالقاهرة :

لولاك ما أمستُ قريرَ      حتى الكليلةُ شاعرة  
أنتَ الذي روّوتُ غما      ثمُّ رباى العاطرة  
فلقد وجدتُ ديارَ مل      بكِ بالسعادةِ عامرة  
قهرتُ حماةَ لى العدا      فحماةُ عندى القاهرة<sup>(١)</sup>

لم تقهر القاهرة من قبلُ أعداءه ، ولكن حماة مدينة المؤيد قهرتهم له ، وأخرست حساده ، فهى بحق حماة القاهرة ، والعجيب أن يشكو ابن نبأته منهم ، ولعله خاف أن يوقعوا بينه وبين المؤيد ، فما أفلحوا إلى ذلك سيلا ، وعادوا خائبين :

يا أيها المليكُ المؤيدُ دَعْوَةٌ      تذرُ العداةَ بغيظِها تشكو الحرقُ  
واصلتُ قَصْدِي باللها وقطعتُ ما      بينى وبينَ بنى الزمانِ من العلقِ<sup>(٢)</sup>

أفاض مليكه عليه من العطاء ، فأكثر حساده :

شكرتُك حتى لم تدعُ لى لفظَةً      وكِدتُ بأن أشكوكَ فى كلِّ مشهدِ  
لأنك قد أوهمتُ جُهْدِي باللها      وأنسىتنى أهلى وأكثرتُ حَسْدِي<sup>(٣)</sup>

لم يكن ابن نبأته يأبه لعداته وحساده ، بل شق سبيله فى الحياة بعد أن عرف مكانته وقدره ، وأحسن بجمال شعره ، وأصبح لامنازع له فيه ،

(١) الديوان ص ١٨٧ .

(٢) الديوان ص ٣٣٨ .

(٣) الديوان ص ١٣١ .

فتحدى الشعراء الأقدمين والمعاصرين قائلًا يخاطب مليكه :

لبابك يابن الأكرمين بعثتها  
وأرسلتها غراء كالغصن يانعا  
ممنعة المغزى تجرُّ برأيه  
شبيت لها فكرى وفاحت حروفها  
فلورامها الطائي من قبيل لم يقل :  
« لهان علينا أن نقول ونفعلًا »  
وكم مثلها أهديتها طي مدرج<sup>(٣)</sup>  
يفوه بها الراوى فيملاً لفظها  
حلفت يميناً ليس مثلك في الورى  
فما شرع الإسلام أن أتحدلاً<sup>(٤)</sup>  
إنها قصيدة تنطق بلسان حديد ، ولم تكن نعهد الشاعر ، ، يتحدث بمثل  
هذا الحديث ، ويتحدى مثل هذا التحدى ، فهو يخاطب المؤيد بأنه بعث  
لبابه قصيدة ، تأنس بمدحها ، وتحفل عن مدح غيره ، أرسلها له غراء محجلة  
كالنهار المشرق ، تشئ كالغصن النضير ، وهى ريانة تقطر بالندى كأزهار  
الروابي الفيح ، وهى ناعمة رقيقة كسلسل النسيم .

يتحدى بمثلها الشعراء جميعاً ، وتكاد بسحرها وروعها تجر جريراً بأشطانه ،  
وتلقى الحطينة ، فتقرنه معه بأرسانه ، ليضم إليهما الطائي بعد ذلك . لكنه  
يوقر أبا تمام ، ويخاطبه بغير خطاب سابقه ، ويفهم من شعره أنه يفضل نفسه  
عليهم جميعاً ، ويتحداهم أن يأتوا بآية واحدة من قصائده ، إن استطاعوا إلى  
ذلك سبيلاً .

اختار الشعراء الثلاثة المذكورين على عمد ، فالخطيبة يمثل المدرسة الأوسية  
الجاهلية وهى المدرسة الحسية ، وجريير يمثل المدرسة السياسية فى العصر  
الإسلامى الأول ، وأبو تمام يمثل المدرسة الشامية فى الشعر العربى فى العصر

(١) جراً أى جراً بقصر الممدود ، وهى جمع جرو ، ويطلق غالباً على ولد الكلب .

(٢) المندل : يطلق على العود الطيب الرائحة .

(٣) المدرج : الكتاب الملقب المطوى . (٤) الديوان ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

العباسي ؛ وقد توخى من هذا الاختيار المتعمد أن يثبت للأدباء والشعراء أنه خير من الشعراء الأقدمين في الجاهلية والإسلام ، بالإضافة إلى عصر العباسيين ، فهو رب القريض بلا منازع ، وغيره من الشعراء بعض خلائقه المستضعفين :

تعلّمتُ أنواعَ الكلامِ برفيدِهِ فأصبحتُ أعلى الناسِ شعراً وأحسننا  
إذا قيلَ من ربِّ المكارمِ في الوري ؟ أقل : هو وربُّ القريضِ ، أقلُّ أنا<sup>(١)</sup>

استوى الشاعر على ذروة المجد ، وليس من المعقول أن يتحدث شاعر عن نفسه بأنه رب القريض او لم يقر له معاصروه بإمارة الشعر ، فحمل لواءه وسار في ظلاله معاصر الأدباء والشعراء ، ولنستمع إلى الشيخ شهاب الدين بن حجلة يقول :

يا معشرَ الأدبِا غداً تشيبيكمُ ومديحكمُ فيما يروقُ ويعذبُ  
وأفانكمُ ابنُ نباتةٍ فتفقهوا أقواله بسكينةٍ وتادبوا<sup>(٢)</sup>

هذا هو رب القريض ، فعليهم أن يتفقهوا أقواله ، وأن يتأدبوا بحضرته ، لأنه أصبح في مرتبة من المجد ، لا يخاف أن ينازعه فيها منازع . لقبه القدماء في مطلع هذه المرحلة بشاعر الشام<sup>(٣)</sup> ، وقد ذكر ذلك ابن بطوطة سنة سبعمائة وخمس وعشرين ، وما يكاد يأتي على نهاية هذه المرحلة حتى تنهى إليه زعامة الشعر في جميع بلاد المشرق على الإطلاق . وقد أشار ابن جززي إلى هذا الأمر فقال : « وإليه انتهت الرئاسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرق »<sup>(٤)</sup>.

• • •

مأ أبعد البون بين الأمس واليوم ، بين أمس حالك يفتش فيه عن القوت  
الزهيد فيثني عنه ، وبين هذا اليوم الأغر الذي أصبح فيه رب القريض في  
المشرق بأسره ، ولولا المؤيد لكان ابن نباتة أحد هؤلاء المغمورين الذين يعيشون  
ويموتون دون أن يكتو بهم الدهر .

(٢) الخزانة ص ٣٣٧ .

(١) الديوان ص ٤٨٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ . (٤) المصدر السابق ج ١ ص ٤٣ .

كان غاضباً على هذا الدهر لأنه لم يؤته سؤله ، أما اليوم فقد أصبح فرحاً بدهره ، ويقسم أنه لن ييمّم شطره إلا لغنى سيده أبي الفداء ، ولن يمدح أحداً إلا إياه وكان حقاً وفيّاً على العهد المقدس للملكة الذي فتح له باب الخلود في جنته العارشة بحماة القاهرة :

كنت غضباناً على الدهر وقد رَدَّنِي جودَكَ فرحاناً بدهرى  
فيميناً لِسوى مغناكَ لا يَنْثِنِي قصدى ولا أثنى بشعري  
أنتَ غيبي ونباتي للثنا حقه أن يتلقاك بزهر<sup>(١)</sup>

حفظ له الجميل ، ودعا شعراء عصره لسوق الشعر في عكاظ الملك المؤيد ، حيث يجتمع الشعراء والأدباء والعلماء من كل حذب وصوب ، يجيئون سوق عكاظ الأيوبي . فلنستمع إليه يدعو صاحبه صفي الدين الحلبي لينعم بباب الملك العادل :

خلّ هذا وانعم بباب ملك عم بالعدل والنوال عفاته  
لو طلبنا له شبيهاً من الدهر لکننا كطالب إعناته  
زوجتنا حماة نغمى يديه فغدا كلنا يُحِبُّ حماة<sup>(٢)</sup>

كان غاضباً على الدهر ، وردّه هذا الملك فرحاً بدهره ، وها هو ذا الآن يدعو صاحبه ، وقد صادق الدهر الذي جمعه . وما أحلى هذه التورية — وهو إمامها — في البيت الثالث ، فلقد وفق فيها حقاً كل التوفيق .

أما صاحبه الصفي الحلبي فقد أتى إلى حماة ملبياً دعوة شاعر الشرق وفي بلاط المؤيد اجتمع سراوات القوم وعلمائهم وأدباؤهم وشعراؤهم وبين يدي الملك العالم جلس رب القريض ، وأمير الزجل في عصره ابن مقاتل ، والصفي الحلبي أحد كبار الضيوف ، وغيرهم من كبار الشيوخ والقضاة وعلى رأسهم جمال الدين بن حماد صديق ابن نباتة ، وخطيب الخطباء في جامع حماة الكبير .

استمع المؤيد لرب القريض ، فطرب مع من في المجلس ، وقام أمير  
الزجل ، واستأذن في الإنشاد ، فأنشده هذا الزجل في المديح ، وهو أعذب  
ما قاله ، وافتتحه بهذا النسب الزجلى :

قلبي بحب تيباه ليس يعشق إلا إياه  
فاز من وقف وحياه يرصد على محياه  
بدر السما لو يطبع من رام وصالو يعطب  
واختتمه بهذا المديح الزجلى :

كم خصم في المقاتل صابوا ابن مقاتل  
وكم ذا في المحافل قد أنشأ لو جحافل  
من كل بيت مربع ملحون بألف معرب<sup>(١)</sup>

فلما وصل أمير الزجل إلى هذا المقطع الأخير ، وانتهى من إنشاده ، وقف  
أمير شعراء المشرق ، لأنه لم يطق صبراً على هذا التحدى السافر للغة القرآن  
وشعر العرب ، ونظر إليه بازدراء واستخفاف . وأخذ ينقل بصره ، وهو يتكلم  
بينه وبين صفي الدين الحلبي ، ويقول للأول متهمكماً : ( ملحون ) ويلتفت إلى  
صديقه الحلبي ، ويقول : ( بألف معرب ) فابن مقاتل ملحون ، وصفي الدين  
ألف معرب ، وشتان بين الملحون والمعرب ! هذا بينما كان الملك المؤيد يتبسم  
بوقاره ، وهو على دست الملك ، ويشهد هذا الصراع العنيف بين الشعر المعرب  
والزجل الملحون .

• • •

وتمضى بنا الأيام سراعاً ، وشاعر الشرق منصرف بكل جوارحه لسيده ،  
يؤلف له ما اقترحه عليه من الكتب . يتنقل بين بعض المدن ، ويتصل بمن  
يعرفهم من علمائها ، فيلقى الحفاوة والاحترام بعد أن كان يقابل بالإعراض  
والازدراء . لكن الأيام لا تبتى لإنسان ، وسرعان ما تتغير الأحوال ، وما هي

(١) الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٣ ، والخزائن ص ٤٠ ، ٤١ .

الإعشية وضحاها وطرفة عين وانتفاضتها حتى يوافي الموت هذا الملك العظيم ، فيفرق بينهما ، ويحزن عليه ، ويبكيه بدمع سخين طوال حياته . ويرثيه بأجمل المرثى بعد موته .

لم ينس الشاعر مليكه . بل كان يرثيه في كل تصيدة يمدح فيها ابنه الأفضل أو غيره . ولقد حفظ له عهده ، وصان وده ، وكان وفياً له في حياته وبعد موته .

نطوى هذه الصفحة من حياة ابن نباتة . ولعلنا نحسن صنفاً لو تحدثنا عن سائر الممدوحين الذين عرفهم في هذه المرحلة المؤيدية ، ومعظمهم كانوا من أرباب الدواوين الإنشائية . أو من القضاة والعلماء أو من الكتاب والشعراء .

أحدث ابن نباتة حركة أدبية كبرى بمجيئه إلى بلاد الشام ، فألف للملك المؤيد ، وهو إذ ذاك بدمشق ، بعض الكتب الأدبية القيمة كمجمع الفوائد وسرح العيون . وقد أحدث الكتاب الأول ضجة كبرى في المحافل الأدبية الشامية . فزكاه سروات علماءهم وأدبائهم وشعراءهم .

ألف ابن نباتة كتابه « سجع المطوق » اعترافاً لهم بجميلهم ، وقد تنازلهم بالشكر . وذكر في هذا الكتاب ترجمة كل شخص منهم ومكاتباته له . فجاء هذا الكتاب خير تاريخ للحركة الأدبية وروادها في هذه المرحلة المؤيدية من حياة الأديب الكبير . ولعلنا نحسن صنفاً لو وقفنا عند هؤلاء الرواد . فنعرض لهم ، ونذكر علاقة الشاعر بهم ، ونحدث عن مدائحهم ومدائحهم فيه . لأننا إذا فعلنا ذلك نكون قد استوفينا هذه الحركة الأدبية حقها من البحث ، ونكون قد عرضنا لأعلام العصر الذين عرفهم ابن نباتة في هذه المرحلة المؤيدية التي خللت أمير شعراء المشرق . وأصبح معاشر الأدباء يتفقون أقواله . ويتأدبون بحضرته .

## مع شهاب الدين محمود

اتصل ابن نباتة بشهاب الدين محمود<sup>(١)</sup> وهو أول ممدوحيه في هذه المرحلة بعد الملك المؤيد ، وقد عرف عنه أنه كان أحد أدباء هذا العصر ، وأحد شعرائه المحيدين . وله في الملك المؤيد كثير من المدائح ، وقد روى لنا ابن كثير إحدى قصائده في الملك الأشرف بعد فتحه قلعة الروم<sup>(٢)</sup> .

كان ابن نباتة قد افتتح باسمه كتابه ، فترجم له ترجمة ضافية ، وأشاد بمنزلته الأدبية في الشعر والنثر ، وأطرى عليه كل الإطراء ، فقال : « ما أبرع محاسنه وأبدع فنونه التي كتم بها عن الفكر محاسنه ، وما شئت من عربية ، تفرد فيها فكره الذرب<sup>(٣)</sup> وانتسبت زهرتها إليه انتساب ريحانة لابن معدى كرب<sup>(٤)</sup> ، وجاورت من فكره ليث غاب أشب ، إذ جاورت من غيره جحر ضب خرب ، ولغة هو جوهرى تنكيها ، ومعاني نطق هو المفصح بها ، تطوى الطائي فلا ينفع عندنا ذكرى حبيب . ولا يستحسن عبث الوليد ، وتصانيف تملأ الأذهان فهماً . وتسع فنون الآداب علماً . ومواقع أقلام تخرس الأفواه . والأفواه توسعها رشماً ولغماً ، كتبت الأنداء براعته . وكتبت مصر والشام براعته . فكللا الإقليمين أثبت لأقلامه فضلها وكلتا الجنةين آتت

(١) شهاب الدين أبو النناء محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحلبي ثم الدمشقي ، شيخ صناعة الإنشاء . ولد سنة ٦٤٤ هـ ، وهو يحسن النظم والنثر عين لكتابة الإنشاء بدمشق ، ثم نقله ابن السلوس إلى مصر عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر ، فكتب فيها الإنشاء . نقل إلى دمشق ٧١٧ هـ وتولى فيها كتابة السر بعد موت شرف الدين بن فضل الله ، وبقي في منصبه حتى وفاته سنة ٧٢٥ هـ كان من الشعراء المقدمين مدح الملك المؤيد وغيره ، وله مؤلفات منها « حسن التوسل في صناعة التوسل » في المداعي والبيان والبديع ، ومنها ديوان في المدائح النبوية اسمه « أهدنا المنائح » .

(٢) البداية النهاية ج ١٣ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٣) أي الحاد .

(٤) في هذا العلم لغات ثلاث : رفع الباء ممنوعاً من الصرف ، والإضافة مصروفاً ، والإضافة ممنوعاً من الصرف ، والياء ساكنة في الأحوال الثلاث .

أكلها ، حلت بهذا حلة ثم حلة بهذا ، فشاب الواديان كلاهما ، ما زالت هم فضائله تبغى صعوداً ، وتعبي جاحداً وتتعب حسوداً ، وتعلم الشهب عن سنانه وسناه أن ليس كل شهاب محموداً» (١) .

أوردت هذا النص لأبين أولاً كيف كان ابن نباتة يترجم لمن زكى كتابه في سجع المطوق ، ولأستدل بالتالي أيضاً على الوحدة السياسية بين الإقليمين مصر والشام ، وعلى الوحدة الفكرية التي ظهرت لنا في هذا النص أتم ظهور .

كتب شهاب الدين محمود الإنشاء بدمشق ، وانتقل للقاهرة ، وعاد بعد ذلك لدمشق ، فتولى أمانة السر فيها ، وقد أشار ابن نباتة إلى هذا الأمر في هذا النص ، وأرانا بالتالي الوحدة الفكرية في هذه القطعة الأدبية . ذلك قوله في سجع المطوق ، ولم نكن لنورد ذكره لو اقتصر الأمر على ما ترجمه له ، وإنما افتتحنا بذلك علاقته به ومدأخه فيه .

لن نقف طويلاً في عرض مدحيه الأربع ، لأننا لانجد حاجة لذلك ما دام هيكلها العام كسابقاتها ، وما دامت لاتعرض لحياة الشاعر نفسه . لكننا نشعر من خلالها أن العلاقة بينهما لم يكن أساسها العطاء ، بل كانت قرابة الآداب هي التي دفعته لذلك :

مدحتك لا أبغى ثراءً بذلته إلى ولكن رفعةً يشراكا  
بعيشك إلا ما تأملت صفوما منحتك ودَى بعين رضاكا  
فأقسم ما ضمت كحجك أضلعي ولا استنشقت روجي كشر هواكا  
أكاد أطيق السيل أذفع صدره ولا أدعى أنى أطيق جفاكا (٢)

تزيد هذه الأبيات ما أشرت إليه من حب متبادل بينهما ، وأعله قد حدثت جفوة ألقت إحساس الشاعر فأسمعنا من الاعتذار ما ذكرنا بالنابعة ، وقد

(١) سجع مطوق (مخطوط) ورقة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الديوان ص ٣٦٤ .

طلب إليه ألا يستمع لمقال العداة ، ويذكره بأيامه الأولى عند ما تعرف عليه  
في دمشق :

ناشدتكَ اللهُ في ودِّ عُنَيْتَ بِهِ      شطراً من العمرِ لا يألوه مجهودُ  
راجعُ يقينك في ودهُ عَصَباً      لرأيهم في اقترابي منك تبعيدُ  
واردُ مقالِ عُدَاةٍ لا اعتبارَ به      إنَّ الردىء على أهليه مردودُ  
لهمُ بذكري أضغانُ مناقضةُ      في القلبِ وقدوفِ التحريشِ تبريدُ  
حاشا ثباتك من إيلامِ قلبِ فتى      ما فيه إلا موالاةٌ وتوحيدُ  
لى من مبادئِ عُمرى فيكَ فرطُ. ولا      فمُ المصائبِ عن ذكراهُ مسدودُ  
فهل أضلُّ وجنحُ الشيبِ متضحُ      بعد الرشادِ وليلاتُ الصِّبا سودُ ؟  
إن كنتُ أظهرُ وداً لستُ أضمرهُ      فلا وقى لى من نِعماك مقصودُ  
فلستُ أكرهُ شيئاً أنتَ صانعهُ      مهما صنعتَ فمشكورٌ ومحمودُ<sup>(١)</sup>

لعل هذه القصيدة وما فيها من اعتذار وعتاب وإشارة إلى مقال عداته ،  
تدلنا على محاولة الإيقاع بين ابن نباتة وصاحب ديوان الإنشاء . وكان - كما  
يبدو لى - أعقل منه ، لأنه لم يحاول أن يقطع ما بينهما من وشائج الصلات ،  
بل حفظ لصديقه عهده ، وقد عرفه في الحقبة الأولى من عمره عند ما تولى  
المذكور ديوان الإنشاء بمصر بعد أن استدعاه ابن السلوس . تشير هذه الأبيات  
أيضاً من طرف آخر إلى اتضاح جنح الشيب في رأسه . وهو بعد لما يبلغ  
الأربعين من عمره .

تقف عند قصيدة دالية . وكثيراً ما كان يختار في قصائده رويماً ، هو بعض  
حروف اسم الممدوح . ونستمع فيها لهذه الأبيات التى قدم فيها صاحبه على  
عبد الحميد الكاتب :

يا أخا الفضل لا يعطلُّ فى با      بك جيدٌ ومسمعٌ من عقود

أصبح الدهرُ جنةً بكَ زهرا      ءَ فَعِشْ فِي الْأَنَامِ عِشَّ الْخُلُودِ  
لو تصدَّى عبدُ الحميدِ لعليا      كَ لَلَّجَتْ أَسْبَابُهَا فِي الصُّعُودِ  
وَرَبَا كُلُّ سَاعَةٍ فَضْلُكَ الْجَمُّ      مٌ وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ<sup>(١)</sup>

نكتفي بما عرضناه من مِدَحِهِ الأربع . نضيف إليها قصيدة قالها في رثائه ،  
ويتحدث كعادته عن الفقيده وعن الفراغ الذي أحدثه ، ويختم قصيدته بحكم  
أشبه ما تكون بالحكم العتاهية :

هي المنيةُ لا تنفكُ صائدةً      نفوسنا بينَ مسموعٍ ومشهودٍ  
أينَ الملوكُ الألى كانتُ منازلُهُم      تراحمُ البحرِ في عزٍّ وتشبيهِدٍ  
لم يحميهِم سَرْدُ<sup>(٢)</sup> داودَ الَّذِي ملكوا      مِنَ الْمَنُونِ وَلَا جُنْدُ ابْنِ دَاوُدَ<sup>(٣)</sup>

نخلص من حديثنا عن الشهاب محمود إلى أن ابن نباتة حافظ على صداقته ،  
برغم محاولة العداة الإيقاع بين شاعر الشرق وصاحب ديوان الإنشاء . ولو أراد  
أن يقابله بمثل فعله لبقاه ، ولكنه عظيم النفس شديد التواضع لا يجب أن  
يكثر أعداؤه ، بل كان يفضل أن يعتذر عن كل إساءة ، ولو كانت الإساءة  
إليه . وهذا دليل على ما عنده من خلق عظيم .

(١) الديوان ص ١٥٣ .

(٢) سرد : اسم جامع للدرع وسائر الحاقق .

(٣) الديوان ص ١٥٦ .

## مع كمال الدين بن الزملكاني

كان كمال الدين<sup>(١)</sup> بن الزملكاني<sup>(٢)</sup> أحد الذين أثنوا أيضاً على كتابه (مجمع الفوائد) ، فحفظ الشاعر له الجميل ، وترجم له في كتابه (سجع المطوق) . ولم تكن علاقة الشاعر به مستحدثة ، بل كانت قديمة العهد ، نعود إلى أوائل أيام وجوده في بلاد الشام خلال هذه المرحلة الأيوبية ؛ ولقد عثرنا في ديوانه على أربع قصائد في مدحه ، يضاف إليها قصيدة خامسة ، لم تذكر في الديوان ، لكننا وجدناها في رحلة ابن بطوطة. وذلك خلال حديثه عن المدح المذكور. وسوف نشير إليها في مكانها من هذا الكتاب. نضم إلى هذه هذه القصائد الخمس بعض المقطوعات الشعرية الصغيرة، بالإضافة إلى مرثية واحدة قالها فيه بعد أن بلغه نعيه، وكان المرثي قد توفي وهو ببلييس في طريقه إلى مصر .

ومن بين تلك المدح الخمس تطل علينا تلك الثمانية المطولة التي نيف عدد أبياتها على المائة . وقد أبدع الشاعر في نسيبها كل الإبداع ، وبخاصة عندما ضمن هذا النسيب وصفاً حياً للخمرة يكاد يطغى بها على خمرة أبي نواس . وسوف نورد في بحثنا المقبل عن خمرياته خلال دراسة الأغراض .

(١) كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن الزملكاني الأنصاري الدمشقي . ولد سنة ٦٧٧ هـ ، وتوفي في وقت مبكر ، وأصبح ضليعاً في التدريس والمناظرة والفقه ، وأطلق عليه عالم العصر وأمير الشافعية ، ويروي أنه أفق وهو لم يتجاوز العشرين من العمر . شغل الزملكاني منصباً في ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم وقع النسيب ، وولى بعد ذلك نظير المارستان سنة ٧٠٧ هـ ، وولى قضاء حلب ٧٢٤ هـ ، وعزل سنة ٧٢٧ هـ فعاد لدمشق . وقد طلبه الناصر ليوليه قضاء دمشق ، لكن المنية وافته وهو في طريقه إلى القاهرة ببلييس سنة ٧٢٥ هـ . الدرر الكامنة ج ٤ ص ٧٤ ، ٧٥ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) الزملكاني : نسبة إلى زملكان ، بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وفتح اللام ، وآخره نون ، قرية بقوطة دمشق. ذكر ياقوت أن أهل دمشق يقولون (زَمَلَكَا) . (معجم البلدان ج ٣ ص ١٥٠) .

نتجاوز وصف الخمر إذاً دون أن نعشو دبرها الأقصى كما يقول لنستمع لابن نباتة يحدثنا عن ممدوحه الزمركاني ، ويذكر لنا فتاويه التي اشتهر بها والتي قيل عنه : إنه أفتى بها وهو ابن عشرين ، وقد أشار إلى هذا المعنى في أكثر من قصيدة واحدة ، وهذا يدلنا على أن مدح الشاعر كان يتسم بالدقة في نعت ممدوحه ، إذ يخص كلاً منهم بمميزاته الذاتية التي تطلعنا عليها التراجم القديمة ، ثم ينتهي من هذا الوصف ليتحدث لنا عن علمه وجوده بالأسلوب التقليدي المعروف لدى الشعراء القدامى ، وهو يعتمد على طريقة ( ما ) النافية ، تلوها باؤها الزائدة ، ولكنه أضفى على هذا النمط معنى مستحدثاً ، يحسن أن نعرض له في هذا المكان من البحث :

ما روضةٌ قلّدتُ إحياءَ سوسنها	من السحابِ عقودُ لؤلئياتُ
وخطتِ الرياحُ خطأً في مناهلها	كأنَّ قطرَ الغوادي فيه جرياتُ
وللجدولِ تصفيقٌ بساحتها	والقطرُ روضٌ وللأطيّارِ رناتُ
يوماً بأبهجٍ من أخلاقه نظراً	أيامَ تُتكرُّ أخلاقُ سرياتُ
ولا الغيوثُ بأسخى من عوائده	أيامَ تعيا السجياتُ السخياتُ
ولا الشمسُ بأجلى من فضائله	أيامَ تدجو الظنونُ اللوذعياتُ
ولا النجومُ بأنأى من مراتبه	أيامَ تقتصر الأيدي العلياتُ
قدرُ علا فرأى في كلِّ شمسٍ ضحى	جماله فكانَّ الشمسَ مرآةً <sup>(١)</sup>

هذا الوصف الساحر الذي يطالعنا في هذه التائية الكبرى ، من حديث عن الروض وسوسنه ، شمل السحاب والريح وقطر الغوادي وتصفيق الجدول ورنات الأطيّار والشمس في ضحاها . . .

يدلنا ذلك كله على أثر الطبيعة في أوصاف الشاعر ، ويدلنا من ناحية أخرى على صدقه ، وعلى سلامة طبعه الشعري وجودة خياله ، ولأمر ما يتحدث في هذه التائية عن الشعراء الذين كانوا يناصرونه العداء ليحتلوا مكانه لدى

هذا المدوح أو غيره :

جاورتُ بآبِكَ فاستصلختُ لى زمنى حتى صمفا وانقضت تلك العداواتُ  
ولا طنتننى اللبالي فهى حينئذٍ من بعد أهلى عماتُ وخالاتُ  
وبتُ لا أشتكى حالاً إذا اشتكيتُ فى بابٍ غيرِكَ أحوالُ وحالاتُ<sup>(١)</sup>

انعدمت الشكوى ، لأنه قد نال من الدنيا ما تمنّاها ولا طفته اللبالي بعد  
أن تجهمت عليه ، والفضل كل الفضل للملكه المؤيد الذى أغناه بعد فقر ،  
وآمنه بعد خوف ، وما هو ذا يردد هذه المعانى خلال مداخمه لأصحابه من القضاة  
والعلماء والأدباء .

ولعل علاقة ابن نباتة بغيره من شعراء العصر تتكشف لنا عن كثرة أعدائه ،  
وقد أشار إلى ذلك فى معرض مؤيدياته ، لكنه يفصح لنا عن هذا الأمر هنا ،  
لأن المؤيد كان لايسمح لأحد أن يتكلم عن الشاعر فى حضرته ، وها هم أولاء  
يتهنون فرصة ابتعاده عن بلاط سيده ليوجهوا إليه تقديم ، وهذا شأن كل  
عظيم ، وطبيعى أن يكون هذا فى حياته الحافلة ، ولا سيما إنه كان شاعر  
الشام ، وأصبح بعدها شاعر الشرق .

تحدث عن أعدائه من الشعراء الذين كانوا يزاحمونهم على أبواب ممدوحيه  
فقال لكمال الدين :

يُزاحمونَ بأشعارٍ مَلْفَقَةٍ كأنَّها بينَ أهْلِ الشعرِ حَشَوَاتُ  
ويطرحونَ على الأبوابِ من حمقٍ قصائدُ هي فى التحقيقِ باباتُ<sup>(٢)</sup>

( ١ ) الديوان ص ٧٠ .

( ٢ ) بابات : مفردتها بآبة ، وهى فصل أو مشهد من خيال الظل ، ولم يكن معروفاً عند  
العرب ، وإنما اقتبسوه من الأمم الأخرى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقد نشره محمد بن دانال  
الموصلى الطبيب الكحال الذى هاجر من الموصل إلى القاهرة .

ذكر الأبيشيى وصف الدنيا فى كتابه المشهور ( المستطرف فى كل فن مستظرف ) ، فقال :  
« وقد شبهها بعضهم بخيال الظل ، فقال :

رأيت خيال الظل أعظم عبءة لمن كان فى علم الحقائق راقى  
شخصاً وأرواحاً يخالف بعضها لبعض وأشكالا بغير رفاق =

من كلِّ أبله لكنَّ ما لفطنته  
يُحْمُ حينَ يُعاني نظمَ قافيةٍ  
ويغتندي فكره المكدودُ في حُرْقٍ  
أعيذُ مجدك من ألفاظهم فلها  
إن لم تفرِّقْ بفضلٍ بينَ نظمِهِمُ  
حاشاك أن تتساوى في جنابك من  
خذها عروساً لها في كل جارحةٍ  
شماء يركع نظمُ الناظمين لها

كالبُلِّه في هذه الدنيا إصاباتُ  
عجزاً فتظهرها تلك الخرافاتُ  
وقد أحاطت بما قال البروداتُ  
جنِّي كيأن معانيهم جناباتُ  
وبينَ نظمى فما للفضلِ لذاتُ  
قصائدِ الشعرِ سوءاتُ وجبهاتُ  
لواحظ وكؤوس بابلاتُ  
كأنما ألفاتُ الخطَّ دالاتُ<sup>(١)</sup>

كان حديثه عجباً ، لم نعهده من قبل يحمل كهذه الحملة الشعواء على أعدائه من الشعراء ، وفيه يصف لنا منافسيه وكثرهم . ولا ندري لم يطلب من الزملاكنى أن يفرق بين شعره وشعرهم ، ولعلد كان يستمع إليهم بعد ما رأى من انصراف الشاعر للملك المؤيد . ولعله يريد أن يستعيد مكانته لديه ، وهو صديق قديم له . فيطلب إليه أن يفرق بين جبهات الشعر وسوءاته ؛ ويتحدث بعدئذ عن قصيدته التي هي عروس من الشعر . وهي إحدى المطولات التي جرّدها الشاعر . وتعطينا فكرة عن أسلوبه وعن بعده عن استخدام حشو الكلام الذي يعيبه على غيره من الشعراء .

نلاحظه في هذه القصيدة يهجم نهجه المعروف ، فيتحدث عن جوده وهي الصفة الرئيسية لكل ممدوحيه على الإطلاق . وعن علمه وأقلامه وطروسه . ولن أفيض في هذه الأوصاف الآن . لأنها لا تتميز من سابقها ، وسأتحدث عنها فيما بعد ، وأكتفي من هذه الدراسة بما يتعلق بحياته وأسرته .

ولنستمع للشاعر في قصيدة أخرى يتحدث لنا عن ابتعاده عن أسرته . ولعله

=تجىء وتمضى بابة بعد بابة وتفتى جميعاً والمحرك باق «

(ج ٢ ص ٣٢٠ ، ٣٢١) .

(١) الديوان ص ٧١ .

تركهم في حماة ، وقصد هذا المدوح فقال له :

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الْأَهْلَ الَّذِينَ نَأَوْا      أَنِي نَزِيلِكَ لَا فَقْرٌ وَلَا فَزَعٌ  
مَطْوُوقٌ بِبَهَبَاتٍ سَاجِعٌ بَشْنَا      يُنْسِي الْأَوَائِلَ مَا جَادُوا وَمَا سَجَعُوا<sup>(١)</sup>  
تنوّد العلاقة بين ابن نباتة والزملكاني ، ويزداد عطاؤه له ، ويجود مدائحه  
بعد أن أمر شعره على الشعراء قاطبة ، وكان يطلب إليه من قبل أن يفرق بين  
شعره وشعرهم ، فيقول له :

إِنِّي سَأَلْتُ نَدَى كَفَيْكَ رَى صَدَى      وَمَا سَأَلْتُ نَدَى كَفَيْكَ طُوفَانًا  
فَاحْبِسْ هَبَاتِكَ عَنِّي إِنِّي رَجُلٌ      أَخَافُ بَغِيًّا عَلَى نَفْسِي وَعُدَاوِنَا  
وَإِغْلِقْ<sup>(٢)</sup> لَهَاكَ وَإِنْ زُقَّتْ حَدَائِقُهَا      فَحَسْبِي الْوَدُّ جَنَاتٍ وَرِضْوَانًا<sup>(٣)</sup>  
وينتشي الشاعر بهذا العطاء الغمر ، فيكثر حساده وعدائته ويطلب منه أن  
يرحمهم لأنه قد رحمهم وغفر لهم إساءتهم .

أَمَرْتُ شِعْرِي عَلَى الْأَشْعَارِ قَاطِبَةً      حَتَّى اتَّخَذْتُ لَشِعْرِي فِيكَ دِيوَانًا  
وَقَدْ تَكَثَّرَ حُسَادِي وَأَوْرَثُهُمْ      نِفَاقٌ لَفْظِي فِي نَادِيكَ أَحْزَانًا  
فَارْحَمْ عُدَاتِي فَإِنِّي قَدْ رَحِمْتُهُمْ      فَمَا أَرَى مِنْهُمْ فِي الشَّامِ حَرَّانًا<sup>(٤)</sup>  
إن شاعراً يقول مثل هذا القول يدلنا على نفسية عظيمة ، وقد أصبح  
كما ذكرنا أمير الشعراء ، ولقب بشاعر الشام في هذه الفترة كما دعاه بذلك  
ابن بطوطة .

قد يكون جميلاً لو وقفنا مع هذا الرحالة في حلب الشهباء لدى وصوله  
إليها سنة خمس وعشرين وسبعمائة عند ما نقل الزملكاني من دمشق الفيحاء  
إلى حلب الشهباء فقصده الشعراء من حماة القاهرة . ذات النواوير المؤيدية ،  
ودمشق الفيحاء وسواهما من المدن الشامية لمدحه ومهنته بمنصبه الجديد .

(١) الديوان ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) المعروف أن (غلق) لثفة أو لنية رديئة في (أغلق) .

(٣) الديوان ص ٥٠٦ . (٤) الديوان ص ٥٠٦ .

ويزور ابن نباتة صديقه القديم الذي أمر شعره على الشعراء قاطبة ، واتخذ هذا الشاعر من شعره ديواناً في مدائحه . وينشده قصيدة حافلة تتجاوز الخمسين بيتاً ، لم تذكر - مع الأسف - في الديوان . ويحسن بنا أن نوردتها كاملة ، لكي تبقى محفوظة في طي هذه الدراسة ، لكننا لانملك إلا مختارات ، هي كل ما عثرنا عليه في تحفة النظار :

أسفتُ لفقدك جلقُ الفيحاء      وتباشرتُ لقدمك الشهباء  
وعلى دمشق - وقد رحلت - كآبة      وعلى رُباً حلبٍ سنأ وسناء  
قد أشرقَت دارُ سكنتَ فناءها      حتى غدتُ ولنورها لألاء  
يا سائراً سقى المكارم والعلأ      ممن يبخلُ عنده الكرماء  
هذا كمالُ الدينِ لُدُ بجنايه      تنعمُ فثمَّ الفضلُ والنعماء  
قاضي القضاةِ أجلُّ من أيامه      تغنى بها الأيتامُ والفقراءُ  
قاضي زكا أصلاً وفرعاً فاعتلى      شرفتُ به الآباءُ والأبناء  
من الإلهِ على بنى حلبٍ به      لله وضعُ الفضلِ حيثُ يشاء  
كشفتُ المعنى فهمه وبيانه      فكأنما ذاك الذكاء ذكاء  
يا حاكمَ الحكامِ قدرُك سابقُ      عن أن تسرك رتبة شماء  
إن المناصبَ دونَ همتك التي      في الفضلِ دونَ محلها الجوزاء  
لك في العلومِ فضائلُ مشهورة      كالصبحِ شقَّ له الظلامَ ضياء  
« ومناقبُ شهد العدرُ بفضليها      والفضلُ ما شهدت به الأعداء »

اقتصرنا من القصيدة على ما أورده ابن بطوطة ، وقد وصف لنا ما حدث

(١) ضمن الشاعر بيتاً من قصيدة للشاعر السرى الرفاء الموصلى أحد شعراء سيف الدولة الحمداني المتوفى ببغداد سنة ٣٦٦ هـ (ديوان السرى الرفاء ص ٩ ، وبتيمة الدهرج ٢ ص ١٦٤ ، والتمثيل والمحاضرة ص ١١٢) .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

في مجلس الزملكاني عند ما أنشده هذه القصيدة ، فذكر لنا أن الشعراء الذين كانوا بحضرته قد نقدوه وأخذوا عليه ابتداءه بلفظ ( أسفت )<sup>(١)</sup>.

وليس في هذا المطلع ما يصح أن يعتبر مأخذاً ، وكأنما وجدوا في هذا التقابل بين لفظتي أسفت وتباشرت عيباً وهي صفة مستحبة لدى شعراء ذلك العصر ، وقد أعجب ابن حجة بهذه الخصلة في شعر شاعر الشام .

لم تطل العلاقة طويلاً بينه وبين الزملكاني . فقد استدعاه الناصر إلى القاهرة لهوليه قضاء دمشق فرض وهو ببلييس وتوفى هناك . وقد رثاه ابن نباتة بقصيدة يروى فيها من جديد قصة حياته معه وتكاد تلخص هذه المرثية خلال المدوح وشأئله : فهو بحر العلوم وملك الأقلام ، ويذكر أنه قد غاب بموته علم التفسير ووجم علم النحو ، وانطوى مبسم العلوم ، وأغضت مقلة البحث والجدل ، وعفت مدارس العقل والنقل ولم يبق من كل ذلك غير ذكرى القاضى الراحل ، ويختم القصيدة بقوله :

أُتْرَى هَلْ عَلِمْتَ يَا بِنَ عَلِيٍّ      أَنْ دَمَعِي مِنَ الْأَسَى مُتَوَالِي  
أَنْتَ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ مَقِيمٌ      وَفَوَادِي عَلَيْكَ بِالنَّارِ صَالِي  
أَنْتَ جَارٌ لِلشَّافِعِيِّ وَقَلِي      مَالِكِيٌّ الْأَهْوَاءِ وَالْأَهْوَالِ<sup>(٢)</sup>

#### ٤

### مع نجم الدين بن صصرى

كان ابن صصرى<sup>(٣)</sup> من أوائل الذين مدحهم ابن نباتة في هذه المرحلة ، وقد ترجم له في سجع المطوق وهو من أوائل من اتصل بهم بعد وصوله إلى

(١) المصدر السابق . (٢) الديوان ص ٤٠٦ .

(٣) نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن محفوظ بن صصرى التغلبي الشافعي . ولد سنة ٦٢٥ هـ ، وتولى قضاء الشام سنة ٧٠٢ هـ بعد ابن جماعة حين طلب لمصر خلفاً لابن دقيق العيد ، وقد وهم صاحب الدرر في ذكر تاريخ وفاته ، فاعتمدنا على ماجاء في تاريخ ابن =

بلاد الشام ، ويبدو أنهما كانا يتبادلان الرسائل الأدبية ، ويتطارحان القصائد الشعرية ، حتى إنه كان يقترح عليه الوزن والروي ومدحه بها . وقد حدث مثل هذا الأمر في قصيدته التي مدحه بها ومطلعها :

وهاربٍ من رِضوانٍ أوقَعَى في النيرانِ  
والحسنُ شئٌ فتانٌ وللشجونِ أفنانُ  
جلُّ صنعُ الرحمنِ خالقِ قدِّمِ الأَغصانِ<sup>(١)</sup>

خصه الشاعر بست قصائد في ديوانه ، مدحه بأربع منها ، وعزاه بواحدة خلال وفاة بعض حرمه ، ورثاه بأخرى حين وفاته . أما قصائد المدح فلم يشر إليها البشكى جامع ديوانه إشارة واضحة ، تدل على أنها قيلت فيه ، فكان يقول ( قاضوية نجمية ) أو ( قاضى القضاة نجم الدين ) أو غير ذلك . وقد يصحف اسم المدوح فيقول مثلا : نجم الدين بن خضر ، وتكون القصيدة - في حقيقة الأمر - قد قيلت في نجم الدين بن صصرى المذكور ، كما ثبت لنا ذلك واقع القصيدة بعد التحقيق ، وكما سنشير إلى ذلك في خلال هذا البحث .

طالعت مدامحه ، وانتقبت أقدمها ، واعتمدت في انتقائي على وصف حالة الشاعر أول قلوبه إلى بلاد الشام ، وكان إذ ذاك في ضيق شديد . لن أقف عند صفات المدوح ، فإنها لا تختلف عن سائر قاضوياته ، وإنما أقف عند وصف حاله المريرة :

لَجَأْتُ إِلَيْهِ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ فَعَرَّفَنِي إِحْسَانَهُ حَلَوَ طَعْمِهَا  
وَكُنْتُ عَلَى قَصْدِي مِنَ النَّاسِ خَائِفًا فَأَلْفَيْتُهُ مِنْ رَاحَتِهِ بِيَمِّهَا<sup>(٢)</sup>

= الوردى والبداية والنهاية وكانت وفاته على التحقيق سنة ٧٢٢ هـ . الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ وتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٦٤ ، و ج ٢ ص ٢٧٣ ، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(١) الديوان ص ٥٠٨ .

(٢) الديوان ص ٤٤٦ .

يظهر لى أنه قال هذه القصيدة قبل أن تتوطد علاقته بالمويد ، أى عندما كان يعيش متنقلاً في أرجاء الشام قبل أن ينتهى به المطاف إلى البلاط المويدى . لو تصفحنا غيرها من المدائح الصصرية لرأينا نفسية الشاعر قد تبدت عن ذى قبل ، ولعل هذه كانت أيام الاستقرار الذى أشير إليه في حياته خلال هذه المرحلة ، كما فى هذه الميمية التى يقول فيها :

تفرَّقَ المجدُّ في الأحياءِ من قدمِ      والمجدُّ في تغلبَ العلياءِ ملتئمُ  
الطاعنينَ وحرَّ الحربِ ملتهبُ      والمُطعمينَ وحرَّ الجذبِ ملتهمُ  
والشائدينَ على كيوان<sup>(١)</sup> بيتَ علَا      تسمى النجومُ بمغناهُ وتستلمُ  
من كلِّ أروعِ سامٍ طرفُ سُودِدِهِ      أغرَّ قد ناولتهُ الرايةَ البُهمُ<sup>(٢)</sup>  
مَضَوْا وأحمدُ زاهى المجدِ مقتبلُ      كالروضِ أقبِلَ لَمَّا ولَّتِ الدِيمُ<sup>(٣)</sup>

مضى الشاعر كعادته يمدح نجم الدين ، ويشيد بنسبه تغلب ، ويتحدث عن مجدهم وعزهم ، ولكنه يلفت نظرنا خلال حديثه عن كرمهم إلى الجذب الذى كان يغشى الناس ، وقد أشرنا إلى ذلك بالتفصيل خلال دراستنا عصره ، والشاعر يثبت لنا هنا ما قدمناه من قبل من قول .

لا بأس أن نقف عند إحدى مدائحه الصصرية ، وقد نسبها جامع الديوان البشتكى خطأ إلى شخص آخر ، فذكر أنها قيلت فى « نجم الدين بن خضر »<sup>(٤)</sup> ، ولا نعرف بين أعلام المعروفين فى المائة الثامنة من يعرف بهذا الاسم ، لكننا نعرف « تاج الدين بن الزين خضر » وقد خصه الشاعر بمدائح كثيرة ، وسوف نعرض له فى مكانه من هذه الدراسة .

ثبت لدينا بعد التحقيق أن اسم الممدوح قد صحف فى لفظة ( خضر ) ، وهى بالأصح ( صصرى ) ، ولعل هذا خطأ كتابى ، وكثيراً ما يحدث هذا

( ١ ) كيوان : أى زحل ، وهو ممنوع من الصرف .

( ٢ ) البهم : جمع بهمة ، وهو الشجاع الذى يستبهم مأناه على أقرانه .

( ٣ ) الديوان ص ٤٤٠ .

( ٤ ) الديوان ص ٤٣١ .

التصحيح في المخطوطات العربية القديمة ، ولعل المطالع لم يكتف بما أورده ، لا بل إنه يستزيدنا من الدلالة والبرهان . وفعلًا عرض الشاعر باسم المدوح نجم الدين وهو أحمد قائلًا :

زمانٌ على حكْمى تولَّتْ هباته      ولكنهاُ ولَّتْ فزالَتْ على رِغْمى  
وأملتُ منْ إنعامِ (أحمد) مسلياً      ففناجيتُ وجهَ النجج من صحة الوهم  
وراحَ رجائى يضربُ الفألَ موقناً      وقامتْ قوافى الشعرِ تنظرُ في النجم<sup>(١)</sup>

نكتفي بهذا القدر من التحدث عن مدائحه ، أما القصيدتان الأخريان اللتان قالهما في تعزيتة وراثته ، فليس فيهما ما يستحق الوقوف عنده ، مما نحن فيه من دراسة حياة الأديب .

## ٥

### مع جلال الدين القزويني

عرف ابن نباتة جلال الدين<sup>(٢)</sup> في المرحلة المذكورة ، حينما كان يشغل منصب خطيب جامع دمشق ومنصب القضاء فيها . أما ما بعد هذه الفترة فإننا لانعثر له على مدائح للشاعر فيه ، لأنه انتقل إلى مصر بعد أن استدعاه الناصر

(١) الديوان ص ٤٣١ .

(٢) جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أبي دلف العجلي القزويني . ولد سنة ٦٦٦ هـ وقدم هو وأخوه أيام هجوم التتار من بلادهم إلى دمشق ، ولما ولي أخوه قضاء دمشق ناب عنه ، ثم ناب عن القاضي نجم الدين بن صصرى ، وقد حدثت جفوة بينهما لأنه أنكر عليه أشياء لم يأذن له بإقرارها عام ٧٠٥ هـ ، وتولى بعد ذلك الخطابة بجامع دمشق ، ولقى من نائبها كراى أذى كبيراً بسبب وقوفه مع العوام بسوق الخليل محتجين على الضرائب التى فرضها عليهم . طلبه الناصر لمصر وعرض عليه قضاء الشام سنة ٧٢٤ هـ ، ثم عين لقضاء الديار المصرية بعد عزل ابن جماعة سنة ٧٢٧ هـ . بقى في القاهرة حتى أعيد إلى دمشق معزولاً ، وما لبث أن توفى بالقالج سنة ٧٣٩ هـ . الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، وقاربخ ابن الوردي ج ٣ ص ٣١٧ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٥ ، والإيضاح ج ١ ص ٧٠ .

محمد ليوليه قضاءها سنة سبع وعشرين وسبعمائة بعد صرف ابن جماعة عنه .

أما القصائد التي خصه الشاعر فيها بمديحه فيبلغ عددها ست مدح ومرثية واحدة قيلت في المرحلة التالية بعد عودته من مصر معزولا ووفاته بدمشق .  
لعل أقدم قصيدة قالها فيه تلك التي مطلعها :

يا بروقاً على ربا يبرين<sup>(١)</sup> أَى بيضٍ أغمدتِ بينَ جفونى ؟  
ما أحلى هذا المطلع الشامى الطابع حين يذكر البروق التي تلمع في  
آفاق ربوات « يبرين » ، وهي قرية سورية بضواحي حلب . وقد كان في الأمس  
يتحدث عن سبك الأهرام ، وها هو ذا اليوم يتحدث عن يبرين الشام .  
يحسن بنا أن نستمع إلى الشاعر يتحدث عن القزويني ، بحر الفقه ،  
وهو يخطب الناس بجامع دمشق :

بحرُ فقهٍ وإنْ تشأ فابن بحر في ضروب البيان والتبيين  
وخطيبٌ يكنى الخطوبَ بلفظٍ يستميلُ الصخور بالثلين  
ساجعُ يورقُ المنابرَ ميساً فتلذ الأسجاع فوق الغصون  
وإمامُ المحرابِ يشهد علمُ حازه أنه إمامُ الفنون  
قسماً بـ (الضحاح)<sup>(٢)</sup> لديه من البش رٍ وبـ (الليل)<sup>(٣)</sup> من يراع أمين  
إنْ نظمَ المديح فرضُ علينا كل يومٍ لعزمِ المسنون<sup>(٤)</sup>

نقف عند قصيدة في مديحه ، وهي التي قالها عند ما تولى القزويني  
قضاء الشام سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وقد أشار إلى هذه الحادثة في معرض  
تهنئته قائلاً :

لله صبحٌ تجلّى للشريعة عن ذاك الجلال لقد جلت مآثره

(١) يبرين : قرية من قرى حلب من نواحي عزاز . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٧) .

(٢) أي سورة الضحى .

(٣) أي سورة الليل .

(٤) الديوان ص ٤٩٥ .

أفدى البريدَ وللتقليدِ في يدهِ  
 يكادُ يلمعُ مطوى السطور بهِ  
 مسرّةٌ كان طَرْفُ الشرعِ يرقبُها  
 قاضي القضاةِ جلالَ الدين قد وضّحتُ  
 وليتَ بالعلمِ لا بالحظِّ مرتبةٌ  
 وانظرْ لحال غريب الدار مفتقرِ  
 يمتُّه دلفيُّ الأصلِ منتسباً  
 لِسُنِّ تفرّدَ بالعلياءِ سوّددهُ  
 لقد تفرّدَ بالآدابِ شاعرهُ<sup>(١)</sup>

لعل الشاعر أراد بهذه التهئة أن يتولى منصباً ، ولعله وجد الفرصة مناسبة ليهتلها ، وقد تجلّى لنا في هذه الأبيات المختلفة نظراته للوظائف في الدواوين والقضاء لأنها تتبع الحظ ، ولكن حظه كان سيئاً ، فلم يحظ بما حظى به غيره ، وقد لفت نظرنا إلى أن ممدوحه قد حصل على هذه الرتبة بالعلم لا بالحظ .

ولا يكاد ينهى من ختام هذه القصيدة حتى نراه يقرن نفسه بممدوحه ، ويذكر له أنه تفرّد بالجد والعلياء ، وأما هو فقد تفرّد بشيء غير هذا وذلك ، تفرّد بالآداب بين الأدباء والشعراء تؤكد هذه الصفة ما رأيناه أكثر من مرة ، وهو أنه إمام القريض دون منازع ، تفرّد وحده بالآداب دون شريك ، ولا غرابة في ذلك ما دام أبناء العصر يعترفون له بالتفوق في الشعر والنثر .

أما سائر المدائح الأخرى فيجدر بنا أن نقف عند اثنتين منها ، وقد جهل البشكى جامع الديوان أنها قيلت فيه ، تأكدت من نسبتها إليه بعد الإمعان في قراءتهما وتحقيقهما ، وقد ذكر في إحداهما أنها قيلت للتهئة بالحج دون الإشارة إلى صاحب الحجّة الذي قيلت فيه ، وقد قال الشاعر فيها :

وكادتُ تبارينا دمشقُ بشجوها  
 إليك وقد تُشجّي الربا والمعالِمُ

(١) مفاقره : أي وجوه فقره ، والمفاقر لا واحد لها من لفظها ، وقيل هي جمع فقر على غير القياس ، قيل هي جمع مفقرة بمعنى الفقر .

(٢) الديوان ص ١٩٨ ، ١٩٩

لئن أوحشتها منك ربوة سوؤد  
لقد أوحشتها من نذاك المقاسم  
فوافيتها والعيش مُقتبلُ الهنا  
وعزمتك مبرورٌ وسرحك<sup>(١)</sup> سالمٌ  
إليك جلال الدين أصبحت العلاء  
وسلم أعرابُ الورى والأعاجم<sup>(٢)</sup>

تعبق من هذه الهمنة نفحة شامية ، فيها هي ذى دمشق تبارى الناس  
بشجوها وشوقها إليه وتلك ربوتها المشهورة تطل عليه ، لكنه يورى بها قائلاً :  
إنها ربوة سوؤد ومجد .

ولعل البيت الأخير خير إشارة إلى صاحب هذه الهمنة .

كما ذكر أيضاً في قصيدة أخرى أنه قالها ولم ينشدها ، ولم يذكر بمن  
قيلت ، وقد تبين لنا أيضاً أنها قيلت في القزويني ، ودلينا على ذلك الإشارة  
إلى أصل الممدوح ، وهو أبودلف :

بني دلفٍ طيبتم وطاب قديمكم  
فأكرمكم بكم فرعاً وأكرم بكم أصلاً<sup>(٣)</sup>

نتهى من تحقيق هاتين القصيدتين لنعرض وجهاً آخر من وجوه العلاقة  
بين الشاعر والممدوح. روى ابن نباتة في سجع المطوق بعد أن ترجم له ، وذكر  
ما قاله القزويني في مؤلفه المشهور « مجمع الفوائد » أنه أشار عليه أن يزيد  
على قول علم الدين بن القماح في أبياته المشهورة :

اصبر على حلو القضاء ومره  
واعلم بـ « أن الله بالغ أمره<sup>(٤)</sup> »<sup>(٥)</sup>

ويذكر لنا أيضاً أنه اقترح عليه معارضة القاضي الفاضل على طريقته في  
وصف يوم شات ، فكتب إليه ذلك ، وبعث به إليه<sup>(٦)</sup> .

(١) السج : المال السائم ، أو المال يسام في المرعى من الأنعام .

(٢) الديوان ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٣) الديوان ص ٥٥٦ .

(٤) اقتبس الشاعر قوله تعالى « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره »

سورة الطلاق ٦٥ / ٢ .

(٥) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٤٢ .

(٦) المصدر السابق .

أصاب ما بينهما من علاقة بعض الفتور . أدى بها إلى الانقطاع بعد ذلك ،  
 لانتقال القزويني إلى القاهرة . فلم نعر له على قصيدة قيلت في هذه الفترة ،  
 عدا مرثية واحدة . قالها فيه بعد عودته إلى دمشق ووفاته فيها ، إذ يقول :  
 يا جلالاً . عن الزمان تقضى عزَّ ربُّ قَضَى وجلَّ جلالُهُ  
 ما اقتضى حظنا بقاءك فينا واحداً تشمل الأنامَ ظلالُهُ<sup>(١)</sup>

ثم ينتقل ليحدثنا كعادته عن الوحدة السياسية بين الإقليمين . ووجدتهما  
 في المصائب والأحزان . كما في قوله :

وَنَعَتْ مصرُ والشَّامُ إماماً طرَرتْ مجدَ ذا وذاك خِلالُهُ  
 لو بقدر الأسي بكيتُ لسالتُ مهجَّةُ كمُ وَفَتْ لها أفضالُهُ<sup>(٢)</sup>

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن القزويني الذي عرفه الشاعر في بلاد  
 الشام مع غيره من قضاة هذا العصر وعلمائه وأدبائه في المرحلة المذكورة .  
 كما يجدر بي أن أشير إلى طائفة أخرى عرفها الشاعر . لكنني أكتفي هنا  
 بذكر أسمائهم ، لأن بعضهم لم يقل فيهم شعراً البتة ، وإنما عرض لذكرهم في  
 كتابه سجع المطوق بعد أن زكوا كتابه الفريد « مجمع الفوائد » ، ولأن  
 بعضهم الآخر لم يقل فيهم غير قصيدة واحدة أو قصيدتين أو مقطوعة شعرية  
 صغيرة . ووفاء للبحث نذكر أسمائهم ، وهم : علاء الدين بن غانم ، وبهاء الدين  
 ابن غانم ، وبدر الدين بن العطار . وفخر الدين بن المعلم المصري ، وأمين  
 الدين بن الححاس ، وشرف الدين بن البردي ، وجمال الدين بن حماد  
 الحموي .

(١) الديوان ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) الديوان ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

## المرحلة الرابعة

٥٧٣٢ - ٥٧٤٢ هـ

تبدأ مرحلة جديدة بموت الملك المؤيد ، ويخلفه ابنه الملك الأفضل ، ويجرى على ابن نبانة راتبه الذى كان يناله كل عام . لكن الأمر لم يكن على ما كان يهوى ، فترك حماة بعد أن لمس من الملك الجديد زهداً فى الحياة وإعراضاً عن الشعر والشعراء . وهكذا ينتهى دور الاستقرار والمجد ، ويبدأ بعده دور التنقل سعياً وراء الرزق فى أنحاء بلاد الشام . وهكذا يتغير وضع ابن نبانة بعد هذا المجد الذى أحرزه فى عهد الملك الراحل ، وقد تجلّى لنا فى الشهرة الواسعة التى عرف بها فى العالم الإسلامى قاطبة حتى كان ابن جزى يدعو به بشاعر المشرق كما رأينا ذلك .

مصكين هذا الأديب الكبير بدأ يهبط من أوج عظمته ، فراح يسعى فى منابك الأرض يفتش عن القوت الزهيد ليكنى أسرته مؤونة العيش . كان فى الأمس يؤلف أشعاره ، فتلقى الرعاية من مليكه والإثابة عليها . أما اليوم فما أبعد البون بين أمسه الزاهر وحاضره العابس !

نراه تارة فى بلاط الأفضل ، وأخرى فى القدس الشريف ، يشغل وظيفة فى كنيسة القيامة ، لانتناسب مع مكانة شاعر المشرق . فن حق الشاعر علينا أن تنتقل معه بين حماة والقدس ودمشق . وتلتقى مع الملك الأفضل والوزير أمين الدين وغيرهما ممن انتجع مرادهم ، ونال عطاءهم .

١

## فى بلاط الملك الأفضل

سعت أم الأفضل بعد وفاة الملك المؤيد إلى دمشق ، وطلبت من تنكر أن يصدر السلطان أمراً بتولية ابنها مكان أبيه . وقد قدم البريد بالموافقة ، وطلب

إليه أن يجهزه لمقابلة السلطان في القاهرة لتقديم فروض الولاء . وتوجه إليها . فأكرم السلطان وفادته ، وخلع عليه التشاريف بنظير ما كان لأبيه من علو المكانة<sup>(١)</sup> ، وعاد إلى مقر ملكه .

عرف الأفضل كأبيه في أول عهده بالملك بتكريمه الشعراء واستحضاره للأمثال والأشعار . فن الطبيعي أن يكون ابن نبأته متمتعاً بمكانته الأولى ، وهو شاعر البلاط الأيوبي دون منازع . ولم يكن الشاعر حديث عهد بمدح الملك الأفضل ، لأنه قد تحقق لدينا أنه كان يمدحه ، وهو أمير ثم ولي للعهد ، فلم يكذب يوارى ثرى الملك المؤيد حتى نرى الشاعر يذكر ناصر الدين ( وهو لقبه الأول) خلال رثائه لأبيه قائلا في القصيدة نفسها وكأنما كان خائفاً على مصير البيت الأيوبي :

ياناصرالدين أنت الملكُ قد قرأتُ      علائمَ الملكِ فيه عينُ رائيهِ  
ومنْ أبيكَ تعلمتَ الثباتَ فما      تحتاجُ تذكرُ أمراً أنتَ تدريهِ  
لا تخشَ بيتكُ أنْ يلوى الزمانُ بهِ      «فإنَّ للبيتِ ربًّا سوفَ يحميه»<sup>(٢)</sup>

إنها وصية إنسان نصوح ، عرف أسرار البلاط ، وعرف الأعداء والطامعين الذين رفعوا رؤوسهم بعد موت الملك المؤيد ، وما لبث أن ختم رثاءه ، بهذا البيت الرائع وبكلمة عبد المطلب المأثورة : إن للبيت ربًّا سوفَ يمتعه .

غير الناصر لقبه « المنصور » وسمى نفسه « الأفضل » تيمناً باسم جده على وبدأ الشعراء يفدون عليه لتمنئته بالملك ، وكثر الوافدون من شتى أرجاء الشام . ومن أحق من هؤلاء بتهنئة من شاعر المشرق ابن نبأته الذي وقف بينهم . فأنشد قصيدته الرائعة ، وكان - في حقيقة الأمر - يندب فيها مليكة الراحل :

هناكَ محاً ذاكَ العزاءَ المقدماً      فما عبَسَ المحزونُ حتى تبسَّماً

(١) السلوك ج ٢ ص ٣٤٤ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٩ .

(٢) الديوان ص ٥٧٢ .

ثُغورُ ابتسام في ثُغورِ مدامعٍ      شبيهان لا يمتازُ ذو السبقِ منهما  
نردُّ مجارىِ الدمعِ والبشرُ واضحٌ      كوابلِ غيثٍ في ضُحاهِ الشمسِ قد هَمَى<sup>(١)</sup>

أعجب ابن حجة صاحب الخزانة بهذه القصيدة . وجعلها من عجائب الدهر<sup>(٢)</sup> . لأنه « جمع فيها بين نقيضى المدح والرثاء في كل بيت » ، وقد أورد شواهد منها . وعلق على ذلك قائلاً : « سبحان المانع . والله من لا يتعلم الأدب من هنا ، فهو من المحجوبين عن إدراكه » ، وكأنما أراد الشاعر من هذا التناقض أن يروعنا بإظهار مذهبه الردي البديع . وكان حتماً موفقاً . وبأبي عليه وفاؤه إلا أن يدعو لقبير أبي الفداء بالسقميا . وهذه الصفة نراها عامة في كل مدائح الأفضل .

سقى الغيثُ عنا تربةَ الملكِ الذى      عهدنا سجاياه أبرَّ وأكرمًا  
ودامتْ يدُ النعمى على الملكِ الذى      تدانتْ له الدنيا وعزَّ بهِ الحِمى  
مليكان هذا قد هوى لضريحه      برغمى ، وهذا للأمرَّة قد سمًا<sup>(٣)</sup>

تقف بعض الوقت عند هذه الأبيات . لنسقي مع شاعرنا ثرى الملك الراحل . ونقف كرة أخرى عند البيت الأخير ، لتأمل ملياً قوله : « برغمى » ، ولعله كان يؤمل من أبي الفداء شيئاً . فهل وعده بأمر ، فأخلف في نفس شاعره بعد موته الحسرات ؟ أو لعله الوفاء والوفاء وحده ؟

تأثرت . وأنا أطالع هذه القصيدة . لأنه كان يندب سيده الراحل أكثر مما كان يهنئ الأفضل الملك المتوج ، ولعلها كانت تهينة في معرض الرثاء :

إذا الأفضلُ الملكُ اعتبرتْ مقامه      وجدتْ زمانَ الملكِ قد عادَ مثلما  
أعادَ معانى البيتِ حتى حسبتُه      بوزنِ الثنا والحمدِ بيتًا منظَّمًا  
فإنْ يكُ منْ أيُّوبَ نجمٌ قد انقضَى      فقدْ أطلعتْ أوصافك العرُّ أنجمًا  
وإنْ تكُ أوقاتُ المؤيدِ قد خدَّتْ      فقدْ جدَّدتْ عليكِ وقتًا وموسمًا

(٢) خزانة الأدب ص ١١ .

(١) الدوان ص ٤٢٩ .

(٣) الديوان ٤٢٩ .

عليه سلامُ الله ما ذرَّ شارقٌ<sup>(١)</sup>      ورحمتهُ ما شاء أن يترحمًا  
هو الغيثُ ولّى بالثناء مشيعًا      وأبقاكَ بحرًا للمواهب مُنعمًا  
لك الله ما أبهى وأبهر طلعةً      وأفضلَ أخلاقًا وأشرفَ مُنتمى  
بك انبسطتُ فيك التهانى وأنشأتُ      ربيعَ الهنا حتى نسينا المحرَّ ما<sup>(٢)</sup>

وقف ابن حجة . وهو يورد شواهد من القصيدة المذكورة ، عند البيت الأخير ، وقال : « وكانت وفاة الملك المؤيد في شهر المحرم ، فقال ولم يخرج عما نحن فيه . . . والجمع بين التهنئة والتعزية في نوع ( الافتنان ) أصعب مسلکًا من الجمع بين النسيب والحماسة لشدة التناقض بينهما »<sup>(٣)</sup> .

نلاحظ في هذه الأبيات الأخيرة أن الشاعر لا يكاد يشرع في مديح الأفضل حتى يعاود الحنين إلى أيام أبي الفداء حبيبه الأول . وسرعان ما ينقلب مديحه رثاء وذكرى للملك الراحل . هكذا يمضي الشاعر بين ماضٍ وحاضر . ولا يكاد يدنو من نهاية القصيدة حتى يأخذ بتذكيره بماضيه لدى أبيه ومدانحه فيه ، ولا نعلم لم يذكره بكل ذلك ؟ وهل نسي الأفضل شاعر أبيه ووطوقه الساجع ؟ وإلا بم نفسر هذا الإلحاح الشديد ؟ .

أيا ملكًا قد أنجدتَ الناسَ عزمُهُ      فأنجدتَ مدحُ الناسِ فيهِ وأتمها  
سبقتُ لك المدائحَ قديمًا وبأدرتُ      يدا كَلِمى فاستلزمتُ منك ملزمًا  
ليالى أنشى في أبيبك مدائحًا      وفيك فأروي مسندَ الفضلِ عنكمَا  
وأغدو بأنواعِ الجميلِ مطوقًا      فأسجعُ في أوصافِهِ مترنمًا  
وأستوضحُ العلياءَ فيك فإسةً      بملكِك لا أعطى عليها منجمًا<sup>(٤)</sup>

بدأت العلاقة بين الأفضل وابن نباتة على أم ما يكون . وكانت - في

(١) ذر : طلع ، والشارق : الشمس حين تشرق ، وقد يطلق على غير الشمس . وقولنا :

ماذر شارق ، أى ما طلع .

(٣) خزنة الأدب ص ٧٧ .

(٢) الديوان ص ٤٣٠ .

(٤) الديوان ص ٤٣٠ .

الحقيقة - استمراراً لماضى الشاعر وحاضره ، حتى إن النعمى كانت تصل إليه ،  
دون أن يسعى في طلبها :

يا مليكاً سقى نداءه نباتاً . زاكياً زرعُ حمدهِ في الزروعِ  
وَصَلَّتْنِي النِّعْمَى وَلَمْ تَسْرِعِيْسِي<sup>(١)</sup> . بفلاةٍ ولم تُشَدَّ نُسُوعِي<sup>(٢)</sup>  
كرماً منك سوف تتلو التواريد . غُ ثناهُ على رؤوسِ الجميعِ<sup>(٣)</sup>

استمرت حياة الشاعر في بدء حكم الأفضل على خير ما يرام ، وما زالت  
شهرة الشاعر صاعدة في طريق المجد والخلود . وكان الناس يدلفون إليه من كل  
حذب وصوب ، يطلبون منه برّ الإجازة لأنه أمير الشعراء وشاعر المشرق .  
بدأ الشيب يتقدم نحوه بخطاه ، وكأنما كان موت أبي الفداء نهاية شباب نفسه  
وإيداناً بانتهاء سعادته ، لأن الأفضل ، وإن أجرى عليه رزقه ، إلا أنه لم يكن  
ليشعر بالطمأنينة التي شعر بها في حياة أبيه . فلم يكن شاعره ، بل كان صفيه  
وخليله . وأنى له مثل ذلك في حياة هذا المليك الشاب ؟ ها هو ذا المشيب قد  
وخط فوديه ، فأخذ يتحدث عنه في قصائده التي نظمها في هذه المرحلة .  
فلنستمع إليه ينشد الأفضل ، وهو يتحسر على أيام شبيبته :

سقياً لأوقاتِ الشمبيةِ . إنها أوفى لمطلبِ السرورِ وأوفقُ  
ما سرّني أنّ الكميتَ تحثُّها نحوى السقاةُ وأنّ فودى أبلقُ  
عنى بكأسِكَ يا نديمُ فإنّ لي جفنًا مدامعه أرقُ وأروقُ  
زال الصِّبا ونأى الحبيبُ فعادني « أرقُ على أرقٍ ومثلي يأرقُ »<sup>(٤)</sup> (٥) »

(١) عيسى : جمع أعيس وعيساء ، وهي الإبل البيض التي يتخالط بياضها سواد خفيف أو  
شقرة ، وقيل هي كرائم الأبل .

(٢) نسوع : جمع نسع ، وهو سير أو سبل عريض تشدّ به الرحال .

(٣) الديوان ص ٢٩٧ .

(٤) اقتبس الشاعر الشطر الأول من مطلع قصيدة للمتنبى ، وتامه قوله : « وجوى يزيد  
وعبرة تترقُّ » (ديوان المتنبى ج ٢ ص ٣٣٢) .

(٥) الديوان ص ٣٣٩ .

أترى هل هذا الحبيب هو الملك المؤيد الذي شاطره أيام الشبية وأوقاتها؟  
 إنه لا يستسيغ الكمية التي تحبها نحوه السقا ، ويطلب من نديمه أن يبعد  
 عنه كؤوسها ، ففي مدامعه ما يغنيه عنها ، بل هي أرق منها وأروق . ماذا يفعل  
 بها بعد أن ولي الحبيب وولت معه أيام الشباب؟ لكنه لا يلبث بعد هذا حتى  
 ينتقل بلمح الأفضل :

نَشَأَ النَوَالُ الْأَفْضَلِيَّ فَلَمْ نَسَلْ      فِي الْأَفْقِ هَلْ نَشَأَ الْغَمَامُ الْمَدْقُ؟  
 إِنْ كَانَ فِي الْكِرْمَاءِ رَسُلٌ سَمَاحَةٌ      فَمَحْمَدٌ مِنْهَا الْأَخِيرُ الْأَسْبَقُ  
 يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَكْمَلُ فَضْلُهُ      وَقِيَّتَ مِنْ حَدَقِ إِلَيْكَ تُحَدِّقُ  
 أَذْكَرْتَنَا زَمَنَ الْمُؤَيَّدِ لَا غَدَتِ      مَشْوَاهُ بَاكِيَةٌ الْغَمَامُ تَشْهَقُ  
 حَتَّى تَجْرَّ بِهِ ذِيوَلٌ حَدِيقَةٌ      أَكْمَامُهَا بِيَدِ النَّسِيمِ تَفْتَقُ  
 مِنْ عُشِّ بَيْتِكَ قَدْ دَرَجْتُ وَطَارَبِي      فِي الْخَافِقِينَ جَنَاحُ ذَكَرٍ يَخْفَقُ  
 وَبِكُمْ عَلِمْتُ مِنَ الْقَرِيضِ صِنَاعَةٌ      مَا كُنْتُ - لَوْلَاكُمْ - بِهَا أَتَعْلَقُ<sup>(١)</sup>

تصور هذه الأبيات حياة ابن نباتة في الأيام الأولى من ملك الأفضل  
 ويتحدث لنا فيها عن رسول الكرماء محمد ، ويتذكر أيام المؤيد كعادته ،  
 ويدعو له بالسقيا ، ثم ليحدثنا عن البيت الأيوبي الذي رفع شأنه ،  
 وأشاع بالخافقين ذكره ، ولولا هذا البيت الأيوبي لبقى مغموراً ، ولكنه أصبح  
 بفضلهم ذائع الصيت سائر الذكر ما بين الشرق والغرب ؛ ويؤيد هذا ما ذهب  
 إليه من أنه شاعر المشرق في عصره ، ولم نسمع من قبل بمثل هذا اللقب  
 لشاعر من الشعراء .

## مع الملك الزاهد الأفضل

تزهد فبجاءة الملك الأفضل<sup>(١)</sup>، ولا نعرف سبب هذا الزهد ، وهو في ريعان الشباب ، ولعله من الغريب جداً أن يسلك هذا السبيل ، وقد عرفنا عنه في أيام صباه ، أنه كان مولعاً بالصيد ، وقد صحبه شاعره في كثير من الأحيان ، وخلد في أرجوزته المشهورة « مصايد الشوارد » أجمل رحلة صيد يقوم بها ملك .

نعجب مع الشاعر بهذا الزهد كل العجب ، ولعل الثقافة الدينية التي أخذها بها أبوه منذ صغره كانت من العوامل التي أدت إلى ذلك . يضاف إليها انتشار موجة التصوف في مصر والشام ، وسبق لنا أن استعرضنا المذاهب الصوفية وعددنا فرقها في العالم الإسلامي . ولعل طابع التدين الذي عرفت به مدينة حماة ، وكثرة المتصوفة فيها كانا من العوامل التي أدت بالملك الشاب إلى الانصراف لحياة الزهد والتقشف .

مهما يكن من أمر ، ومهما كانت الدواعي ، فقد بدأ الشاعر يعاني انصراف مليكه الزاهد عنه . وانتشر أمره بين الناس ، فصوره لنا خير تصوير :

ما أرى الدهرُ غَيْرَنَا زُهْدًا لَأَفْضَلُ	ضل والحالُ مُمكنُ المَطْلُوبِ
مَلِكٌ فِي حِمَى الشَّيْبِيَّةِ وَالْمَلِكِ	ك لهُ مِنْ دُنْيَاهُ زَادُ الْغَرِيبِ
دَبَّرَ الْمَلِكُ بِالتُّقَى فَكَسَاهُ اللُّدَّ	هُ فِيهِ ثُوبَ الْمَرْجَى الْمَهِيْبِ
بَيْنَ سَجَادَةٍ وَبَيْنَ كِتَابٍ	وَسِوَاهُ مَا بَيْنَ كَأْسٍ وَكُوبِ
يَنْشُرُ الْعَدْلَ أَوْ يَبِثُّ الْعَطَايَا	فَهُوَ زَاكِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ

(١) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٢ .

وله فوق أدهم الليل تسرى دعوات خفيفته المركوب  
جل من صير التقى فيه خلقاً قبل خلق التدرّيج والتدريب<sup>(١)</sup>

أشعر من خلال هذه الأبيات أن الشاعر يعجب من زهد الأفضل ، وهو في  
غلاء الشبية ، وفي حمى الملك ، وليس له من دنياه غير زاد يسير ، وقد زاده  
الله هيبه ، فدبر مقاليد الملك . وقام على شئون الناس في نهاره . وعكف على  
صلواته يتمجد في الليل . يدعو ربه بقلب خاشع . فطر على الإيمان والتقوى .  
لعل نفوسنا تود الاستزادة من وصف ليل المليك الزاهد بعد أن أغنى الناس وهجع  
الورى :

الملك العابد نام الورى بعدله وهو كثير السهاد  
ذو الجود في عسر ويسر ومن مثل ذوى التجريب في كل ناد  
والهيبة العظمى التى أصلحت بذكرها السائر أهل الفساد  
من اتقى الله اتقت بأسه كواسر<sup>(٢)</sup> الأفق وغلب<sup>(٣)</sup> الوهاد  
بين كتاب ومصلى إذا أمسى سواه بين كأس وشاد  
يا ملكاً ، أصبح فى الدين وال دنيا سعيد الجد والاجتهاد  
عش كسليمان على ملكه تعرض هذى «الصفات الجياد»<sup>(٤)</sup><sup>(٥)</sup>  
تصور لنا هذه الأبيات إيمانه وعدله وبأسه ، وقد أنطقه زهد مليكه حكمة  
زهده فى تقوى الله . ويخاطبه بعد هذا الوصف الرائع ، فيدعو له أن يعيش فى

(١) الديوان ص ٢٤ .

(٢) كواسر : جمع كاسر وهو العقاب ، أى منقش بكر جناحيه أو يكسر ما يصيده  
كسراً ، والكواسر أيضاً تطلق على الطيور عموماً .

(٣) غلب : جمع أغلب ، وأسد أغلب أى غليظ الرقبة .

(٤) الصفات : جمع الصافن ، أى الجواد الصافن ، وصفن الفرس قام على ثلاث  
قوائم وطرف حافر الرابعة ، اقتبس الشاعر قوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعتى الصفات الجياد »

سورة ص ٣١/٣٨ .

(٥) الديوان ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

ملكه ما عاش سليمان الحكيم . لم يقطع الملك نعماءه عنه على الرغم مما هوفيه من زهد، بل واصله بالعطاء الجزل ، لكنه لم يكن يسمح له بالثول بين يديه في معظم الأحيان . استمرت حياة الشاعر في مطلع هذه المرحلة ، وسارت سيرتها الأولى . فلا نستغرب ، إن رأيناه يضع نفسه فوق الحكيمين المتنبئ وأبي العلاء بعد أن فضل نفسه في المرحلة الفائتة على الخطيئة وجريرواى تمام :

أقامَ محمدٌ للفضلِ شرعاً      مَحَا ما كَانَ مِنْ شِكٍّ ومِثْنٍ  
ورادَفَ حُسْنُ خُلُقِي حُسْنَ خُلُقِي      فلمْ يقنَعْ بإحدىِ الحُسَينِ<sup>(١)</sup>  
كذا فليبقَ في أفقِ المعالي      ووالدُهُ بقاءَ الفرقَدينِ  
أصوغُ لَهُ مدائحَ لم يصُغْها      على سيفِ العلاءِ نجلِ الحسينِ  
وأطلقَ فِيهِ أَلْفاظاً تسامتُ      على أَلْفاظِ رَهْنِ المحبِسينِ<sup>(٢)</sup>

لم ينس ابن نبأة ذكر المؤيد في معرض مديحه الأفضل ، وقد انتهز هذه المناسبة ، ففضل شعره على غيره من الشعراء بما فيهم نجل الحسين أحمد المتنبئ ورهن المحبين المعري .

تمضى هذه الفترة الأولى من زهده ، والشاعر يرفل فيها بأجمل حلله . ولم يكده ينتهى زهده ، ويبدأ فترة الاستبداد ، حتى تتعقد الأمور ، وتباين الأحوال . وهكذا بدأ الشاعر يتردى في مهاوى الفقر والشقاء . ترك الأفضل — كما قلنا — زهده لأنه أثار من حوله أعداءه وأقرباءه الطامعين ، وقد تغير السلطان الناصر محمد عليه أيضاً ، فذكر صاحب الدرر : « أنه لم يزل مروعاً في مملكته ، تارة من جهة السلطان ، وتارة من جهة نائب الشام بسبب أقاربه ، حيث يشكون عليه ، وتارة من جهة العربان حيث يأخذون إقطاعاته » نسأل : لم تغير السلطان عليه ؟ ولم يكيد له نائب الشام ؟ ولم يشكوه أقاربه الأيوبيون ؟ ولم بدأت العربان تهاجم أطراف مملكته وتأخذ منها إقطاعات ؟ :

(١) إحدى الحسينين : أى إحدى الحصلتين .

(٢) الديوان ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

ذلك كله سببه زهده . كما نعتقد . ولعل استبداده الذى أخذ به الناس —  
 فيما بعد — كان نتيجة حتمية لما يحدث اليوم فى مملكة حماة .  
 رأى الشاعر أن من واجبه تنبيه سيده ، وعليه أن يسمعه تشنيع أعدائه  
 عليه ، ويرد بدوره عليهم ما شنعوه ، وأن الله رد ما أرادوه من كيد له :  
 كمْ لَهُ عَزْمَةٌ إِلَى أَرْضِ مِصْرٍ بَشَّرْتُ عَامَ وَفِيهَا بِخَصِيبٍ (١)  
 كَمْ أَشَاعَ الْأَعْدَاءُ أَمْرًا فَرَدَّ اللَّهُ مَا شَنَعُوا بِلَطْفٍ عَجِيبٍ (٢)  
 ماذا أشاع عليه أعداؤه إذاً؟ والجواب على ذلك أنه يعود إلى زهده واستبداده .  
 تسوء الأمور فى المملكة ويحاول أعداؤه أن يوقعوا بينهما ، وتقع الواقعة ، ويخفون  
 الأفضل شاعر البيت الأيوبي ، ويفلح أعداؤه من ذوى المن ، فيوغرون  
 صدره ، ويحتلون مكان شاعره ، وهكذا ولأول مرة يذر الجفاء قرنه بين الشاعر  
 والبيت الأيوبي .. فلنسمعه يحدثنا عن الدهر :

كَمْ يَقْصِدُ الدَّهْرُ إِغْضَابِي بِقَادِحَةٍ (٣)  
 فِي الْحَالِ لَكِنَّهَا فِي الصَّبْرِ مَا قَدَحَتْ (٤)  
 إِنْ عَابَ رَوْنِقَ الْفَاطِطِيِّ ذُووِ إِحْنٍ (٥)  
 فِي السَّمَاءِ بِدَوْرٍ طَالَمَا نُبِحَتْ  
 دَعِ اللَّيَالِي إِنْ قَدْ غَضِرَتْ لَهَا  
 بِالْأَفْضَلِ الْمَلِكِ مَا كَانَتْ قَدْ اجْتَرَحَتْ (٦) (٧)

لكنه يصفح عما فعلته الليالي لأنه يريد ألا ينسى ماضيه ولأنه يريد أن  
 يعيش على ذكرى ماضى المؤيد . ولعل الشاعر بدأ يسأم الحياة بعد موته ،  
 ولعله بدأ يشعر بالآلام الغربية لأن الغريب معذب أبداً ، وزراه لأول مرة يحن إلى

(١) التورية باسم مدوحه الصاحب فخر الدين بن خصيب ، وباسم أمير مصر وصاحب  
 خراجها الخصيب بن عبد الحميد العجمي المرادى ، وهو الذى قصده أبو نواس وخصه بخير مدائحه .

(٢) الديوان ص ٢٤ .

(٣) بقادحة : أى بنكبة قادحة : شديدة ، والقادحة فى الأصل الدودة التى تأكل

السن والشجر .

(٤) قدحت : يقال قدح الشيء فى صدرى أى أثار . (٥) إحن : جمع إحنة ، وهى الخفق .

(٦) اجترح الإثم ارتكبه . (٧) الديوان ص ٩٧ ، ٩٨ .

أرضه الطاهرة التي أنبتت نباته وإلى النيل المبارك الذي سقاه أيام الشبيبة والصبا  
والذي قال فيه أول شعره، وإلى هذا الشباب الذي أذبلته الأيام ، ويأخذ بوصف  
حظه العائر في الحياة وصفاً يأخذ بمجامع الأبواب :

ذَكَرْتُ الشَّبَابَ وَأَقْمَارَهُ      جَوَانِحَ اللَّمَّةِ الدَّاجِيَةِ  
وَرَوْضًا كَأَنَّ سِقَاةَ الْمُدَامِ      تُبَارِي سَوَاقِيَهُ الْجَارِيَةِ  
تَوَلَّى الزَّمَانُ بِهَذَا وَذَا      فَلَمْ يَبْقَ سَاقٍ وَلَا سَاقِيَةٍ  
وَطَوَّحَ بِي الدَّهْرُ فِي غَرْبِهِ      صُلَيْتُ بِنِيرَانِهَا الْحَامِيَةِ  
كَأَنِّي خَارِجٌ خَطُّهُ اسْتَوَاءُ      فَمَا لِي فِي ظِلِّهَا زَاوِيَةٍ  
طَرُوسِي نَاشِرَةٌ فَضْلَهَا      وَبِالْجُوعِ لِي مَهْجَةٌ طَاوِيَةٍ  
أَضْيَعُ وَقَدْ ضَاعَ مِنْ مَنْطِقِي      شَذَا مَا بَدَأَ قَبْلُ فِي الْبَادِيَةِ  
عَسَى كَرْمُ الْأَفْضَلِ الْمُرْتَجَى      يَوْعُ فِي قِصَّتِي الشَّاكِيَةِ<sup>(١)</sup>

لم ينشد الشاعر مليكه هذه القصيدة التي اقتطفنا منها الأبيات السابقة . إنها  
حقاً قصته الشاكية بل إنها القصيدة الشاكية . ماذا حدث ياترى ؟ لقد أوقع  
الأعداء ما كانوا يريدونه منذ زمن طويل ، فقطع راتبه السنوي . وإلا ما هي  
قصته الشاكية ؟ إنها شكوى مريرة لم نسمعها قط من لسان الشاعر .

استبد الملك في أحكامه كما يذكر المؤرخون لكننا لا نعرف لم أصبح الشاعر  
سيء الحال على هذا الشكل ؟ نستمع إليه ينهى لنا قصيدته الشاكية ،  
ويهدد الملك بالذهاب إلى غيره :

سَمِعْنَا مَحَاسِنَ قَوْمٍ وَلَا      كَمَثَلِ مَحَاسِنِهِ الْبَادِيَةِ  
مِنَ الْقَوْمِ تَمَحَّى نَجُومُ السَّمَاءِ      وَأَثَارُ سَوْدِهِمْ بَاقِيَةِ  
رِيَاضٍ مَحَامِدِهِمْ غَضَّةٌ      وَسَحْبُ عَوَارِفِهِمْ<sup>(٢)</sup> هَامِيَةٍ<sup>(٣)</sup>

(١) الديوان ص ٥٦٣ .

(٢) عوارف : جمع عارفة ، وهي فاعلة بمعنى مفعولة أى الطية .

(٣) الديوان ص ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

لقد سمع بوجود كثير من الناس أصحاب جود ومجد ، ولعل نفسه كانت تراوده وتدفع به إليهم لكنه لا يستطيع أن ينفك عن هذا الماضي الأثير الذي قيده بهذا البيت الأيوني ، ولا يلبث أن يتضرع ثانية للمليكة :

أَأَزْكِي الْوَرَى أَسْرَةً بَرَةً وَأَسْعِدُهُمْ هِمَّةً عَالِيَةً  
إِلَيْكَ بَعَثْتُ وَفَوَدَ الرَّجَا وَوَجَّهْتُ دَمِّي الْقَاصِيَةَ  
وَأَمَلْتُ بَرَكٌ دُونَ الْوَرَى زَمَانَ يَدِي عَنْهُمْ نَائِيَةَ  
دَعَانِي سِوَاكَ لِعَيْنِ النَّوَالِ «فَقُلْتُ: عَلَى عَيْنِكَ الرَّاقِيَةَ» (١)  
وَكَانَ الْمُؤَيَّدُ ثُمَّ انْقَضَى فَأَيْدٍ مَطَالِبِي الْعَانِيَةَ  
وَخَذَهَا عَقِيلَةً مَدْحٍ عَلَى بَنِي الشَّعْرِ رَتَبْتُهَا عَالِيَةَ  
يَتِيمَةً فَكِرٍ أَمْرِي يَرْتَجِي كِفَالَةَ أَيَّامِهِ الْمَاضِيَةَ (٢)

تلك هي قصيدته الشاكية حتى نهايتها . طروسه ناشرة فضلها بين الناس . شهرته سائرة في الخافقين . ومع ذلك يبقى ذا مهجة طاوية . سمع محاسن قوم آخرين دعوه للنوال نفسه ، لكنه على ما هو فيه من حرمان يحفظ الوفاء لأيام ملك قد انقضى . وهو يرجو في هذه القصة الشاكية تلبية مطالبه العانية وكفالة أيامه الماضية . وهل هذا بكثير على امرئ خلد البلاط الأيوني معظم أيام عمره . لم يترك الأفضل من مدائح . لكنه صار يفتش عن وظيفة تدر عليه بعض الرزق . كان يعود بين الفينة والفينة إلى ربوع ملكه الظالم . ولعله كان يشفق عليه . ويشفق على هذا البيت الأيوني من أن يترك حماه تعبت به الأيام . كان يكتفى بالنصح . لكن الأمر قد استفحل خطره . وبلغ الأمر بالملك أنه حبس أحد وجهاء حماة . وهو ابن قرناص بين حائطين ، فمات بعد ذلك من قسوة التعذيب .

(١) ضمن الشاعر الشطر الثاني من بيت انشرف الأنصاري ، ونقله من الغزل إلى المدح ، وصدر قوله : « فقلت : بعني هذا السقام » (ديوان شرف الدين الأنصاري ، ص ٥٣٠) .

(٢) الديوان ص ٥٦٤ .

ازدادت حال الشاعر سوءاً على سوء ، وأنشب الجوع فيه أنيابه ، ومرضت  
جاريته العجفاء شهيدة ، فأصيبت بالسل ، وأخذت تعاني آلام الجوع والمرض  
وقد صور ابن نباتة هذه الحال قائلاً :

قف بباب الملك الأفضل يا طرمي المائل واشرح شجني  
سيدي ، بعد نذاك المرتجى لا تسل عن حالي الممتحن  
أنا والجارية العجفاء<sup>(١)</sup> في حال جوع مخرس للألسن  
قد عرانا من طوانا زمن ما عهدنا مثله من زمن  
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني  
غير أنني بالجوى أعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني<sup>(٢)</sup>

هذه الأبيات غنية عن كل قول وبيان، إذ يصرح فيها الشاعر بما لا يدع  
مجالاً للشك بسوء حاله . يسأله باستجداء أن يرحم حاله وحال جاريته  
العجفاء .

عاوده الحنين . وهو على هذه الحال السيئة إلى وطنه الحبيب . إلى أرض  
النيل الخالد ، بعد أن طوح به الدهر في غربة . آن لهذا المبعد أن يؤوب ،  
ولهذا الأديب الغريب أن يعود . لأن الغريب معذب أبداً . هاهو ذا يتشوق إلى  
مصر وأخبارها . فيتحدث إلى الأنسام . ويسألها عن أخبارها :

خلّ يا دمع مقلتي في الدجى إن لها « في النهار سبحاً طويلاً »<sup>(٣)</sup>  
وأعدّ يا نسيم أخبار مصر ربما طارح العليل عليلاً  
أنت لاشك من صبا أرض مصر فلهذا أرى عليك قبولا<sup>(٤)</sup>

(١) في الأصل التحفاء ، وهي مصحفة من العجفاء، أي المهزولة الضعيفة ، ولعل ذلك  
من تصحيف الناسخ أو جامع الديوان .

(٢) الديوان ص ٤٩١ .

(٣) اقتبس الشاعر قوله تعالى : « إن لك في النهار سبحاً طويلاً » (سورة المنزل ٧٣/٧) .

(٤) الديوان ص ٥٥١ .

لم نستمع من الشاعر قصيدة فيها مثل هذه النفحة المصرية لأن المؤيد قد أنساه من قبل مصره ونيله . وكأتما لذ للشاعر أن يتغنى بمصر وصادها ورأها . أما الميم ففي هذا النسيم ، وأما الصاد ففي هذا الصبا . وأما الراء ففي أرضها وأخبارها . يضاف إلى ذلك تكرار لفظ مصر مرتين في بيتين متتالين .

تغيرت الأحوال أكثر من ذى قبل ، وساءت أيامه ولياليه . وكان زهد الأفضل شؤماً عليه ، بينما كان المشيب قد لوح عارضيه . وكان الشوق لمصره يتأجج في صدره . ومع كل ذلك فلم يهجر نهائياً عرين سيده الراحل أبي الفداء حتى تغيرت الأحوال وانقرض ملك الأيوبيين من حماة القاهرة .

### عزل الأفضل وموته

يفلح خصوم الأفضل . ويوقعون بينه وبين نائب الشام بعد أن تغيرت سيرته . أشار ابن الوردي إلى ذلك في تاريخه قائلاً : « تغيرت سيرة الأفضل وما كان فيه من التزهّد قبل عزله »<sup>(١)</sup> ، وذكر المؤرخ المذكور قصة حبسه ابن قرناص وقطع أشجار بستانه بعد ذلك وذكر أنه لم يفلح بعد ذلك .

عزل الأشرف كجك الملك الأفضل عن ملكه في حماة ونقله إلى دمشق أميراً ، وأناب مكانه أحد مماليك أبيه « طقزدمتر »<sup>(٢)</sup> ، وزال بذلك ملك الأيوبيين عن مملكة حماة وعادت كغيرها من بلاد الشام نيابة .

لم يتخلّ الشاعر عن ملكه الزاهد المعزول ، ذلك أن ماضيه مرتبط ارتباطاً أدبياً بهذا الإرث الأيوبي الباقي بعد زوال مملكة حماة وعودتها نيابة كسائر عواصم الشام . وإنما كان يتوجه إليه وهو في منفاه في دمشق مادحاً ، ويدعو نظماً المحامد أن ييمّموا مقامه ومغناه :

أَقُولُ لِنَظَامِ المَحَامِدِ يَمُمُوا مَقَامَ ابنِ شَادٍ فِي دِمَشقَ وَمَغْنَاهُ  
مَعَالِي المَقَامِ الأَفْضَلِي مَقِيمَةٌ وَأَمْداحُهُ سَيَارَةٌ وَعَطَايَاهُ

( ١ ) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣ .

( ٢ ) الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٣٨ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٣ .

لَسُنْ نَزَلَتْ عَنْ بِلْدَةٍ يَدُ مَلِكِهِ      فَمَا نَزَلَتْ مِنْ بِلْدَةِ الْأَفْقِ عَلَيْهِ (١)  
وقد رثى ابن نباتة آخر الملوك الأيوبيين في حماة بقصيدة هي - في الحقيقة -  
رثاء للأيوبيين عامة منها إلى رثاء الملك الأفضل :

حَيًّا الْمُزْنَ أَسْعَدَنِي عَلَى فَقْدِ سَادَةٍ      بَدَمَعٍ كَجِدْوَاهِمُ عَلَى النَّاسِ طَافِحِ  
أَبْعَدَ بَنِي شَادٍ وَقَدْ سَكَنُوا الثَّرَى      قَرِيضٌ لَشَادٍ أَوْ سُرُورٌ لِفَارِحِ  
أَبْعَدَ مَلُوكِ الْعِلْمِ وَالْبَأْسِ وَالنَّدَى      تُشِبُّ الْعُلَانَارَ الْقِرَى وَالْقِرَائِحِ  
تَلَا فَقْدَ إِسْمَاعِيلَ فَقْدُ مُحَمَّدٍ      فَيَا لِلْأَسَى مِنْ فَادِحٍ بَعْدَ فَادِحِ  
وَزَالَا فَمَا إِنْسَانُ عَيْنِي (٢) بِمَمْسِكِ      بَكَاءٍ وَلَا إِنْسَانُ قَوْلِ بَكَادِحِ (٣)  
كَأَنَّ لَمْ يَقْمُ بِالْمَكْرَمَاتِ مَطْوُوقٌ      لَدَى الْبَابِ يَشْدُو بِالْثَنَاءِ شِدْوَصَادِحِ  
ولا ينسى الشاعر تصوير النعش العائد ، ولعله كان في هذه الفترة  
بحماة :

بروحى دياراً الفضلِ صَوَّحَ رَوْضُهَا (٤)      كَأَنَّ لَمْ يُجِبْ فِيهَا الْمَنَى صَوَّحِ  
بروحى غريبُ الدارِ والنَّعْشُ عَائِدٌ      إِلَى أَرْضِهِ الثَّكْلَى غَرِيبَ النَّوَائِحِ  
بروحى نَظِيرُ الْغَصْنِ فِي دَوْحَةِ الْعُلَا      رَمَاهُ فَأَوْدَاهُ الزَّمَانُ بَبَارِحِ (٥)

ولعل الشاعر وهو يصور لنا النعش العائد يتذكر قصته ، وقد فصلها لنا ابن الوردي فذكر أنهم لما مرضت زوج الأفضل وهو في دمشق وأشرفت على الهلاك ، عمل لها تابوتاً لحملها به إلى حماة ودفنها عند أقاربها . لكن المنية عاجلتها ، فماتت هي في النهار نفسه حزناً عليه ، فوضعت أمه في التابوت نفسه الذي عمله لها ، وتوجهت به إلى حماة ، ودفنته هناك في تربة أبيه .

(١) الديوان ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

(٢) إنسان العين : سوادها ناظرها ، وإنسان السيف والهمم : حدما .

(٣) كدح الجلد : خنثه .

(٤) صوح الروض : تم يسه ويجفاه .

(٥) الديوان ص ٩٩ .

وأشار الشاعر في معرض تورياته إلى هذه القصة الطريفة فأنشد قائلاً :  
 تغرّب عن مغنى حماةً مليكها وأودى به من بعد ذلك معاته  
 وما مات حتى مات بعض نسائه بهم وكادت أن تموت حماته<sup>(١)</sup>  
 هكذا زال آخر ملك باق للأيوبيين في عهد حكم سلاطين المماليك ،  
 وقد نقل جثمان الملك المغزول إلى حماة ، فخرج طقزدمر لاستقبال المليك  
 الراحل ، وحلف بعد أن شيعه أنه ما تولى الملك بعده إلا رجاء أن يرده إلى  
 الأفضل فيما بعد مكافأة لإحسان أبيه المؤيد أبي القداء<sup>(٢)</sup> .

## ٣

## مع الوزير أمين الدين القبلى

تبدأ صلة ابن نباتة بالوزير أمين الدين عبد الله عندما ولى نظر الدواوين  
 بدمشق بعد عام واحد<sup>(٣)</sup> من ملك الأفضل بحماة ، ونعتقد أن هذه العلاقة  
 توطدت بعد أن ترهّد الأفضل ، وساءت العلاقة بينهما ، ولعل الوزير الأمينى  
 هو الذى أشار إليه ابن نباتة فى إحدى مدحه بأنه دعاه للنوال عينه الذى  
 يجره عليه الأفضل جرياً على سنة أبيه .

تقرر فى هذا المجال أن العلاقة ازدادت متانة بين الوزير والشاعر :  
 وأنها كانت أوثق من علاقته بالأفضل وأجلى عليه نفعاً . ترك الشاعر حماة  
 كما ذكرنا ، والتحق بالوزير الذى كان يصحبه معه فى حله وترحاله . ولقد

(١) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٣ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٨ والديوان

ص ٨١ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٣٣ ، والدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٨٨ .

(٣) أمين الدين عبد الله بن تاج الرئاسة القبلى الوزير ابن أخت السيد الشاعر . أسلم على  
 يد بيبرس الجاشنكير ، وتولى الوزارة ثلاث مرات فى القاهرة ، وطلب بعد ذلك إعفاه ، لكنه  
 ما لبث أن تولى نظر الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣ هـ ، وقد مات خنقاً بعد نكبة تنكر سنة ٧٤١ هـ .

الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٩ .

بلغت المحبة بينهما درجة كبيرة ، حتى إنه يروى لنا أن الوزير حزن كثيراً حينما سمع بموت ابنه عبد الرحيم ، وأراد أن يخفف عنه لوعة حزنه ، فاقترح عليه أن يصحبه للقدس الشريف ، وقد صحبه فعلاً ، فوصف لنا خلال هذه الرحلة شدة حزنه على فلذة كبسه ، وذكر أن للوزير فضلاً كبيراً عليه لتخفيف آلامه .

أورد ابن حجة هذه الرسالة في كتابه « ثمرات الأوراق » وذكر لنا أن اسمها « حظيرة الأنس إلى حضرة القدس » وقد سجل لنا في هذه الرحلة الوزيرية زمنها ، فذكر أنها كانت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وتحدث لنا فيها بالتفصيل عن كل ما يراه المسافرين دمشق والقدس . ويهنا من هذه الرسالة ما يصور بلقة حياته في هذه الفترة ، فتمتطف لبيان ذلك بعض المقاطع من هذه الرسالة الهامة : « فلما عزم بدمشق المحروسة على زيارة القدس الشريف أطلع رأيي الشريف على ما في خاطره ، وأمرني بالمسير في ظل ركابه ، فسرت على الحقيقة سائري ، وكاشف ولاينكر الكشف لمن كثرت زواياه في البلاد ، ونظر لحالي ولاينكر النظر في الأحوال لسيد الوزراء والزهاد ، وكان له في استصحابي مقصد ، تقبل الله عمله الصالح ومتجره الرابع ، وذلك أتى كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي ، مقيماً بين المقابر إقامة تفت حبة قلبي على قطعة كبدي ، ساقياً روض الحزن بغمام الحفون ، باكياً على دينار وجه عاجلته الأيام بصروف المنون . أطلب قلبي في التراب وأنشده ، وأطرح صوت الصدى نيشلني وأنشده :

يا لهف قلبي على عبد الرحيم ويا شوقى إليه ويا شجوى ويا دائى  
في شهر كانون وافاه الحمام لقد أحرقته بالنار يا كائون<sup>(١)</sup> أحشائي<sup>(٢)</sup>

توطدت الصداقة بين الوزير والشاعر بعد هذه الرحلة القدسية ، وأعله كان يرجو أن يكون كعبة شعره المقصودة بعد أن افتقد الملك المؤيد ، ويشس من

(١) الكائون : هو المصطلح ، وقد روى الشاعر هذه الكلمة .

(٢) الديوان ص ١٨ ، وثمرات الأوراق ص ١٣٩ .

جدوى ابنه الأفضل . ولم تمض فترة حتى قرره الوزير الأمينى أن يكون كل سنة ناظر القمامة بالقدس أيام زيارة النصارى . فكان يتوجه إليها ، ويأشر عمله . ويعود بعدها إلى دمشق<sup>(١)</sup> . يتحدث الشاعر عن هذه الوظيفة ، وقد قامت بسببها قيامة قوم ولانفارقة روحه المصرية المرححة ، وهو يصف لنا مشاهد القدس :

مشاهد القُدس حيا      حِمَاك صوبُ الغمامة  
حتى أرائى من مص      رِقدفتحتُ «قمامة»<sup>(٢)</sup>  
قامتُ قيامةُ قومٍ      رأوا لقدرى علامة  
وظيفةٌ قبلَ ما ذى ؟      فقلتُ قولَ السلامة :  
«قيامةُ»<sup>(٣)</sup> عندَ قومٍ      وعندَ قومٍ قيامةُ<sup>(٤)</sup>

بأشر الشاعر عمله . فكان يتردد كل عام إلى القدس ، ليجمع متحصل كنيسة القيامة من زوارها النصارى . وكان الوزير الأمينى يبعث إليه أضحية . وهو هناك بمناسبة عيد الأضحى أو غيره :

أمولانا الوزيرَ، تهنَّ عيداً      سعيداً وابقِ ذا عزِّ وعزمِ

(١) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤ .

(٢) قمامة : ذكر ياقوت أنها أحسن كنيشة بالبيت المقدس (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٦) ، وذكر صاحب القاموس المحيط أن قمامة امرأة نصرانية بنت ديراً بالقدس فسمى باسمها ، والمعروف أن اسمها هو هيلانة وهي أم قسطنطين الملك ، وأهل صاحب تاج العروس شارح القاموس المحيط أدرك هذا التناقض في ذكر بانية كنيشة القيامة فقال : « والصحيح أنه سمي باسم مايلق من قمامة البيت ، وذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما فتح بيت المقدس رأى المسجد الأقصى مهجوراً فأمر بكنسه وتنظيفه وإخراج قمامته وطرحها في هذا الدير فسمى به لذلك . . . . وقد رأيت هذا الدير الذى يبيت المقدس ، وقد يعظمه النصارى على اختلاف ملههم كثيراً ما عدا طائفة الإفرنج » (تاج العروس ج ٩ ص ٣٣) .

(٣) القيامة : يوم النشور ! إذ يقوم فيه الخلق بين يدي الحى القيوم ، قيل أصله مصدر قام الخلق من قبورهم قيامة ، وقيل هو تعريب (قيمته) وهو في السريانية بهذا المعنى ، ويوم القيامة هو يوم الجمعة ومنه قول كعب : « أتكلم رجلاً يوم القيامة ؟ » .

(٤) الديوان ص ٤٧٢ .

ولا زالت هباتك بالضحايا وبالأشغال قائمةً يرسمي  
تبلغني «قمامة» كل يومٍ وتجعل في بيتي «بيت لحم»<sup>(١)</sup>

ظن الشاعر أن الدهر قد أمّنه من جديد ، فشرع ينظم فيه المدائح ،  
وهاهي ذى أولى مِدَحِهِ ، فلنسمعه يتحدث عن صاحب الوزير :

وزيرُ له في طالبِ الفضلِ راحةٌ ولكنّها قد أتعبتها الفواضلُ<sup>(٢)</sup>  
لقد قامَ عبدُ الله يدعو إلى الندى فأهوتُ شعوبٌ للرجا وقبائلُ  
نردّدَ في أفقِ الوزارةِ شخصُهُ كما رددتُ شهبَ السماءِ المنازلُ  
سلوا عنه مصرًا والشامَ ففيهما شواهدُ من آثارِهِ ودلائلُ  
ألم يُرِضِ أرضَ الواديينِ بحُفْلٍ<sup>(٣)</sup> من السحبِ إلّا أنهم أناملُ  
كلا واديينها عاشقٌ لنزوله على أنه في بلدةِ الأفقِ نازلُ<sup>(٤)</sup>

تعبّر هذه الأبيات خير تعبير عن الوحدة بين الواديين مصر والشام ،  
لا يفرق بينهما ، وهما يستقيان بحفّلت من السحب ، تهطل بالخير العميم عليهما ،  
وتجمر أذيالها على غيرهما من الأقطار العربية الأخرى . لقد كان ابن نباتة رسولاً  
من رسلها ، فهو لا يترك مناسبة دون أن يشيد بها أو يشير إليها في معرض مدحه  
أعيان الناس في مصر والشام .

لم يطل عهد الشاعر بالصاحب الأمين ، إذ يقبض على نائب الشام تنكز ،  
ويختق في الإسكندرية بأمر السلطان الناصر محمد ، وعوقب أمين  
الملك عبد الله ، واستصفي ماله ، وأمسك هو وولده تاج الدين ناظر الدولة .  
وكرّم الدين مستوفى الصحبة ، وبسط عليهم العذاب فماتوا جميعاً خنقاً<sup>(٥)</sup> .

(١) الديوان ص ٤٦٥ .

(٢) الفواضل : جمع الفاضلة ، وهي الهبة والنعمة .

(٣) حفّلت : جمع حافل . يقال : ضرع حافل أي ممتلئ لبناً ، وحفّلت السماء اشتدت

مطرها .

(٤) الديوان ص ٣٩٦ .

(٥) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٩ .

لم نعر على رثاء الشاعر لمصاحبه الوزير الأمينى عبد الله ، ولعل الخوف منعه من بكائه بعد موته ، ونظن أنه عزل عن هذه الوظيفة التى لم تكن تعجب كثيراً صاحبها ، ولكنها خير له من الفقر .

## ٤

## مع محيى الدين بن فضل الله

لم يكن محيى الدين<sup>(١)</sup> أول هذه الأسرة العدوية العمرية التى مدحها الشاعر . وسبق لنا أن ذكرنا علاقته وهو بمصر بأخويه بدر الدين وشرف الدين . ولقد تعلمنا الوقوف عند هذا الرئيس الكبير الذى كتب السر بالشام أولاً ، وبالديار المصرية ثانياً خلفاً لعلاء الدين بن الأثير لأنه كان والد الأخوين المشهورين شهاب الدين بن فضل الله كاتب السر بدمشق ، وعلاء الدين بن فضل الله كاتب السر بالقاهرة خلفاً لأبيه . وهما أشهر المملوحين الذين عرفهم فى أحلك مراحل حياته ، وكانا له خير عون ونصير فى مصر والشام .

قضى محيى الدين الشطر الأعظم من حياته متقلداً فى كتابة السر بين دمشق والقاهرة . وقد استدعاه الناصر محمد أخيراً بعد أن فليج ابن الأثير ، فتاب منابه ، وقد عظمت منزلته لدى السلطان ، فأمر أن يكتب له توقيع يستمر بموجبه هو وأولاده على صحابة ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية كلها ، وأن يكون جميع المباشرين لها نوابه .

(١) محيى الدين أبو المعالى محيى بن فضل الدين عمر العموى . ولد بالكرك سنة ٦٤٥ هـ ، وكتب الإنشاء بدمشق سنة ٦٦٦ هـ . واستحضره المنصور لاجين لما ضعف أخوه شرف الدين سنة ٦٩٧ هـ وعاد بعدها لدمشق . عطل من العمل عند ما نقل أخوه شرف الدين من القاهرة إلى كتابة السر بدمشق بعد أن تولى مكانه علاء الدين ابن الأثير إلى أن أفرج عنه ، فاستدعى إلى القاهرة سنة ٧٢٩ هـ وعظمت منزلته لدى الناصر محمد ، فبقى فى منصبه حتى وفاته سنة ٧٣٨ هـ ، وكان عوناً له بعد أن أظمن فى السن ابنه شرف الدين وعلاء الدين . الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤٤ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٣ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٧٥ ، وحسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٢ ، وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٩٠ .

عرف ابن نباتة حتماً مملوحه محي الدين هذا خلال عهد أبي الفداء، لكننا لم نعر له على مدائح قيلت فيه آنذاك ، ولعل الشاعر كان في أوج مجده ، ورأى أن يقصر ملحه على ملكه المؤيد وإخوانه الذين يتجهون إليه بأفئدتهم بعد أن أصبح شاعر المشرق بلا منازع . لكن مجده بدأ يأفل بعد موت مؤيده ، وعاد يشكو في شعره خلال هذه المرحلة في عهد ابنه الأفضل الذي هجره وجفاه ، فانبرى بملح من يعرف ومن لايعرف ليحصل على قوته الزهيد . ولعل محي الدين كان أحد هؤلاء المملوحين الذين ملحهم دون أن يلقاهم ، وذلك أن يبحث قصائده لم ، ويتنظر منهم الإثابة على ذلك ، أو ينتهز فرصة حضورهم إلى دمشق ، فيذهب إليهم ، ويقدم لهم هذه المدائح . عثرنا على قصيدتين في الديوان قالهما ابن نباتة فيه ، وقد ثبت لنا أنهما تجاران بالشكوى المريرة ، وهي صفة غالبية على قصائده في هذه المرحلة الأفضلية . يضاف إلى ذلك إشارته إلى الملك والسلطان ، وقد طبعت بعض معاني هذه القصيدة بطابع مصر والنيل ، إذ يؤكد لنا هذا الأمر أن الشاعر قال هاتين القصيدتين عندما كان محي الدين كاتب سر السلطان في القاهرة خلال المرحلة المذكورة التي نتحدث فيها عن علاقة الشاعر بأعيان عصره .

أما القصيدة الأولى فقد وصف فيها شبيهه . وهذا دلالة أخرى على أنه قالها في هذه المرحلة التي كثر فيها حديثه عن شبيهه :

أأعشقها والخذُّ يشبهُ خدَّها      أأعشقها والشيبُ ملتئمُ اللمعِ ؟

وفيها يقول :

وقائلة ما بالُ عزمك صابراً      على القدحِ في الدنيا على أثرِ القدحِ  
فقلتُ رأيتُ السمَّ أقومَ ما ترى      إذا صُبرتْ عند النفاقِ من اللعجِ  
فقلتُ : دعِ التقليلَ عنك وقمَّ إلى      نوافجِ<sup>(١)</sup> فضلِ الله في زمنِ الفرحِ

(١) نوافج : جمع نافجة ، وهي سحابة كثيرة المطر ، ويقال للإبل التي يرثها الرجل فتكثر بها إبله نافجة ، وكانت العرب تقول في الجاهلية للرجل إذا ولدت له بنت : « هنيئاً لك النافجة » أي المظنة لملك .

وبادز لمحبي الدين تلق شمانلاً مُدْرَبَةً لم تدرِ ماهيئةُ الشَّحِّ<sup>(١)</sup>  
تنطق هذه الأبيات بالشكوى . وهذا دليل آخر أيضاً على أنها قيلت  
في المرحلة المذكورة ، يضاف إليها حديثه عن الملوك :

وكم جَرَّبْتُ مِنْكَ الْمُلُوكَ مِيامناً<sup>(٢)</sup> ونصحاً على فقدِ الميامين والنصح<sup>(٣)</sup>  
وأما القصيدة الثانية فهي أنطق بالشكوى وأكثر دلالة على أنها قيلت  
والممدوح في مصر :

حامى حِمَى الْمَلِكِ وَالْأَقْلَامُ مُشْرَعَةٌ      على المنى والمنايا حولَ واديه  
لو أَلْقَيْتُ كَعَصَا مُوسَى عَلَى حَجَرٍ      تفجّر الماء من أقصى نواحيه  
جاءتْ بِيحْيَى مَعَالِيهِ مَبْشُرَةٌ      فَصَدَّقَتْ يَدُهُ بُشْرَى مَعَالِيهِ  
ذَاكَ الَّذِي يَسْتَمِدُّ النِّيلُ أَنْعَمَهُ      فما الأصابعُ إلّا من أياديه  
حَوَتْ كِنَانَةً سَهْمًا مِنْ بَرَاعَتِهِ      لا تعرفُ اليُمْنُ إلّا حينَ تحويه<sup>(٤)</sup>

يتحدث الشاعر عن محبي الدين ، ويصفه لنا أنه حامى حمى ملكه بأقلامه  
المشرعة التي تبعث الخوف والرجاء ، ولو ألقى على صحرة لتفجر الماء من أقصى  
نواحيها . ثم يتحدث عن المعالي التي جاءت بيحيى ، وكيف أن كرمه كان  
مصدقا لما بشرت به ، ويصف لنا كثرة عطائه وأن النيل يستمد منه الجود ،  
وما زيادة النيل أمام عطائه إلا أصابع معدودات من يده التي تفيض بالأيدى  
والنعم والبركات . وينتقل بعد هذا الوصف ليحدثنا عن سوء حاله ، ويعرض  
له من خلال ذلك ما يصبو إليه من وظيفة في الديوان أو التوقيع :

إِنْ لَمْ تُرَاعِ بِرَأْيٍ مِنْكَ مَقْصَدَهُ .      يا بن السُّرَاةِ فقلْ لى : مَنْ تُرَاعِيهِ ؟  
فِي نَظَرَةٍ مِنْكَ تَأْمِيلِي وَمَفْتَرَجِي      ولفظةٍ مِنْكَ تَنْوِيلِي وَتَنْوِيهِ  
أَقُولُ وَالدمْعُ قَدْ سَارَتْ رِكَائِبُهُ      إلى حِمَاكَ وَقَدْ طَاثَ أَمَانِيهِ :

(١) الديوان ص ١٠١ .

(٢) ميامن : جمع ميمنة ، وهي اليمن ، وقوله تعالى : « أولئك أصحاب الميمنة » أى أصحاب  
اليمن على أنفسهم .

(٣) الديوان ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(٤) الديوان ص ١٠٢ .

هذا نُباتي لفظ. يَشْتَكِي عطشاً لعلَّ أفقَكَ بالأنواء يسقيه  
نعم وهذا مقالٌ دائرٌ فعمى يا من له قلمُ الإنشاءِ تُنْشِيهِ<sup>(١)</sup>

إنه بحق بحاجة إلى وظيفة لسوء حاله . ولأن شعره النباتي أخذ يذبل بعد أن امتنعت أنواء أبي الفداء عن الانسكاب والتهاطل . ولا يلبث بعد ذلك أن يدعو ممدوحه دعوة ضارِع ، لأن نظرة منه وكلمة من لسانه تنيله ما يشاء ، وفي البدء كانت الكلمة .

### المرحلة الخامسة

٥٧٤٣ - ٥٧٦١

١

### في ديوان التوقيع

لو صح أن ندعو كل مرحلة بما عرف فيها من أحداث أو ما عرض للشاعر من أمور لصح أن نسمي هذه المرحلة باسم مرحلة التوقيع . لقد سعى لينالها لكن سعيه باء بادي الأمر بالإخفاق : حتى قبض الله له أحد أعيان عصره . وهو شهاب الدين بن فضل الله . فأسعفه ، وأدخله الديوان ليكتب التوقيع الذي حلم به منذ أمد طويل . يؤيد قولي هذا ما ذكره الصفدي : « وكان القاضي شهاب الدين بن فضل الله قد دخل به إلى الديوان بدمشق في أوائل سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وكان قد أقام مدة ، يتردد على الديوان ، ويكتب . ولم يكتب له توقيع ، فكان يتقاضى القاضي شهاب الدين في ذلك كل قليل بمقاطع مطبوعة ، وأبيات منها المحاسن مجموعة . من ذلك قوله : وكتبته توقيعاً هذه نسخته : رسم بالأمر العالی لا زال يزيد البلغاء جمالاً : ويفيد الفصحاء باختياره كفواً ينجل القمر كمالاً ، أن يرتب المجلس السامى القضائى الجمالى فى كذا إنجازاً لوعده استحقاقه الذى أوجب له الصون والصلوة ، وإبرازاً لما فى ضمير الزمان له من أن يرى له فى الجوة جولة ، وإيجازاً لما أسهب نوهجه فى

الحرمان والحنو الشهابي يرفرف حوله . وإحرازاً لأدبه الذي ما طلى بقلمه فم ديوان . ولا حلى بكلمه جيد دولة . لأنه الفاضل الذي يروض الطروس . ويصيب بسهام أقلامه الأغراض على أنها ما تنفذ في القرباس . ويترجل البرق لارتجاله الذي يقول المترى : ما في وقوفك ساعة من باس ، ويهز الأعطاف بإنشائه الذي كأنه زمن الصبا . والدهر سمح ، والحبيب موات . ويبطر الأفهام عمام كلامه الحلو فيتحقق الناس أنه القطر النباني ، ويذكر الزمن الفاضل بأدابه التي أظلمت على ابن سناء الملك . وما عاش له ابن ممتى ، فليباشر ذلك مباشرة تصدق الأمل في فضائله . وتحقق الظن في كماله الذي تنزه الطرف في خمائل خمائله . ويشهد أواخر أدبه لقديم بيته وأوائله . ولينمق الطروس بسطوره ، فإن حروفه آتت من تخارج العذار . ومداده أليق من خيلان ليل في حدود نهار . وألفاظه تروق لفظاً كما تروق الثغور العذاب عند التيسم والافتقار ، ومعانيه يشف نورها كما شف بلجين الكأس عن ذهب العقار . فقد صادفت سحائب كلمه رواي يزكو غراس نباتها . ومواقع إنشائه أكباداً تتلظى ظمأ إلى برد فطرتها ، وجياد بلاغته مضماراً لا يضيق مداه عن فسيح من تعاليق ما رآها الجاحظ في حيوانه . وكم له من جملة دواوين . ولكنه جمال ديوانه . وليكنم ما يكتب في قلبه . ويدفن ميت الأسرار في ضريح جانحته إلى لقاء ربه . فإنها صناعة الكتمان رأس ماخا . والترفع والانجماع عن الناس سر جمالها . والوصايا كثيرة . وتقوى الله تعالى ملاك ما يؤمر به . وتناط الوصايا الحسان بسببه . فلينسج منها على خير منوال . وليجر فيها على خير أسلوب . فإن من عدمها ماله من نوال . والخط الكريم أعلاه حجة بمقتضاه إن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup> .

أوردت هذا التوقيع النباني النادر بنصه الكامل لنطلع على أسلوبه . ونوضح من خلاله أمر دخوله ديوان التوقيع بلدمشق بمساعدة صديقه شهاب الدين رئيس ديوان الإنشاء . يفهم من هذا النص أن ابن نباتة واطب على الديوان ، وكتب فيه التوقيع دون أن يصدر مرسوم بتعيينه ، ولقد تعذر إيصال معلومه التزر إليه ، فأنشده صاحبه الصفلى ، وكان كثيراً ما يجتمع إليه

(١) الوافي بالوفيات ص ٣٢٧ .

ويجلس معه عند شباك الكاملية في الجامع الأموى :

كُنَّا مِنَ الشَّعْرِ قَدْ هَرَبْنَا لِرَبِّهِ تَقْتَضِي الإِعَادَةَ  
فَمَا دَخَلْنَا فِي بَابِ جَاهٍ وَلَا خَرَجْنَا عَنِ الشَّحَادَةِ<sup>(١)</sup>

يفهم من النص السابق أيضاً أنه أرسل بصورة هذا التوقيع إلى شهاب الدين كى يوقعه له ، فقم له ما أراد ، وصدور قرار تعيينه سنة ٥٧٤٣ هـ .

عزل شهاب الدين عن رياسة ديوان الإنشاء بأخيه بدر الدين الذى حل محله . أما ابن نباتة فقد استمر في عمله بعد عزل صديقه ، لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى عزل مثله بعد سنتين ، وقد أشار المقريزى في سلوكه ، فذكر أنه « كتب - في شهر رمضان سنة ٧٤٥ هـ - بنقل ناصر الدين محمد من طرابلس إلى دمشق . واستقراره في وظيفة الشد رقيقاً لابن مراحل : وضبطا الجهات ضبطاً كبيراً ، وقطعا من موقعى دمشق نحو العشرين . قد استجدوا . منهم ابن الزملكاني ، وابن غانم ، وابن الشهاب محمود وأولاده . وجمال الدين بن نباتة المصرى »<sup>(٢)</sup> .

يؤكد لنا أيضاً صرفه عن التوقيع في ديوان الإنشاء في دمشق قول الشاعر نفسه في إحدى مقطعاته :

أَيَا بِنَ نَبَاتَةَ جَارَ الزَّمَانُ وَزَلَّتْ وَزَالَتْ قَوَى هَمَّتِكَ  
وَقَدْ كُنْتَ ذَا خِدْمَةٍ وَانْقَضَتْ فَلَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْ خِدْمَتِكَ<sup>(٣)</sup>

يظهر أن جمال الدين عاد للتوقيع ثانية بعد عزله . وقد تأكد لى ذلك من خلال نص عثرت عليه في تاريخ ابن الوردي عند حديثه عن السلطان أبى الحسن المريني صاحب المغرب الذى كتب بخط يده ثلاثة مصاحف . ووقفها على الحرميين الشريفين وعلى حرم القلوس . وجهد معها عشرة آلاف . واشترى بها أملاكاً بالشام ، ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة سنة ٧٤٨ هـ .

(١) الواقى بالوفيات ص ٣٢٧ . (٢) السلوك ج ٢ ص ٦٧١ .

(٣) الديوان ص ٨٠ .

يذكر ابن الوردي مانصه : « ووقفت على نسخة التوقيع بمساحة الأوقاف المذكورة بمؤن وكلف وأحكار أنشأه صاحبنا الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى أحد الموقعين الآن بدمشق » (١) .

وقد افتتح هذا التوقيع بقوله : « الحمد لله الذى أرفه العزائم بالموحدين غرباً ، وأطلعهم بهمهم حتى فى مطالع الغرب شهباً ، وعرف بين قلوب المؤمنين حتى كان البعد قريباً ، وكان القلبان قلباً ، وأيد بولائه هذا البيت الناصرى ملوك الأرض وعبيد الحق مسلماً وحرباً ، وعضد ببقائه كل ملك إذا نزل البر أنبته يوم الكفاح أسلا ويوم السماح عشباً ، وإذا ركب البحر لنهب الأعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وإذا بعث هداياه المتنوعة كانت عرباً تصبج عرباً ، ورياضاً تسحب سحباً ، وإذا وقف أوقاف البر سمعت الآفاق من خط يده قرآناً عجباً ، واهتزت بذكره عجباً .

ومنها : وذو الولاء قريب وإن نأت داره ، ودان بالحبّة وإن شطّ شط بجره ومزاره ، وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنته قبل أن ترى ، موصوف كوصف المشاهد وإن حالت عن الاكتمال بطلعته أميال السرى ، ولما كان السلطان أبو الحسن ، سر الله ببقائه الإسلام والمسلمين ، وسره بما كتب من اسمه فى أصحاب اليمين ، وما أدراك ما أصحاب اليمين ، هو الذى مدّ اليمين بالسيف والقلم ، فكتب فى أصحابها ، وسطر الختمات الشريفة فنصر الله حزبه بما سطر من أحزابها ، ومدّ الرمال أرشية ، فاشتقت من قلوب الأعداء قليلاً والأقلام أروية ، فشفت ضعف البصائر ، وحسبك بالذكر الحكيم طبيياً .

ومنها : ثم وصلت ختمات شريفة ، كتبها بقلمه المجيد المجدى ، وخط سطورها بالعربى ، وطالما خط فى صفوف الأعداء بالهندي .

ومنها : وأمر بترتيب خزنة وقراء على مطالع أفقها ، ووقف أوقافها تجرى أقلام الحسنات فى إطلاقها وطلقها ، وحبس أملاكاً شامية ، تحدث بنعم الأملاك التى سرت من مغرب الشمس إلى مشرقها ، ورغب فى المساحة على

تلك الأملاك من أحكار ومثونات وأوضاع ديوانية ، وضع بها خط المساحة في ديوان الحسنات المسطرات ، فأجيب على البعد داعيه ، وقوبل بالإسعاف والإسعاد وقفه ومساغيه .

وختم التوقيع بقوله : والله تعالى يتمع من وقف هذه الجهات بما سطر له في أكرم الصحائف . وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف « (١) »

أوردت من هذا التوقيع ما اختاره ابن الوردي . وحبذا لو أوردته كاملاً ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، ولعلنا عرفنا طريقة ابن نباتة في التوقيع ، وأدركنا مدى تمكنه من الأساليب الديوانية . وبدلنا هذا على أنه كان قطباً من أقطاب التوقيع . ولاسيما أنه عرف بطريقته الرمزية في كتابة النثر التي هي في الحقيقة تطور جديد للنثر الفنى العربى نحو التصنع والتصنيع .

لكننا نحب أن نشير إلى من كان سعى لإعادته إلى ديوان التوقيع بعد أن فصل عنه منذ ثلاث سنوات أو تزيد . نعتقد أن الذى سعى له في هذه الفترة بعد عزله هو كاتب السر علاء الدين بن فضل الله أخو شهاب الدين ، وهذه الأسرة إلفه القديم منذ عهد بدر الدين إلى أبيهما محبى الدين . ولا بأس أن نورد الدليل على ما نذهب والبيئة على ما ندعى ، ويتجلى لنا هذا في إحدى قصائده التي مدح بها علاء الدين حينما زار بلاد الشام بعد سنين الجذب :

أتيت الشام بعد سنين جذب فكأن العام حين أغشت عامة  
وعُدت عزيز مصر وكل مصر سعيدياً في الترحل والإقامة  
وقالوا : سار قلبك يوم سارت ركائبه فقلت : مع السلامة  
ففي دار البوار<sup>(٢)</sup> الآن شخصى وقلبي الآن في دار المقامة  
إليك أبا الخلائف من قريش سؤال سامه أملى وحامة

(١) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) البوار هو الهلاك ، دار البوار أى دار الهلاك ، وأحلوا دار البوار .

أذكرُ جودَكَ الوعدَ المسبديَّ      وقد أخذتُ من سغبي ضرامه  
 جعلتَ الجمَمَ مني «بيتَ لحمٍ»      وزدتَ وظائفِي أيضًا «قمامه»  
 وما أدري أتوقِعي بمصرٍ      وإلاَّ بالشَّامِ فلنَ أسامه  
 إلى التوقيعِ قد طربَ استماعِي      وحارَ دقيقُ فكري في العلامة<sup>(١)</sup>

تكاد تنطق هذه الأبيات بمطاليب الشاعر من صديقه علاء الدين أقرب شخص للسلطان . وسيصبح هذا الممدوح الجديديد كعبة الشاعر في أيامه الأخيرة عندما ينتقل إلى مصر . والجدير بالذكر هنا أن علاء الدين أقره على وظيفته الأولى في قمامة ، وهي عمل خاص يقوم به كل عام بالإضافة إلى عمله الرسمي في التوقيع . بدعشق . يصرح الشاعر هنا بأنه يطرب لهذه الوظيفة وأنه يتمناها لو كانت في مصر ولكن إن تعذر الأمر فلن يرفضها ههنا في دمشق وتم له ما راد .

لكن هذه الوظيفة لن تكفي حاجته ، لأننا نراه يسكن في بيت كثرت فيه النمل ، وقد أشار إلى ذلك تاج الدين العيني قائلا<sup>(٢)</sup> :

مالي أرى منزلَ المولى الأديبِ به      نملٌ يجمعُ في أرجائه زُمرا  
 فقالَ : لا تعجبين من نملِ منزلِنَا      فالنملُ من شأنها أن تتبع الشعرا

يبقى علينا بعد أن وضحنا حياته في مرحلة التوقيع أن نعرض كمعادتنا لممدوحه الذين صرف إليهم اهتمامه في هذا الوقت . وقد مدح لأول مرة في حياته بعض سلاطين المماليك ، ولعل عمله الرسمي في ديوان التوقيع يتطلب منه مجاملتهم ومدحهم ، نشير منهم إلى السلطان الكامل شعبان ، والسلطان المظفر حاجي ، والسلطان الناصر حسن .

(٢) الديوان ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٢) أميان للصر (مخطوط) ج ٣ ق ٢ ورقة ٢٦٨ .

## مع السلطان الكامل شعبان

عاصر ابن نباتة ستة عشر سلطاناً من سلاطين المماليك أولهم المنصور سيف الدين قلاوون وقد ولد في أيامه ، وآخرهم الأشرف شعبان<sup>(١)</sup> وقد وافته مئنته أيام حكمه . والغريب جداً أنه قاطع مدح السلاطين خلال المراحل الأربع الفاتئة . أما في هذه المرحلة وما بعدها فإنه لم يتعرض إلا لثلاثة منهم ، تحدث عن اثنين في هذه المرحلة ، وترك الثالث للمرحلة الأخيرة .

لأنعرف على الضبط سبب إحجامه عن مدحهم ، ولعل اضطراب الحياة السياسية في بعض الأحيان وقصر مدة حكمهم جعلته يزهّد فيهم ويصرف نظره عنهم .

قد نتساءل : ولم افتتح مدحه لهم بالكامل شعبان ؟ وجوابنا على ذلك أنه بعد أن افتقد أبا الفداء وابنه الأفضل أراد أن يجرب حظّه لدى الطبقة الحاكمة التي كانت غاضبة عليه أو كان غاضباً عليها على ما نرجح . ولعل خوفه على وظيفته في التوقيع وخشيته من العزل دفعاه لمدحهم بعد هذا الإحجام الطويل الذي استمر عشرات السنين . أشرنا خلال عرضنا للحياة السياسية إلى الكامل شعبان وذكرنا أن ابن نباتة هنا عندما لبس شعار السلطنة سنة ٥٧٤٦ فأنشد هذين البيتين :

طلعتُ سلطاننا تبدتْ بكاملِ السعدِ في الطلوعِ  
واعجبتُ لهاتيكَ كيفَ أبدتْ هلالَ شعبانَ في الربيعِ<sup>(٢)</sup>

ولقد عثرنا في الديوان على قصيدة بعث بها إلى السلطان الكامل ، وقد

(١) أبو المعالي ، زين الدين ، الأشرف شعبان بن حسين ، وقد تولّى السلطنة بين سنتي

٥٧٦٤ . و ٥٧٧٨ .

(٢) الديوان ص ٣٢٠ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٧٣ ، ١٨٢ .

ثبت لدينا أنه قالها اعترافاً بجميله . ونظن أنه يتعلق بإعادته للتوقيع في الشام بعد فصله عنه كما أسلفنا . ويقول فيها :

يابنَ الملوكِ الشائدينَ حِمَى الهدى والرافعينَ قبابهَ بعوامل<sup>(١)</sup>  
والحاصدينَ عُداتهَ بقواضب<sup>(٢)</sup> صارَتْ لَطولِ ضرابِها كمناجلِ  
أيديهمُ في الأرضِ نَبْعُ زلالِها وَمَحَطُّ. أَرجلِهمُ أمانُ زلازلِ  
مَنْ مبلغُ الأهلينَ عَنِّي أَننى في الشامِ فُزْتُ بفوقِ ظَنِّ الآيلِ  
وَأخذتُ مِنْ ريبِ الزمانِ أمانهَ وَقَبَضْتُ حقَّ مآربِ بالكاملِ  
لا جَوْرَ في دهرٍ وفيه ممدَحُ وَشَحَتْ منابتهُ بنَبْتِ العادلِ<sup>(٣)</sup>

لم يطل حكم الكامل إذ لم يبق فيه غير سنة وشهرين ونصف ، وقد خنق بأمر أخيه المظفر حاجي سنة ٧٤٧ هـ . لم نعر على قصيدة قالها في مدح خليفته الكامل . ولم يصلنا غير بيتين من الشعر يذكر ابن نباتة فيهما أنه لم يصله شيء من السلطان المذكور المظفر حاجي . وهما :

يا إمامَ الورى مضى نصفُ عامٍ لم أنلُ فيه مِنْ وصولي ربيعُ  
سنةٌ إن غفلتَ عَنِّي فيها كسرتني ، وكيفَ لا ، وهي سبعُ<sup>(٤)</sup>

أما الناصر حسن فله معه شأن آخر . ومعظم مدائحه قيلت خلال المرحلة الأخيرة من حياته . وسيكون المدوح الرئيسي الذي نفتتح به المرحلة المذكورة . وكيف لا وهو الذي فرَّج كربته . وأمر بإعادته إلى وطنه .

(١) عوامل : جمع عاملة ، وهي الرماح ، وعامل الرمح وعاملته صدره .

(٢) قواضب : جمع قاضب ، وهي السيوف القطاعة .

(٣) الديوان ص ٣٩٨ .

(٤) الديوان ص ٣١٨ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٧ .

## مع شهاب الدين بن فضل الله

لسنا حديثي عهد بمدح سروات آل فضل الله، فقد سبق لنا أن عرضنا في المرحلة الثانية لبدر الدين وشرف الدين، كما وقفنا في المرحلة الفائتة عند محيي الدين والد اثنتين من كبار ممدوحيه الذين عرفهم في حياته، وهما شهاب الدين وعلاء الدين.

أما شهاب الدين<sup>(١)</sup> فهو أول ممدوحى هذه الفترة الذين عرفهم وأخلص لهم من غير السلاطين. وهو من أعيان كتاب العصر، وقد كان أحد الذين فضلوا ترك العمل الرسمي في الديوان بمصر والشام لإيائه. روت بعض الكتب التي ترجمت له أنه قال للسلطان الناصر محمد: «خدمتك على حرام» بسبب خلاف حدث بينهما فاعتقل بمصر، ثم أطلق سراحه بمساعدة أبيه محيي الدين، وناب عنه أخوه علاء الدين. توجه شهاب الدين إلى بلاد الشام، ولم تمض إلا فترة بسيطة بعد كتابته الإنشاء فيها حتى عزل بأخيه بدر الدين الذي حل محله، فعكف بعد ذلك على التأليف وانصرف للأدب.

أسف شهاب الدين — عندما ولى كتابة الإنشاء بدمشق — لحال الشاعر ابن نباتة، فأدخله ديوان التوقيع، وقد أخلص له الشاعر في ملحه، وحفظ

(١) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن عمر العدوي. ولد سنة ٧٠٠ هـ، وكتب بديوان الإنشاء بدمشق، ولما ولى أبوه محيي الدين كتابة السر للسلطان الناصر كان يقرأ عليه البريد، وقد غضب عليه بسبب بعض الأمور، وتوسط والده بالأمر، فعين مكانه أخاه علاء الدين، وقد اعتقل ثم أفرج عنه، وياشر بعد ذلك كتابة الإنشاء في دمشق سنة ٧٤١ هـ. ولم يلبث أن عزل سنة ٧٤٣ هـ، وانصرف بعدها للتأليف. نذكر من مؤلفاته: «فواصل السر في فضائل آل عمر»، وكتابه المشهور: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وكتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»، وكتابه «الإنشاء في صنعة التوقيع» وله شعر جيد، توفي سنة ٧٤٩ هـ. الدور الكامنة ج ١ ص ٣٣٢، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٢٩، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥، وتاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٣٥٤ وبدائع الزهور ج ١ ص ١٧٥.

له خالص الود . ملح به بأكثر من خمس عشرة قصيدة ومقطوعة ، ولم يترك ملح به بعد عزله . وقد خلصت من حراسة شعره إلى القول إن صلابة عميقة قامت بينهما ، ليس أساسها العطاء كما هو الحال لدى بعض مملوحيه ، إنما كانت قائمة على حب محض مجرد من المنافع والأهواء :

عَلَّقْتُ بِجَبَلٍ مِنْ مَوَدِّهِ الَّتِي هِيَ الذَّخْرُ لَا يَبْقَى الثَّرَاءُ وَهَفْرَةٌ<sup>(١)</sup>

يقول الشاعر قوله هنا بالرغم من حاجته إلى المال في هذا الأوان ، وهذا يتقضى رأى الأقدمين القائل إنه كثير التشكى وملحف في السؤال .

أما عن ملامحه فيه فنحن أن نذكر أن الشاعر يشير إلى قلم صلابة بالبيت العلوي العمري . وقد عرضنا لمملوحيه من آل فضل الله ، وواجبنا الآن أن نوضح هنا المعنى من خلال شعره :

يا آل فضلِ اللهُ مُنْحَكُمُ      إلى القلبيمِ وشعبيكم شعبي  
أقلامكمِ للملكِ حافظة      وروالكمِ في المجدِ للنهبِ  
وصحبتُمُ ملكًا فما خُدِعت      بمناءِ خُدَعِ الآلِ بالصحبِ<sup>(٢)</sup>

فلا غرابة إن رأينا ابن نباتة يتحدث عن هذه الأسرة ، فلا يترك اسم الفاروق<sup>(٣)</sup> أي حفص<sup>(٤)</sup> عمر<sup>(٥)</sup> جدهم الأول دون أن يتفنن في التحدث عنه في كل قصيدة تقال في آل فضل الله . ويندر أن تخلو قصيدة من إشارة قريبة أو بعيدة إلى هذا النسب ، كما أنه — بالإضافة إلى ذلك — لا يترك الحديث عن آل يحيى عامة وعن المملوح خاصة . وقد كان قبل مجيئه إلى دمشق أثيراً لدى السلطان الناصر محمد . أشار ابن نباتة إلى هذه المكثاة في معرض حديثه عن قلوبه إلى بلاد الشام قائلا :

- (١) الديوان ص ٢٠٨ .
- (٢) الديوان ص ٣٤ ، ٣٥ .
- (٣) الديوان ص ٣٠٠ .
- (٤) الديوان ص ٢١١ .
- (٥) الديوان ص ١٤٣ ، ٢٢ .

قَدِمْتَ قَلْعَمَ الْغَيْثِ يَهْمِي نَوَالَهُ      وَيَعْبَقُ رِيَاهَ وَيَبِيحِمُ ثَغْرَهُ  
 وَقَبْلَكَ لَمْ تُبْصِرْ بَنُو الشَّامِ وَابِلَا      مِنَ الْغَيْثِ تُهْدِيهِ إِلَى الشَّامِ مِصْرَهُ  
 وَأَقْبَلْتَ إِقْبَالَ الْبُدُورِ حَقِيقَةً      عَلَى جَانِبِ الْأَيَّامِ أَظْلَمَ دَهْرَهُ  
 وَأَنْتَ الَّذِي فِي مِصْرَ وَالشَّامِ أَشْرَقْتَ      مَعَالِيهِ فَاسْتَوَى عَلَى النُّجْمِ قَدْرَهُ  
 لَكَ الصَّدْرُ مِنْ دِيْوَانِ تَلِكَ وَإِنَّمَا      لَصَدْرِكَ مِنْ هَذَا مَدَى الدَّهْرِ سِرُّهُ (١)

يذكر الشاعر في هذه الأبيات مكانة ممدوحه في الشام ومصر ، وكثيراً ما كان يكثر من ذكر الواديين معاً ، كما هو واضح في مواطن كثيرة من مداخله ، وقد أوضحنا ذلك أكثر من مرة ، وفيها أيضاً يصور لنا حاله حين لقيه قائلاً له :

أَنْجَلَ الْعُلَا ، قَابِلْتَنِي سَاعَةَ الْعُلَا      مِقَابِلَةً لَاقَى بِهَا الْقَلْبَ جَبْرَهُ  
 فَحَسْبُكَ مِنْ قَلْبِي صَفَاهُ وَوُدُّهُ      وَحَسْبُكَ مِنْ لَفْظِي دَعَاهُ وَشُكْرُهُ  
 وَحَسْبُكَ عَبْدٌ بِالْجَمِيلِ مَلِكْتَهُ      عَلَى أَنَّهُ مُسْتَمَجِدُ الْقَلْبِ حُرُّهُ (٢) (٣)

عرف عن شهاب الدين كرمه وإحسانه ، ولقد وفاه الشاعر حقه من الثناء ، فلم يقل في أحد مدائح ما قاله في هذا الممدوح خلال هذه الفترة التي كان فيها سيئ الحال بعد أن فقد مليكه الأفضل .

لم ينس الشاعر فضل صاحبه الذي أغاثه وأدخله ديوان التوقيع ، تلك هي أول مرة في حياته يشغل فيها منصباً هاماً ، وقد أشار إلى ذلك قائلاً :

عَطَفْتَ عَلَيَّ فِي زَمَنِ حُرُونٍ      وَجُدْتَ بَرِغْمٍ أَيَّامِ شِحَاحٍ  
 وَقَرَّبْتِي جَنَابِكَ بَعْدَ بُعْدٍ      وَنَهْنَهَ حَاسِدِي بَعْدَ الْجِمَاحِ (٤)

(١) الديوان ص ٢١١ .

(٢) الديوان ص ٢١٢ . في المثل : ه في كل شجر فار ، واستجد المرخ والغار ه استجد : استفضل ، أي استكثر من النار كأنهما أخذتا من النار ما هو حسبهما فصلحا للاقتناع بهما ، ويقال : لأنهما يصرعان الورد . فشبا بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد .

(٤) الديوان ص ١٠٤ .

(٣) الديوان ص ٢١٢ .

يظهر أن الشاعر قالها فيه بعد عزل ممدوحه عن أمانة السر بديوان الإنشاء ، وقد أشار ابن كثير إلى أن حاله كانت حسنة ، وعاش منصرفاً للتأليف في داره العظيمة التي بناها بسفح جبل قاسيون في باب الفراديس .

لم ينس شهاب الدين شاعره بالرغم من الأيام الشحاح بعد عزله ، وقد ذكر حساده الذين لم يرحموه حتى في أيام فقره . مسكين هذا الشاعر ، بلبي بكثرة الحساد والأعداء ، وهذا طبيعي يحدث لكل عظيم مثله ، ولا سيما أنه انتزع لقب شاعر الشام أولاً ، وتعدى الأمر هذه الشهرة فأصبح شاعر المشرق .  
أخلص الود له ، فتحدث عن أدبه وعلمه ، وفضله على الجاحظ وعلى القاضي الفاضل وغيرهما من كتاب العصر الذي نحن بصدده ، كما فضله أيضاً على الجاحظ :

وأغرقت ابن بحرٍ في بيانٍ أظافَ به على لُجَجِ فِيساحٍ<sup>(١)</sup>

وفضله على القاضي الفاضل في قوله :

رَأَيْتُ ابْنَ فَضْلِ اللَّهِ فَاضِلَ دهره إذا اعتُبرَتْ أَلْفاظُهُ وسعودُهُ  
إذا ابنُ علي وابنُ يحيى تساجلا فقلُّ : طارفُ المجدِ الرضى تليدهُ<sup>(٢)</sup>

هكذا بدأت العلاقة بينهما ، فأثبتت حباً متبادلاً ، لأن قرابة الآداب تقصر دونها قرابة الأنساب ، فهي أعمق جذوراً في النفس الإنسانية وأبقى على مدى الزمن . وعلى الرغم من عزل شهاب الدين ، وتوالي الأيام الشحاح ، فإن العلاقة استمرت متينة ، ولو أن شهاب الدين لم يكن يستطيع أن يغدق عليه بسخاء ، كما كان من ذى قبل .

تطورت هذه العلاقة ، وانقلبت من المدح المعروف إلى مطارحات شعرية حول فن جديد وهو فن الشتويات ( الشامية ) ، وموعدنا معها عند حديثنا عن علاقة ابن نباتة معه كأديب معاصر .

(١) الديوان ص ١٠٣ .

(٢) الديوان ص ١٤٤ .

## مع تقي الدين السبكي

نتحدث الآن عن علاقة الشاعر بآل السبكي ومدائحهم فيهم ، وقد سبق لنا أن عرضنا مدحه لأسرة آل فضل الله في مصر والشام . واليوم نعرض لهذا البيت السبكي المعروف ، ونقف عند بعض الذين انتجع مرادهم في بلاد الشام قبل أن يتوجه إلى مصر في أواخر هذه المرحلة التي نؤرخها من حياة أديبنا الكبير . أما الذين مدحهم من السبكيين فنشير منهم بصورة خاصة إلى تقي الدين وابنه تاج الدين . وسنخصصهما بالدراسة في هذه الفترة . كان تقي الدين أمير الشافعية في زمانه ، وتولى قضاء دمشق ، فقصده الشاعر ، ومدحه فور وصوله من مصر . وتبين من دراسة شعره أن حياة ابن نباتة كانت سيئة جداً في هذه الفترة . وهذا يؤيد ما أوردته من قول في مطلع حديثي عن هذه المرحلة . ويؤكد ما نذهب إليه قوله :

لاقيتهُ والحالُ أنكدُ ما أرى      فأعادني والحالُ أوفقُ ما أشأ<sup>(١)</sup>  
من بعد ما غابت بنو أيوب عن      داعٍ تحارف<sup>(٢)</sup> بعدهم وتحرفشأ<sup>(٣)</sup>  
واختلَّ ذهنًا فهو من إقتاره      لا من غناه - كما يقال - تكبشأ  
أمشى إلى القوت الزهيد وربما      أعلو فلا مدحى ولا حالى مَشى  
وأبيتُ أرعى النيرَاتِ تحالني      بالسُّرُجِ<sup>(٤)</sup> عن ماضى الكرام مُفَششأ

(١) أشأ : أى أشاء ، وذلك بقصر الممدود لضرورة شعرية .

(٢) تحارف : يقال للمحروم الذى قهر عليه رزقه محارف ، وحرف لعياله أى تكسب .

(٣) تحرفش : استخدم الشاعر فعلا مشتقاً من لفظ الحرافيش والحرافشة وهم الرعاع والادهاء ، وهذا اللفظ مولد ، والمعنى أنه اتخذ زهمهم أو أصبح في عدادهم .

(٤) السُّرُج : أى السُّرُج ، وسكنت الزاه لضرورة شعرية ، وهى جمع السراج أى المصباح .

حتى مَدَدْتُ إِلَيْهِ رَاحَةَ عَائِلٍ<sup>(١)</sup> طَاوٍ فَعَجَّلْنَا نَدَاهُ وَكَرَّشًا<sup>(٢)</sup>

حقاً إن الفقر قد أخلّ ذهنه ، ولعل هذا الروي الشيبى دلالة على فساد الفكر وحمود القرينة في هذه الفترة ، وتصور الأبيات خير تصوير لهذا الشاعر الذي كان يفتش عن القوت الزهيد ، ويسهر الليل على ضوء السراج يفتش عن ماضى الكرام لينظم لهم سمط الأماديع .

يذكر الشاعر ممدوحه بأواصر القرين التي جمعتهما في بلاد الغربية ، وهما بعيدان عن كنانتهما ، وفي ذلك يقول له :

خَذَ مِنْ مَلِيحِي كُلَّ بَاسِمَةِ الرُّبَا مَرَّتْ عَلَى سَمْعِ الحَسُودِ فَأَجْهَشَا  
مِنْ نَظْمِ مِصْرِيٍّ أَقَامَ بِجَلْقِيٍّ مَا كَانَ فِي هَذَا الطَّرَازِ مُجِيشًا<sup>(٣)</sup>

تنطق هذه القصيدة بالرغم من هذا الروي الثقيل الحشن ، فتصور حياته بعد أن فقد ملكه العظيم أبا الفداء، وتؤكد أيضاً خشونة عيش الشاعر وأثر الفقر في شاعريته وفساد ذوقه وذهنه المتوقد، ولكن أليس العكس هو الصحيح ؟ هل تنتج الآلام إلا العبقرية ؟ وهل تبعث العبقرية إلا من بحر الأحزان والآلام ؟؟ أقام الشاعر يمدح تقي الدين ، ولقد سئحت له القرصة ، فتحدث لابن زيله عن حال مصرى مقيم بجلق ، ويتذكر وهو يمدحه وطنه الحبيب ، فيتخيل منازل المقياس :

أَرِقُّ لَهُ بِالشَّامِ نَيْلُ مَدَامِعِ يُجْرِيهِ ذَكَرُ مَنَازِلِ «المِقْيَاسِ»  
سَقِيًّا لِمِصْرٍ مَنَازِلًا مَعْمُورَةً بِنَجُومِ أَفْقٍ أَوْ ظَبَاءِ كِنَاسِ  
وَفِدَى لَهَا مِنْ بِلَدَةٍ كَمْ نَثْرَةٍ فِيهَا لِأَسْرَابِ الدَّمُوعِ أَقَاسِي  
وَطَنٌ لَهُ سَهْرَتٌ وَشَابَتْ لِمَتَى وَنَعْمُ عَلَى عَيْنِي هَوَاهُ وَرَاسِي

(١) عائل : مفتقر .

(٢) كرش : يقال كرش تكريشاً أى حمل المكثرة ، وهى من طعام البادية .

(٣) الديوان ص ٢٧٥ .

(٤) الديوان ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

مَنْ لِي بِهِ ؟ والحالُ لَيْسَ بِأَسْنِ كَلِيرٍ وَعَطْفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِقَلَسٍ  
وَالعَيْشُ حَتَّى طَالَمَا خَطَرَتْ بِهِ أَعْطَافُ كُلِّ مَهْفَهْفٍ مِيَّاسٍ  
ثُمَّ انقضى ذاكَ الزمانُ وما بَقِيَ مِنْ حَلِيهِ عِنْدِي سِوَى الوَسْوَاسِ (١)

قرأت هذه الأبيات المختارة من سينيته فأسيت للشاعر ، وتخطر قلبي لئلا على هذا الشعور الفياض الذي يتأجج لذكر المقياس . كنت في الأمس في مصر وعرفت المقياس قرب النيل ، وذكرت مع الشاعر ذلك المكان الساحر ، فهاجني الشوق ، ولما يمض بعد غير أسابيع معدودات ، فكيف بالشاعر إذا وقد مرت عليه عشرات السنين ؟ ! تقادم العهد . وأصبح هذا البرق الكنانى يلعب في آفاق الشام على سفح قاسيون وعلى ربا العاصي وفي آفاق الشهباء ، فيتذكر بلده الحبيب ، ويجرى من عينيه نيل مدامعه ، وتحتلرتلك للدموع المسجدية ، دموع الشوق والحنين ، دموع صب أضناه طيف خيال وطنه الحبيب .

يدعو لذلك الزمان الذي ضمه في أيام شبابه بالسقيا . ويتذكر مصره الحبيبة . وقد أذرى دموعه النبيلة فداء لهذا الشباب الذي قضاه في رياض الكنانة الغناء بين أشجار النخيل . يرعى نجوم أفقها الصحو ، ويرعى ظباء كناسها هنا وهناك بين الجزيرة والروضة ، والسبك وحلوان .

هذا الوطن الحبيب ، الذي قضى العمر بعيداً عنه ، والذي سهر من أجله الليالي ، والذي أشعل رأسه شيباً لبعاده عن هذا الوطن ، والذي يحبه يود لو عاد إليه . من هو الإنسان الذي سعيده إليه ؟ وأين الطائر الذي سيحمله على جناحيه ؟ وأين البراق الذي يود لو أقله بين طرفه عين وانتفاضتها ؟؟ إنها أطياف أحلام . لا بل هي أضغاث أحلام . لقد انقضى الزمان . ولم يبق له من العمر إلا أقله . ولم يبق له من وطنه غير وسواس دائم . يفكر فيه آناء الليل وأطراف النهار . كلما عنت على باله طفولته الأولى وشبابه الراحل . لا بل إن دموعه تذكره بماء نيله العذب . إن شوقه الدفين يتقد في هذه الأبيات ، ومن خير من ابن نيله يستمع إليه ، ومن خير من ابن أنيله يسمعه صوت قلبه المشوق لمقياس النيل ؟ ومن غيره

يحمله نحية مشتاق ملتاع ؟؟ .

يصححو من خمرته النيلية التي أسكرته زمناً طويلاً وهو ينظم هذه القصيدة وينادى دمشق قائلاً لها .

هُنَّتِ حَظُّكَ - يادِمْشَقْ - بِحَاكِمٍ  
قَاضِي الْقَضَاةِ وَإِنَّهَا لِمَكَانَةٌ  
وَأَقَى الشَّامَ فَأَشْرَقَتْ أَيْدِي اللُّهْمَا  
وَجَرَتْ أُمُورُ الْعَدْلِ بِالْقَسْطَائِسِ (١)

وفى ابن نباتة هذا الممدوح حقه من الثناء وقد عدّه السيوطي من الأئمة المجتهدين ، وذكر مناقبه بالتفصيل ، وأشار إلى آثاره في الفقه والدين ، وكان ابن نباتة قد أحسن في ثنائه ، لأنه أحبه لتقواه وورعه ، ولأنه قد ذكره بمصره ونيله ، وأعاد لباله ذكرى المقياس . ولعلّ لأعدلو الحق ، إن قلت : إن اسمه ذكره بالسبك ، وقدماً كنا مع الشاعر ، وقد أفاض في البكاء عند السبك ، فبكى واستبكى . عاد تقي الدين إلى القاهرة ، وتوفى بجزيرة النيل على شاطئه ، وسمع الشاعر ، وهو ببلاد الشام نبأ موته ، فرتاه على البعد بقصيدة من غرر شعره ، أوردها السيوطي كاملة في حسن المحاضرة .

نتبين من خلال تلاوتنا هذه المرثية نجوى الشاعر ، وهو يرثى بألم وحرقة ، ويطوف بخياله الجامح بين الشام ومصر ، فيبكي صاحبه ، ويستهل بكاءه قائلاً :

نَعَاهُ لِلْفَضْلِ وَالْعُلْيَاءِ وَالنَّسَبِ  
أَهَا لِمَجْتَهِدٍ قَدْ ظَلَّ يَنْدُبُهُ  
نَاعِيهِ لِلْأَرْضِ وَالْأَفْلَاكِ وَالشُّهْبِ  
وَأَقْبَلْتُ نُوبُ الْأَيَّامِ ثَائِرَةٌ  
مَنْ بَاتَ مَجْتَهِدًا فِي الْحُزْنِ وَالْحَرْبِ  
فَفَاجَأَتْنَا يَدُ التَّفْرِيقِ مَسْفِرَةٌ  
إِذْ كَانَ عَوْنًا عَلَى الْأَيَّامِ وَالنُّوبِ  
عَنْ مَسْفِرَةٍ طَالَ فِيهَا شَجْوُ مَرْتَقِبٍ  
لَكِنْ بِهِ السَّمْعُ مَنْصُوبٌ عَلَى النَّصْبِ  
وَجَاءَ مِنْ عِنْدِ مِصْرٍ مُبْتَدَا خَيْرٍ

(١) أبلس الرجل في أمره أي تحير ، وأبلس أيضاً يشس وحزن وقل خيره .

(٢) الديوان ص ٢٦٥ .

قالت دمشقُ بدمعِ النهرِ : واخبرنا «أَفَرِغْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكُذْبِ» (١) « (٢)

وتحدث بعد استهلاله الذي ذكرنا بصرخة المتنبى من قبل ، فذكر الجامع  
الرحب في دمشق ، وكيف أسى عليه ، وذكر الفراغ الذي أحدثه بموته ، وهو  
الإمام الشافعي الأكبر ، شيخ شيوخ الشافعية في زمانه :

ذو همة في العلا والعلم قد بلغت فوق السهاك وما تنفك في دأب  
حتى رأى العلم شفع الشافعي به وقال من ذا وذا أدركت مطلي (٣)

يتحدث ابن نباتة بعد ذكر هذه الصفات عن سفر الفقيه من الشام إلى  
مصر وموته هناك ، ولعل الإيمان بحب الأوطان هو الذي حركه ، فأدركه قبل أن  
يقضى نحبه :

أهّا لمرتحلٍ عنا وأنعمه مثل الحقائق للمثنين والحقب (٤)  
إيمان حب على الأوطان حركه حتى قضى نحبه يا طول منتحب  
يا ثاويًا والثنا والحمد ينثره بقيت أنت وأفتتنا يد الكرب  
نم في مقام نعم غير منقطع ونحن في نار حزن غير متئب (٥) (٦)

لكنه يتساءل بعد هذه الآهة المتفجرة من أعماق فؤاده : أترى هل من  
سبيل إلى مصر لعل تراها يجمعه به ولو في بطون ثراها ؟

من لي بمصر التي ضمتك تجمعتنا ؟ ولو بطون الثرى فيها فيأطربني  
ما أعجب الحال ، لي قلب بمصر وفي دمشق جسمي ، ودمع العين في حلب (٧)

(١) ضمن الشاعر الشطر الثاني من شعر المتنبى في قصيدة يرقى بها أخت سيف الدولة ،  
وقد توفيت بميفارقين ، وصدر البيت : « طوى الجزيرة حتى جاءني خبر » (ديوان المتنبى ج ١  
ص ٨٦) .

(٢) الديوان ص ٤٢ ، وحن المحاضرة ج ١ ص ١٣٢ . (٣) المصدر السابق .

(٤) الحقب : الحزام الذي يشد على حقو العير ، وما تشده المرأة على وسطها تعلق به الحل .

(٥) متئب : اتأبه أى أغضبه ، أو رده بخزي عن حاجته ، أو فعل به فعلًا يستحيا منه .  
واتأب منه : انقبض واستحيا .

(٦) الديوان ص ٤٢

(٧) الديوان ص ٤٢

لن أتحدث عن هذه الأبيات فهي ناطقة تغني عن كل حديث وأكتفي بالإشارة إلى هذه الحكم السامية التي ختم بها هذه الحسرة الآسية ، وهي تدلنا على سمو الشاعر واعتباره بمن سبقه من إخوانه ويذكر أن مصيره مثلهم إلى التراب ، ولا عجب مآل التراب للتراب ، منه خلقنا وإليه نعود .

مدح ابن نباتة بعض من عرفهم خلال حياته في هذه المرحلة ، لكن ملحد إياهم كان بعيداً عن العاطفة الصادقة التي لمسناها في مدائح من ترجمنا لهم في هذه الدراسة . وتكاد تكون ذات طابع واحد في معانيها وألفاظها وهيكلها ، وكان غرضه منها الزلني ، لينال بعض عطاياهم . نكتفي بذكر بعضهم أمثال جمال الدين بن الشهاب محمود ( المتوفى سنة ٥٧٦٠هـ ) ، وجمال الدين بن جملة ( المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وجمال الدين بن ريان ( المتوفى سنة ٥٧٤٩هـ ) وتاج الدين بن الزين خضر ( المتوفى سنة ٧٤٧ هـ ) ، وتاج الدين السبكي ( المتوفى سنة ٥٧٧١هـ ) ، وجهاً الدين السبكي ( المتوفى سنة ٥٧٧٧هـ ) ، وغيرهم

### المرحلة السادسة

٥٧٦٢ - ٥٧٦٨

١

### عودته إلى مصر

إنها خاتمة حياته في نهاية مطافها ، وهي أقصر مراحلها . بدأت برحيل ابن نباتة ، وهو في ذروة شهرته عن أرض الشام ، وعودته إلى بلده الحبيب بعد غيبة استمرت نصف قرن من الزمن تقريباً ، قضاه ينشر علمه وأدبه ، ويذيع في الخافقين شعره ، ويبشر بالوحدة الفكرية بين وادي مصر والشام .

بدأت علاقة الشاعر - قبل عودته - على البعد بالسلطان الناصر حسن ، وبعلاء الدين بن فضل الله ، وهما أجل مملوحين عرفهما في هذه المرحلة الختامية ، إذ كان لهما عليه الفضل الكبير ، فساعداه على العود أولاً ، وعلى تكريمه في

وأخر هذه الحياة الحافلة ، ليموت بعدها قرير العين هائتها .  
فكر الشاعر في العودة بعد موت أبي الفداء الذي أنساه أهله وموطنه ونفسه ،  
وكان طبيعياً أن يزيد الحرمان الذي حل به بعد ذلك لوعته وأساه ، فيأسى على  
حياته البائسة في غربة نازحة ، ويبكي أيام صباه في السبك والمقياس بنيل  
مدامعه ، كما رأينا ذلك خلال مديحه لابن مصره السبكي ، وقدماً تحدث عن  
منازل محبوبته المعمورة بالسبك . وما هو ذا الآن يبكي هذه المنازل التي تهلمت  
أطلالها ، وعفت رسومها وملاعبها . لم يبق من العمر إلا أقله ، ولقد وخط المشيب  
عارضيه ، وصبح فوديه ، ولم تكن شهرته الذائعة وصيته السائر بعد أن أصبح شاعر  
الشام في مطلع حياته وشاعر الشرق في أوج كهولته بالأمر الذي يغره ، فلقد  
عزف عن هذه المظاهر ، وهو كعبة القصاد ، يقصده الناس من كل حذب  
وصوب من أطراف مصر والشام لينالوا منه الإجازة في رواية الحديث أو الأدب  
شعراً ونثراً . وقد سمعناه يتذمر كثيراً من كثرة ريادة من الشعراء وغيرهم ، حتى  
إن المتدئين منهم كانوا يطرقون بابه ، ويطلبون الشهرة عن طريقه .

عزف عن هذا كله لأن حب الأوطان قتال ، وأشد الحب ما قتل ، وفكر  
في أمر عودته ليموت في الأرض التي ولد على أديمها ، وقد ظهر لنا هذا الأمر في  
رثائه للسبكي تقي الدين ، إذ تمنى أن يعود لمصر ، وتضمه أرضها ولو كان  
ميتاً .

عزم على العودة فسعى لها ، وشرع يمدح السلطان الناصر حسناً وأمين  
سره علاء الدين ، وقد مهد بمدحهما سبيله إلى هذه العودة ، فرق له قلب  
السلطان الناصر ، وبعث إليه يطلبه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين  
وسبعمائة<sup>(١)</sup> في الشهر نفسه الذي ولد فيه ، وكأنما كانت عودته بدء ميلاد  
جديد في حياته ، ولكنه ميلاد الموت المقبل .

أمر السلطان في المرسوم الذي أصلره بشأن عودته أن يصرف له ما يتجهز  
به ، وأن يجمع له ما انقطع من المعاليم إلى تاريخه ، فجمع له ذلك ، وعاد إلى

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

مصر ، ودخلها ، واستنشق أريجها ، وروى من مأثها العذب بعد أن حرته منه الأيام دهرأ طويلا . لقد مضت أيام البعاد وكأنها لم تكن ، وما أسرع مرور الزمن وتوالى الأيام ، نصف قرن من الزمن تقريبا مرت كأنها لحظة عين وانتفاضتها .

نرح عن مصر وشعره لمة سوداء ، وعاد إليها ، وقد شبته الأيام ، فأصبح عاجزأ لا يستطيع أن يقوم بعمله الرسمي الذي أنيط به في ديوان التوقيع بالقاهرة ، إذ كان يشغل منصب موقع في الدست . ويتطلب منه هذا المنصب الهام الحضور ، ليشرف على أمور الديوان ، ويراقب رسائل السلطان . أفتدته السنون والأيام ، وساور الضعف جسمه ، فعجز عن الحضور ، وقد أشفق السلطان عليه ، فأعفاه من الحضور ، وأمر بإجراء معلومه عليه <sup>(١)</sup> . أقام هادئأ في عزلته يقضى أعوامه الأخيرة بعيدأ عن أولاده الذين أبقاهم في الشام . سعى لدى صديقه علاء الدين أمين سر السلطان ، فأعادهم إليه ليقر عينأ ، وينعم بهم . لم يكتف الناصر حسن بكل ما فعله من أجله ، بل كان يود لو يكرمه كأكبر أديب وأرفع شاعر في مملكته ، فأمر أن ينسخ ديوانه <sup>(٢)</sup> ليحفظ مكرماً في المكاتب السلطانية الخاصة ، وأمر شعره على سائر الشعراء ، وأصبح ديوانه فوق كل الدواوين ، كما سنشير إلى ذلك بالتفصيل خلال دراسنا المقبلة عن علاقة الشاعر بالناصر حسن وأمين سره علاء الدين .

## ٢

## مع السلطان الناصر حسن

لم يطل عهده كثيراً بالناصر حسن ، ولكنه أكثر من مديحه في الفترة البسيطة التي عاشها في كنفه بمصر ؛ ولو أنه بقى في الحكم مدة أطول لرأينا

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) الديوان ص ٥١٩ .

للشاعر فيه مدائح عابدة ، وذلك لأنى لمست فى هذه القصائد روحاً ، أخلصت  
الرد لصاحبها ، ومحضته خالص الولاء : كيف لا ، وقد أنقذه هذا السلطان  
العظيم من برائن الغربة بعد أن استمع إلى قصائده عن بعد فشجى لحاله .

أحب أن نقف عند شعره الذى قاله فيه قبل عودته لمصر بزمن يسير ،  
ويتصف شعره فيه أنه كان يصف شبيهه فى مطالع النسيب . وقد لمست أنه  
كان نسيباً ذاتياً أكثر منه نسيباً تقليدياً ، كما عهدناه من قبل فى المراحل الأولى .  
يضاف إلى ذلك الطابع المصرى الصميم الذى بدأ يتطبع به الشاعر ، وهو  
على وشك العودة لمصره :

بَدَتْ فى رداءِ الشِّعرِ بِاسْمَةِ الثَّغْرِ      فَعَوَّدَتْهَا بِالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالْفَجْرِ  
وَقَبَّلَتْهَا مِصرِيَّةً حَلْوَةً اللَّمَى      أَكْرَرُ فى تَقْبِيلِهَا السَّكَّرَ المِصرِي  
وَشَبَّ رَأْسِي خَدَّهَا وَمَعَنَى      وَهَذَا رَمَادُ الشَّيْبِ مِنْ ذَلِكَ الجَمْرِ  
بُدَّكَرْنِي عَهْدُ الوَفَا مَا نَسِيْتُهُ      وَلَكِنَّهُ تَجْدِيدُ ذِكْرِي عَلَى ذِكْرِي  
وَأَمَّا وَقَدْ ضَاءَ المَشْيَبُ بِمَفْرِقِي      فَبِالشَّيْبِ لَابَالطُّوعِ صَرُنَا إِلَى الهِجْرِ  
وَفَارَقْتُ خَدَّ الغَانِيَاتِ وَجَفَنَهَا      فَجُرْحًا عَلَى جُرْحٍ وَكَسْرًا عَلَى كَسْرٍ (١)

ويتحدث بعد هذا النسيب الذى صور فيه شبيهه عن شوقه إلى مصر ،  
فيقول :

وَإِنى لَمَشْتَاقٌ إِلَى ظَلِّ رَوْضَةٍ      عَلَى النَّيْلِ أَرَوى العَيْشَ مِنْهَا عَنِ النَّضْرِ  
لَكِنُّ حَشْنَى بَابُ البَرِيدِ إِلَى مِصرِ      لَقَدْ حَشْنَى بَابُ الزِّيَادَةِ فى النَّزْرِ  
إِلَى مِصرِ يَحْلُونِ لِيْلَهُا مُخْصِبَ الشَّرَى      فَيُعْنَى الوَرَى فى الحَالَتَيْنِ عَنِ القَطْرِ (٢)

ويتخلص من هذا الوصف الرائع للنيل ، هذا الوصف الذى لا يجيده  
إلا ابن نيله ، إلى الحديث عن الناصر حسن فيقول (٣) :

وَتَقْبِيلُ حَلْوِ الغَزْوِ لِلْمَحَلِّ قَاتِلُ      حَلَاوَتُهُ سَكْبٌ وَجَنْدِيَهُ يَجْرِي

(١) الديوان ص ١٩٥ ، ١٩٦ . (٢) الديوان ص ١٩٦ .

(٣) الديوان ص ١٩٦ .

وَيَجْرِي بِإِسْعَادِ الْعِبَادِ فَحَبِّدًا بِسَعْدِكَ يَا سُلْطَانَهَا سَاعِيًا يَجْرِي  
لسُلْطَانِ مِصْرَ النَّاصِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ (١) وَهَلْ تُجْمَعُ الْأَمْصَارُ إِلَّا عَلَى مِصْرٍ؟

يؤكد مدح ابن نباتة ما رأيناه من مظاهر الوحدة السياسية ، وكيف  
أجمعت الأمصار الإسلامية المختلفة في البلاد العربية على هذه الوحدة المباركة ،  
ويؤكد أن مصر قد أجمعت الأقطار المختلفة على أن تكون الرائدة لكل البلاد  
العربية في مضمار الانطلاق نحو الوحدة المنشودة .

يتحدث بعد ذلك عن ممدوحه بالتفصيل ، ويتقل كعادته في المديح إلى  
التحدث عن أسرته العريقة ، فيذكر أباه وأجداده ، ويشيد بهذا البيت القلاووني  
قائلاً (٢) :

مَضَى الشَّفْعُ مِنْ مَرَأَى أَبِيهِ وَجَدَّهُ وَجَاءَ فَلَا زَالَتْ لَهُ دَوْلَةُ الْوَتْرِ  
إِلَى نَاصِرٍ مِنْ نَاصِرٍ وَكَذَا عَلَى مَدَى جَدِّهِ الْمَنْصُورِ (٣) مُسْتَرْسِلَ النَّصْرِ  
أَجَلٌ بِبَيْتِ الْمَلِكِ بَيْتُ قَلَاوِنٍ وَأَنْتَ أَجَلُ الْبَيْتِ يَا وَارِثَ الدَّهْرِ  
نَتَقَلُّ إِلَى قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ قَالَهَا فِيهِ بَعْدَ عَوْدَتِهِ لِمِصْرٍ وَقَدْ هُنَا بِمَجْلُولِ الْعَامِ الْجَدِيدِ  
وَنُودَ لَوْ نَقَفَ قَلِيلاً عِنْدَ نَسِيبِهِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ لَنَرَى أَنَّهُ - كَمَا قُلْنَا - يُؤَكِّدُ هَذِهِ  
الذاتية التي شب فيها عن طوق التقليد :

سَلَوْتُ لَكِنَّ قَلْبِي يَا سَعَادُ سَلَى وَأَنْتَ فِي الْحِلِّ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ قَبْلِي  
قَدْ جَاءَ مَا جَاءَ مِنْ رَأْيِي وَمِنْ رَشْدِي وَزَالَ مَا زَالَ مِنْ غَيٍّ وَمِنْ زَلَلِي  
حَتَّى أَضَا الشَّيْبُ فِي فَوْدِي فَأَرَشَدْتَنِي إِلَى الْهُدَى فِي سَوَادِ الرَّأْسِ كَالشُّعْلِ  
فَلَا الْخَلَاعَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ مِنْ أَرْبِي وَلَا التَّغْزُلُ فِي الْأَشْعَارِ مِنْ شُغْلِي  
وَعَاضَ مَاءَ شَبَابٍ قَدْ عَصَيْتُ بِهِ رَأَى النَّصِيحِ فَلَمْ أَسْمَعْ وَلَمْ أَخْلُ (٤)

(١) أي الناصر حسن بن الناصر محمد .

(٢) الديوان ص ١٩٦ .

(٣) أي المنصور سيف الدين قلاوون الأتلي الملقب بالصالحى النجمى من عظماء سلاطين

هذه الدولة ، وقد تتابع من هذه الأسرة أربعة عشر سلطاناً .

(٤) أخل : خال الشيء يخاله أى ظنه ، وفى المثل : (من يسمع ولم يخل) .

ولا حصلتُ على دنيا وآخرةٍ      إلا بدولةٍ من أنشأ ذوى الدولِ  
 أنشى مدائحَ سلطانِ العبادِ بلا      لغوٍ وأتلو معانيها بلا خَلَلِ  
 الناصرِ اسماً وألقاباً وأفعلاً      فانظرْ لنصرٍ على عِظفيه مشتملِ  
 سلطانِ مصرَ الرخا والأمنُ عمَّ فما      بها سوى النيلِ قِطَاعُ على السبيلِ (١)

نكتفى بهذا القدر من أماديح ابن نباتة في الناصر ، ولعلنا استطعنا من خلالها أن نطلع على نفسيته المفعمة بالحب والولاء لهذا السلطان الذى جمع له الدنيا والآخرة ، فحصل منها على ما يشتهى بعد أن بلغ من الكبر عتياً ، حصل على الدنيا ، لأنه كفاه وأجرى عليه رزقه ، وحصل على آخرته لأنه يموت الآن آمناً مطمئناً بعد أن اكتسحت عيناه لأول مرة برؤية وطنه الحبيب بعد أمد مديد .

لم يمض إلا زمن يسير حتى أصبح ابن نباتة شاعر بلاط السلطان بغير منازع ، وكأنما قد أحس الشاعر بعلو هذه المنزلة التى لا يدانيه فيها شاعر ثان فى شرق ملك السلطان وفى غربه . هو الواحد الفرد العلم الذى أمر السلطان أن ينسخ ديوانه ليزين به مكاتب قصوره بعد أن أمر شعره على الشعراء جميعاً ، فأصبح أميرهم الأعلى .

لم يفعل الناصر هذا إلا بعد أن لمس إجماع الأدباء والشعراء والناس فى الشام ومصر وغيرهما على تبجيله واحترامه ، ورفعته إلى ذروة المنتهى فى الشعر والأدب . تسم إمارة الأدب قبل أن يحل بأرض مصر ، ولم يفعل الناصر أكثر من أن استجاب لهذه الرغبة العامة ، فأضفى عليها طابعها الرسمى ، لنستمع إليه يهنئه فى العيد ، وقد جاء فى هذه المدحة قوله :

يا ناصرَ الدينَ والدنياً لقد نفذتُ      أقلامُ مدحك فى الدنيا بسُلطانِ  
 مقامَ ملكك فى عزٍّ ومنتسبٍ      كِسْرَى بنسبته من آل ساسانِ

دَانَتْ لَكَ الْخَلْقُ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضْرٍ      وَفَاضَ جُودُكَ فِي قَاصٍ وَفِي دَانٍ  
هَذِي الْمَدَائِنِ مِنْ أَقْصَى مَشَارِقِهَا      لَمُنْتَهَى الْغَرْبِ فِي طَوْعٍ وَإِذْعَانٍ (١)

تؤكد هذه الأبيات مرة أخرى اتساع ملك سلاطين المماليك كما فصلنا ذلك خلال دراستنا الحياة السياسية . وفيها يؤكد امتداد هذا الملك من أقصى المشارق إلى أقصى المغرب . والمهم في هذه القصيدة أن الشاعر لا يكتفي بهذا المديح الذي أشار فيه إلى اتساع هذا الملك العظيم ، إنما صور حياته في أواخر عمره أروع تصوير . ولعل أحسن صنعاً لو وقفت ههنا بعض الوقت لأوفى الشاعر حقه من وصف أواخر حياته (٢) :

وَأَمْسَكَ الضَّعْفُ نَطْقِي بِرِزْمَةٍ فَرَقَى      بِالْمَدْحِ مَنْظَرٌ مَا قَدْ كَانَ أَوْلَانِي  
ضَعْفٌ تَضَاعَفَ فِي فِكْرِي وَفِي بَدْنِي      حَتَّى تَحَيَّفَ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي  
وَعَطَلْتَنِي عَنِ الْأَوْزَانِ أَنْظَمَهَا      مَدْحًا وَمَا عَطَلْتُ جِدْوَاهُ مِيزَانِي  
إِنْ أَمْتَدَحُهُ بِشِعْرِي أَوْ بِكِسْوَتِهِ      فَسَوْفَ تَمْدَحُهُ فِي التُّرْبِ أَكْفَانِي  
كَفَّانٍ فِي الْجُودِ جَادَتْ لِي جَوَائِزَهَا      وَكَانَ خَيْرَ سَمَاعِ الشُّعْرِ كَفَّانِي  
وَقَدَّمْتَنِي عَلَى الْأَقْرَانِ ذُو نَعْمٍ      حَتَّى جَدَعْتُ بِهِ أَنْفَ ابْنِ جُدْعَانٍ (٣)  
وَقَالَ قَوْمٌ بِمَا قَدْ نِلْتُ تَقْدِمَةً      فَقُلْتُ : مُدَّ أَمْرَ السُّلْطَانِ دِيْوَانِي

لعلنا نشعر بصدق هذه العاطفة التي تنبض في هذه الأبيات ، إذ يصف الشاعر ضعفه ، وقد حلَّ السقام بجسمه ، وعطل فكره ، وأفسد ذهنه ، لكن الناصر لم ينس الشاعر في أيامه الأخيرة ، بل مده بالعطاء . وما أروع الشاعر حين قال له : إن أكفانه الطاهرة سوف تمدحه ، وهو في التراب ، جزاءً وفاقاً

(١) الديوان ص ٤٩٢ .

(٢) الديوان ص ٤٩٣ .

(٣) ابن جدعان: أي عبد الله بن جدعان (بضم الجيم) جواد معروف، قيل: كان يحضر النبي صل الله عليه وسلم طعامه، وكانت له جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها . قالت عائشة: يارسول الله ، هل كان ذلك نافعه ، قال : إنه لم يقل يوماً : « رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

على جميله الذى أولاه إياه فى حياته ، ويحتم قصيدته مشيراً إلى ما فعله السلطان من تأميره على الأقران . وما فعله من نسخ شعره فى الديوان ، كما أشار مرة ثانية إلى هذا الأمر فى معرض إحدى قصائده من السبع السيارة<sup>(١)</sup> :

يا أيها الناصر السلطان لا غمّصت عين لها عن سنا مرآك سلوان  
أمرت شعري يا خير الملوك على أشعار قوم فى أمر وديوان

أمر شعره على سائر الشعراء . فأصبح ( أمير شعراء المشرق ) . وتلك هى أرفع منزلة يسمو إليها شاعر . فأصبح له أمر وشأن . وأصبح ديوانه جوهرة الداووين . لأنه السحر الحلال الذى لم يعرف فى غير شعره . وتلك هى أعلى أمنية يحلم بها شاعر . نختم حديثنا بعد هذا العرض المسهب بذكر خمسه فى الناصر . وهو الخمس الوحيد الذى عثرنا عليه فى الديوان . ولعله آخر ما قاله من شعر . لأنه يذكر فيه ضعفه وعجزه . ويحسن بنا أن يكون هذا الخمس الشعرى خاتمة المطاف فى حديثنا عن الشاعر وعلاقته بالناصر :

لنا ملك قد كمال الله فضله فحولهُ مُلكَ البسيطةِ كُلَّهُ  
بجاءً وجمع جمع الفضل شمله هو البحر إلا أننا سمك له  
بلقياه نجيا أو بفرقتِهِ نَفَى

إلى أن تجلّت طلعة ناصرية حلت دولة من ملكها قاهرية  
ملية<sup>(٢)</sup> أبيات العطا<sup>(٣)</sup> قادرية وكان عطا معن<sup>(٤)</sup> القرى نادرية

وأنت القرى أعطيت والكنز والمدنا

فلا زال للإسلام ملكاً وناصرًا وللمال والأعدا مُبيداً وقاهرا  
ولا زال كل الناس أصبح شاعراً يُقيم لوزنى شعره البرّ وافرا  
وما كان ذو وقرٍ يُقيم له وزنا

(٢) ملية : الملء والملى أى الغنى المقدر .

(١) الديوان ص ٥١٩ .

(٣) العطا : العطية .

(٤) معن : أى معن بن زائدة بن عبد الله من أجواد العرب .

وَحَقِّكَ لَا أَنْسَى بِبَابِكَ ثَرَوَتِي مَرْتَبَةً فِي حَالِ ضَعْفِي وَقَوَّتِي  
وَلَا قَلْتُ مَا قَالَهُ ابْنُ جَرَحٍ لِعُسْرَتِي أَذُو صَنْعَةٍ فَاسْتَخْدَمُونِي لَصَنْعَتِي  
بِرَزْقِي وَإِلَّا فَارزَقُونِي مَعَ الزَّمْنِي (٢١) (٢)

ألف ابن نباتة للناصر ديوان خطب جمعية منبرية بعدد أسابيع السنة ،  
أورد في خطبة النعت التقليدية، وهي آخر خطب الكتاب، ذكر الناصر في الدعاء  
له . وأعتقد أنه ألفها له لتكون نمطاً موحداً ، يعتمد عليه الخطباء في المساجد  
عامة ، وفيها يقول: « وكن اللهم مؤيداً لهم وحافظهم وناصرهم . . . » (٣) . ظن  
الشاعر أن الدهر قد انقلب مره حلواً ، لكنه سرعان ما ابتلاه بمقتل الناصر على  
يد مملوكه يلبغا ، فقبض عليه وسجنه ، ثم خنقه وأغرقه في البحر سنة اثنتين  
وستين وسبعمائة ، أى بعد عام واحد تقريباً من وصوله من بلاد الشام .

أما معلومه فكان يقطع عنه في بعض الأحيان بعد موت الناصر ، وقد ظهر  
لنا ذلك الأمر في معرض مدائح لعلاء الدين بن فضل الله ، وهو الممدوح الوحيد  
الذي اختص به بعد موت سيده .

## ٣

## مع علاء الدين بن فضل الله

بدأت علاقته به عندما قابله في دمشق خلال زيارته لها . وقد ذكرنا أنه  
أغاثه ، وزاد من وظائفه قمامة التي عزل عنها ، وذكرنا أنه كان يرغب في العودة  
إلى التوقيع بعد صرفه عنه . أوضحنا ذلك من قبل ، واستمرت علاقته به .  
ولقد أمل ابن نباتة أن ينصرف لهذا الممدوح ، ولا سيما أنه شقيق شهاب الدين ،  
رئيس ديوان الإنشاء بدمشق . وكان لعلاء الدين هذا فضل كبير عليه ،

(١) الزمى : جمع زمن وزمن، أى المصاب بالزمانة ، وهي تعطيل القوى عن بعض  
الجسم والعللة المستديمة .

(٢) الديوان ص ٥٨١ ، ٥٨٢ .

(٣) ديوان خطب جمعية ، ص ١٠٩ .

لأنه ساعده على العودة ، وبخاصة بعد وفاة سلطانه الناصر . إن عهده إذاً قديم بآل فضل الله ، وقد فصلنا علاقته بالسابقين منهم ، ويعد علاء الدين هذا<sup>(١)</sup> خامس ممدوح منهم بطرق بابه وينال عطاءه . كان لهذه الأسرة - في الحقيقة - فضل كبير عليه ، ولعل علاء الدين هذا كان خاتمة المطاف ، وهو آخر ممدوح عرفه في حياته كلها . لن أتحدث بالتفصيل عن أسرته العمرية ، فقد وفيناها حقها من البحث خلال دراستنا المدائح النباتية في سروات الأسرة العدوية العمرية ؛ وإنما أكتفي من ذلك بالإشارة إلى « عمر الفاروق » جده<sup>(٢)</sup> ، وأما « أصله فإلى قریش »<sup>(٣)</sup> ، وأنه « ابن الخلائف من عدى »<sup>(٤)</sup> ، وأنه من « أسرة عمرية عدوية »<sup>(٥)</sup> .

أعرض الآن لما قاله فيه من شعر قبل حلوله أرض مصر ، ولقد تعمدت أن أعرضه هنا ، لأنه يصور لنا شوقه وهو في بلاد الشام لأرض النيل التي كان يمني نفسه بلقائها حياً أو ميتاً . لنستمع إليه يتحدث لنا قبل وصف شوقه عن مصرية ماردة الهوى<sup>(٦)</sup> :

عَطَفْتُ كَأَمْثَالِ الْقِسِيِّ حَوَاجِبًا      فَرَمْتُ غَدَاةَ الْبَيْبِنِ قَلْبًا وَاجِبًا  
مِنْ كَلِّ مَارِدَةِ الْهَوَى مِصْرِيَّةٍ      لَمْ تَخْشَ مِنْ شُهْبِ الدَّمُوعِ ثَوَاقِبًا  
إنها نموذج خالد للمرأة المصرية الفتانة بجمالها الفرعوني القديم ، كما خلدته الآثار الباقية ، ولعل ولع الشاعر بالجمال المصري يثير شوقه الدفين منذ أعماق السنين لأرض النهر الخالد . ولا يلبث بعد هذا النسيب المصري المارد إلا أن يتغنى بموطنه مصر ، موطن هذه الماردة في هواها قائلاً<sup>(٧)</sup> :

(١) علاء الدين أبو الحسن علي بن يحيى بن فضل الله بن مجلي العدوي العمري . ولد سنة ٧١٢ هـ ، وقد ولاء الناصر الكتابة بعد غضبه على أخيه شهاب الدين وكان - إذ ذاك صغير السن - فتعهد الناصر بتدريسه ، وذكر أنه كان حسن الخط ، فلم يلحق به أحد ، وقد خدم اثني عشر سلطاناً خلال ثلاث وثلاثين سنة . توفي سنة ٧٦٩ هـ . الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٨ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) الديوان ص ٤٥١ .

(٣) الديوان ص ٢٩ .

(٤) الديوان ص ١٠ .

(٥) الديوان ص ٥١٥ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) الديوان ص ٢٦ .

بأبي الخدود العاريات من البكا      اللابسات من الحريرِ جلابيا<sup>(١)</sup>  
 النابتات بأرضِ مصرَ أزاهراً      والزاهراتُ بأرضِ مصرَ كواكباً  
 آها لمصرَ ، وأينَ مصرُ؟ وكيفَ لي      بديارِ مصرَ مراتعاً وملاعباً ؟  
 حيثُ الشيببة والحبيبةُ والوفا      في الأعذبتين<sup>(٢)</sup> مشارباً وأصحاباً

لأنعدو الحق إن قلنا إن هذه الأبيات من أجمل ما قاله الشاعر في وصف  
 حنينه ، ولن أعيب عليه تكرار اسم وطنه الحبيب لأن الحب الصادق يظهر في  
 هذا التكرار المستحب ، وقد بلغ ست مرات في ثلاثة أبيات إذا أهملنا البيت  
 الأول ، أو في بيتين إذ أهملنا الأول والرابع . صحيح أن هذا التكرار نوع من  
 السحر الحلال الذي وصف به شعره . لا بل إنه السكر النباقي على حد تعبير  
 ابن نباتة في بعض مقاطيع شعره .

نعود كرة أخرى ، فتذكر مع الشاعر وطنه من خلال مدائحها ، ولنستمع  
 إليه يناشد صاحبه علاء الدين ، وهو يتغنى بالأهرام الذي فارقه منذ عهد  
 سحيق :

وحبذا العيش والأيام مسعفةً      ومصرُ دارى وأحبابي بها خولي<sup>(٣)</sup>  
 يا بارقاً من نواحي مصرَ مبتسماً      بلِّغْ تحيةَ هامى الدمعِ منهمل  
 واذكرْ إذا هبَّ معتلُّ الصبأ جسدي      فربما صحتِ الأجسادُ بالعللِ<sup>(٤)</sup>

ما أعذب خطاب هذا البارق المبتسم من آفاق مصر! وكأعما يبشره ابتسامه  
 بقرب العودة . ها هو ذا يخاطبه ، ويطلب إليه أن يحمل معه تحية مصرى  
 مقيم بجلتق ، وقد كتب هذه التحية . وخضلها بنيل مدامعه ، ويطلب من هذا  
 البرق المصرى أن يذكره إذا هبت النسائم العليلة ، فقد تشفيه ، وقله يصبح من  
 سقمه . وكيف لا؟ وهل أنفع منها للمشوق المحروم؟

(١) الجلاب : جمع جلاب وهو القميص الواسع .  
 (٢) في الديوان : «الأعرين» والتصويب من رواية مخطوطة (سوق الرقيق) ق ١٠٣ ط  
 (٣) خولي : جمع خائل ، ويقال : لفلان خيل وخول أى حشم .  
 (٤) الديوان ص ٢٨٢ .

تقف كرة أخرى عند هذا البرق الثاني المتبسّم السارى من آفاق مصر ومن  
ظلال الأهرام ، ونستمع لابن نباتة ، وقد هملت دموعه النيلية :

يا سارى البرقِ في آفاقِ مصرَ لقدْ أذْكرْتَنِي من زمانِ النيلِ ما عُدْبًا  
حدثْ عن البحرِ أو دمعى ولا حَرَجُ وانقلْ عن النارِ أو قلبى ولا كَذِبًا  
واندُبْ على الهرمِ الغربىِّ لى عُمرًا فحبذا هرمٌ فارقتُه وصبًا (١)

جمع مصر وهرمها ونيلها كلها في ثلاثة أبيات فقط ، وهي تعبر بحق عن  
لوعة الشاعر وحرقة. ولو حاول مصور أن يجمع هذا الثالوث الكنانى في صورة  
واحدة لعجز عن ذلك . لكن الشاعر الفنان استطاع بما أوتي من عبقرية أن  
يجمعها ضمن إطار واحد في صورة ساحرة ، كما جمع فيها أيضاً بحر المدامع ونار  
الشوق المتأجج في قلبه . ولعلنا نستطيب هذا الحنين ، فنستريده من نار  
الشوق العارم ، والأحرى بهذا الشاعر أن نستريده ، فنشاهد معه الأطباء الراضة  
بضفاف النيل ، ونستمع تأوهاتة وهو يصيح من بعد : « آهأ على مصر »  
بعد أن شابت لمتّه :

ومالى لا أبكى على درِّ مَبْسِمٍ كما بكتِ الخنمَاءُ قبلى على صخرِ  
وأجرى عيونِ الدمعِ فائضةً على عيونِ المَهَا بَيْنَ الجزيرةِ والجسرِ  
طبَّاءُ بشطىِّ نيلِ مصرَ لأجلِها يقولُ حنينُ الشوقِ : آهأ على مصرِ  
خيلى شابتْ فى النواظرِ لِمَتى وشبَّ الأَسَى نارَ التذكُّرِ فى صدرى  
سقى اللهُ أيامَ الشبابِ التى خَلَّتْ من السحبِ أحلى مايسيلُ من القطرِ (٢)

لن أفيض في الحديث عن هذه الأبيات ، وأكتفى بالإشارة إلى توجع  
الشاعر على أيام شبابه ، ويدعو له بالسقيا . نصحو من هذه الشوة النباتية ،  
ونعود ثانية مع الشاعر لنعيش في واقعه غريباً عن وطنه ، ذلك لأن الدهر كان  
يحاربه ، وليس له إلا صاحبه علاء الدين ، فهو الذى يستطيع أن يشفع له عند

(١) الديوان ص ٣١ .

(٢) الديوان ص ٢٠٠ .

السلطان ، فيأمر بعودته بعد أن طالّت هذه الحرب الشعواء بينه وبين دهره :

والدهرُ سلّمٌ كيفما حاولتُهُ لا مثلَ دهري في دمشقٍ مُحارِباً  
هيهاتَ يَقْرُبُنِي الزمانُ أذى وقد بَلَغَتْ شِكَايَتِي العلاءَ الصاحباً (١)

توثقت المحبة بينه وبين العلاء الصاحب ، وطفق يمدحه في كل مناسبة ،  
ويبعث بمدائحهُ إليه بعد أن تراءى إلى سمعه أنه يسعى لدى السلطان ليرسم أمره بعودته  
بعد أن أصبحت حياته مستحيلة في الشام . وتم الأمر - كما ذكرنا - وعاد  
الشاعر إلى وطنه تاركاً هناك زوجته وأولاده وحدهم :

ورُبُّ شائمةٍ عزمي ومُرْتَحلي إلى جَمِيٍّ مصرَ أشكو جفوةَ الشامِ  
قالت: ووراءك أطفالٌ، فقلتُ لها: نعمٌ ونعمي ابنِ فضلِ الله قُدَّامِي (٢)

نتقل مع ابن نباتة إلى أرض الكنانة ، ونصور حياته في هذه الفترة وعلاقته  
بالعلاء الصاحب فما ينفك يمدحه ، ولم يمض أكثر من عام حتى قتل السلطان  
كما ذكرنا ، وساءت حاله ، وذكر أولاده الذين تركهم في بلاد الشام  
وحدهم ؛ وقد صور شوقه إليهم خير تصوير في هذه القصيدة التي قالها  
يملحه بها :

إذا دعا خادمٌ شَجْوِي إلى دمعِ جَرِيٍّ في الحالِ مَرَجَانُهُ  
فقلْبُهُ في مصرَ مستودعٌ وفي أقاصي الشامِ جُئَانُهُ  
أغصَّهُ النيلُ بدمعِ الأسي ومررتُ ذِكْرَهُ حُلْوَانُهُ (٣)

إن هذه الأبيات تصور شوقه لأولاده ، وتخرج لنا صورة رائعة عن الحنان  
الأبوي . يضاف إلى ذلك انطباع هذه الصورة بالطابع المصري الصميم ، ونعثر  
في هذه الصورة على التالوث الآخر الجديد ، وهو مصر والنيل

(١) الديوان ص ٣٧ .

(٢) الديوان ص ٤٤٢ .

(٣) الديوان ص ٤٩٩ .

وحلوان ، وقد رأيناه من قبل يضم مصر والنيل والأهرام . ثم يخاطب بعد ذلك صاحبه العلاء :

يا سيدي دعوة ذى حالةٍ      أحالها الدهرُ وعدوانهُ  
تفليسُهُ في الشامِ بعد الغنى      يقضى بأنَّ القلبَ حرائهُ  
فارقَ أولاداً وأهلاً وما      تحمّلتَ للبينِ أضعانهُ  
ذو الفقرِ في أوطانهِ نايهُ      وذو الغنى في النأيِ أوطانهُ  
ضاقَ بهِ إلا إليك الفضا      وحسّه حاشاك حرمانهُ  
فالدهرُ لونٌ واحدٌ عندهُ      طراً وعندَ الناسِ ألوانهُ<sup>(١)</sup>

سما في هذه الأبيات إلى آفاق الحكمة ، فقابل بين الفقر والغنى ، والغربة والوطن ، لكننا لانقف عند هذا اللون من وصف سوء حاله وغربة عياله ، وإنما نتقل لمكاته الشاعر ، فهو يذكر صديقه بأنه أمير الشعر والشعراء :

أنا أميرُ الشعرِ في وصفِ ذا      ومدحِ ذا ، رُتّبَ ديوانهُ<sup>(٢)</sup>

لكن حاله تحسنت بعد ذلك في مصر ، فصار في غنى ويسر ، وأما أولاده الذين كانوا بعيدين عنه في دمشق فهم في سوء حال من فقر وعسر ، وقد وصف الشاعر هذه الحال في قصيدة له من السبعة السيارة :

أصبحتُ بعدَ تطاولِ الأيامِ      قلبي بموضعِ قلبي بالشامِ  
إنَّ مُتُّ مِنْ حَزْنٍ فَإِنَّ بَنِي قَدِ      ماتوا بشايمِهِمْ من الإعدامِ  
يا للوزيرين اللّنين هما هما      لا ترحماني وارجما أيتامى  
مَنْ لِي بِحَمَلِهِمْ عَلَى عَيْنِي فَمَا      لِي نَحْوَ حَمَلِهِمْ عَلَى أَقْدَامِي

(١) الديوان ص ٤٩٩ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

فَيَكُونُ جَبْرُكُمْ كَمَا لِقَلْبِي جَبْرَهُمْ فَهَمُّ عَلَى كَلِّ الْوَجْهِ عَظَامِي  
يَا عِصْمَةَ لِأَرَامِلٍ ، وَثِمَالٍ أَيْ تَامٍ بِقِيَمٍ عِصْمَةَ الْإِسْلَامِ  
أَقْسَمْتُ لَوْلَا جَاهُكُمْ وَنَوَالِكُمْ أَصَبَحْتُ لَا خَلْقِي وَلَا قَدَامِي (١)

لم يطل العهد كثيراً . فعاد العيال ومعهم ربة البيت . فهم على كل الوجوه عظامه . وأعتقد أن عودتهم تمت بعد مقتل السلطان الناصر حسن . ذلك أن معظم قصائده التي حوت ذكر أولاده الغائبين اقتضت على شعره في العلاء الصاحب : فلنستمع إليه ينشده بعد أن وصلوا أرض مصر :

جَاءَ الْعِيَالُ وَذَاتُ الْبَيْنِ قَالِيَةً بِالْبَعْدِ تَجْعَلُ بَيْتَ الْقَلْبِ مَكْسُورًا  
وَكَلُّ مَنْ شَتَّتْ أَوْ مَن لَمْ أَشَأْ بُعِثَتْ لَهُمْ صِلَاتُكَ مَخْفِيًا وَمَشْهُورًا  
حَتَّى الْأَجَانِبُ زَادُوا ضَعْفَ عَائِلَتِي وَرَبَّةُ الْبَيْتِ أَضْحَتْ بَيْنَهُمْ (٢) بُورًا (٣)

ساعات العلاقة بين الشاعر وبين عائلته . وقد توضح لي هذا الأمر من خلال إحدى قصائده التي مدحه بها . وهو في مصر . وقد استعطفه فيها وذكر له أنه برىء . ولو أنه أذنب لاعترف بذنبه . ويشير إلى معشر من الناس كانوا يدفعونه عن قوت يومه : وكأنهم قد ساءهم أن يتناول معلومه من الديوان دون أن يكلف عناء الحضور . كما جرت العادة على ذلك منذ أيام السلطان الناصر حسن . فلنستمع إليه يعتذر قائلاً :

إِذَا رَفَعْتُ قَدْرِي بِمَدْحِكَ لَيْلَةً تَيَقَّنَ قَصْدِي أَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ  
وَقَضَيْتُهَا . وَالنِّيَرَاتُ تَمُدُّنِي سَلَامًا وَتَسْلِيمًا إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ  
عَلَى أَنَّ عِنْدِي كَأْسُ شَكْوَى أُدِيرُهَا عَلَى السَّمْعِ مَمْرُوجًا بِمَدْمَعِي الْغَمْرِ (٤)

(١) الديوان ص ٤٦٢ .

(٢) البوار : الهلاك ، والبور بالضم الهالك يتوى فيه الاثنان والجمع والمؤنث ، فيقال ، رجل بور ، ورجلان بور ، وقوم بور ، وكذلك الأنثى .

(٣) الديوان ص ٢٢٨ .

(٤) الديوان ص ٢٠٢ .

أما هذه الشكوى التي مزجها بمدمه الغمر ، وهو يديرها على مسمع صاحبه  
فهى :

أَيْكَسْرُ حَالِي بِالْجَفَاءِ وَطَالَمَا      تَعَوَّدْتُ مِنْ نُعْمَاكَ عَاطِفَةَ الْجَبْرِ  
وَيَدْفَعُنِي عَنْ قُوْتِ يَوْمِي مَعْشَرٌ      وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَافِذُ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ  
وَلَوْ كَانَ ذَنْبٌ لَاعْتَرَفْتُ بِهِ وَلَا      تَحِيلْتُ فِي عَذْرٍ وَلَا جِئْتُ عَنْ (١) عُفْرِ (٢)

إنها حقاً كأس شكوى مريرة لأن معشراً من إخوانه يحاولون أن يجرموه قوت  
يومه ويخلص من ذلك ليقول له إنه غير مذنب . ولو أنه قد أذنب لاعترف  
بما قدم ، ولما حاول أن يفتش لنفسه عن عذر مقبول . لكن الشاعر قد عرف  
قدر نفسه ، وهو سلطان شعراء الشرق . فترك الاعتذار جانباً ، وأفهم الصاحب  
العلاء بصريح العبارة أن مدائحهم حلت بالشعري في السماء . وأضاءتها بأنوارها  
وسناها . وأنى لثله أن يطفىء هذه الشعلة الخالدة التي تألق بها مجده ؟

أَحَاشِيكَ أَنْ يَدْجُو زِمَانِي بَعْدَ مَا      أَضَاءَتْ بِشِعْرِي الْمَدَائِحِ مِنْ شِعْرِي  
بَنِيْتُ عَلَى ضَمٍّ وَلَا عَاكَ فِي الْحَشَا      فَلَا تَبْنِي بَيْتَ الْقَلْبِ مِنِّي عَلَى كَسْرِ  
وَإِنْ تَخَفَ يَا ذَا السَّرْعَنِكَ مَجَبِّي      فَشَاهِدْ حَيَّ عَالَمُ السَّرِّ وَالْجَهْرِ (٣)

هكذا كانت أيامه الأخيرة مع آخر ممدوح في حياته ، وقد آن له أن  
يرتاح من حياة كلها تعب قضاها بين مصر والشام . فتارة كانت تصفو له . فينهل  
من أفوايقها كؤوس الصفاء . وتارة أخرى كانت تتجهم أمامه ، وتذيقه من  
مصائبها كؤوس الصاب والعلقم . حتى اقتربت منيته . وأذنت الشعلة  
النباتية بالحمود والهمود .

(١) العفر : البعد ، وقلة الزيارة ، وطول العهد ، يقال : ( ما تأتينا إلا عن عفر ) ،  
أى بعد قلة زيارة وفى الأساس : ( أتاانا عن عفر ) أى بعد حين .  
وقد صحفت في ديوان الشاعر ، فكانت ( من عفر ) والصواب ما أثبتناه .  
(٢) الديوان ص ٢٠٢ .  
(٣) المصدر السابق .

## انطفاء الشعلة النباتية

تمنى ابن نباتة حينما رثى صديقه شيخ الشافعية تقي الدين السبكي وهو في بلاد الشام أن يعود إلى مصر لعل بطون ثراها تجمعه به وبها ولو كان ميتاً :

من لى بمصرَ التي ضمتكَ تجمَعنا ولو بطونَ الثرى فيها فيا طربي  
لقد أمهلته المنية حتى عاد إلى مصر ، وقرت بها عيناً ، وشرب من معين  
نيلها بعد أن كان نيل مدامعه ينهمل مداراً لذكراها .

لم يبق من العمر إلا أقله ، وهذه أواخره قد أفصحت من أفقها البعيد ،  
وقد أحس الشاعر بقرب الأجل ، فأودع في إحدى مقطعاته نداءه لصاحبه :

صاحِ هذِي أواخرُ العَمْرِ قَدْ وُلِّدَ لِي وَهذِي أواخرُ الأَشعارِ  
أَنجَمَ قَلْتُهَا أَوَّانَ مَشِيبِي فَهِيَ - لاشكَّ - أَنجَمُ الأَسحارِ (١)

ها هي ذى المنية تتقدم إليه ، فلا يحشاها ، بل يذكر أولاده الكثيرين الذين  
دفنهم في حياته ، وعدتهم ستة عشر ولداً (٢) ، ويذكر أباه ، ويترحم عليه ،  
وقد سبقه إلى الموت في بلاد الشام قبل ثمانى عشرة سنة ، وينشد في  
آخر أيامه يذكرهم جميعاً :

تَأخَّرْتُ عَنْكُمْ يَا بَنِيَّ ، وَيَا أَبِي وَمَا أَنَا إِلَّا البَعْضُ ما ضِىَ جَمِيعُهُ  
وعودُ نَباتِي مَتَى يَرْتَجِي بَقَا ؟ وقد ماتَ عَنْهُ أَهْلُهُ وَفُرُوعُهُ (٣)

ذبل هذا العود النباتي ، وانطفأت هذه الشعلة النباتية ، في القاهرة (٤) ،

(١) الديوان ص ٢٥٠ .

(٢) المنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٣٠٠ .

(٣) الديوان ص ٣٢٠ .

(٤) طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣١ والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

ويظهر أنه كان يعالج في المارستان المنصوري في أواخر أيامه<sup>(١)</sup> ، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء<sup>(٢)</sup> السابع<sup>(٣)</sup> أو الثامن<sup>(٤)</sup> من شهر صفر سنة ثمان وستين وسبعمائة<sup>(٥)</sup> . بمنزله بزقاق القناديل<sup>(٦)</sup> الموافق لشهر تشرين أول « أكتوبر » سنة ١٣٦٦ م. وقد شيع جثمانه ودفن بمقابر الصوفية<sup>(٧)</sup> خارج باب النصر<sup>(٨)</sup> ، في خانقاه سعيد السعداء<sup>(٩)</sup> ، فعليه الرحمة والسلام يوم ولد ويوم مات .

- 
- (١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٩ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ .
- (٢) مقدمة الديوان ص د .
- (٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ ، ومقدمة الديوان ص د ، والموسوعة الإسلامية ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
- (٤) البدر اللطالغ ج ٢ ص ٢٥٢ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٣٠٠ .
- (٥) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣١٧ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٢١ ، والموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ومقدمة الديوان ص د ، وطبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣١ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ ، والنجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٣٠٠ .
- (٦) النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٩٥ .
- (٧) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ .
- (٨) مقدمة الديوان ص د .
- (٩) مقدمة الديوان ص د .

## الفصل الثالث

### آثاره الأدبية

بقى علينا أن نتناول في بحث اليوم أدب ابن نباتة ، وقد درسه الأقدمون من معاصريه والتابعين لم دراسة عميقة. وقاسوه بموازين عصره ، وذلك لأنه ممثل الزعامة الأدبية . ويندر أن نجد ترجمة له دون أن يقال عنه : « إنه شاعر العصر <sup>(١)</sup> ». أو « شاعر المشرق » <sup>(٢)</sup> . أو « حامل لواء الشعراء في زمانه » <sup>(٣)</sup> ، أو « شاعر الوقت » <sup>(٤)</sup> أو « شاعر الشام » <sup>(٥)</sup> . أو غيرها من الألقاب التي خص بها دون غيره . والغريب جداً أن تهمل دراسة آدابه ، وبقي هذا الأدب في طي الإهمال دون أية محاولة لنشره . والعجيب أيضاً ألا تنشر آثاره كاملة بل تبقى غريبة كصاحبها في حياته ووزعة بين أقطار المعمورة لاتزال مخطوطة حتى الآن في لندن وفيينا وبالهافن وغيرها من أمهات عواصم الغرب . وقد بلغت ثلاثة وثلاثين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ومفقود .

إن ما طالعت من مؤلفاته . وما استطعت الوصول إليه من سائر آثاره المخطوطة ، وما عثرت عليه من شذرات هنا وهناك في بطون كتب الأدب والتاريخ ، يكفي بعض الكفاية . لكي يعطينا صورة واضحة ، تدلنا على أهميته كزعيم كبير لأهم مذهب شعري ظهر في عصره .

أثار ابن نباتة خلال إقامته في بلاد الشام مدة لاتقل عن خمس وأربعين سنة حركة أدبية ، شملت مصر والشام معاً ، لأنهما تولفان وحدة سياسية وفكرية في آن واحد ، ولكي ندرس هذه الحركة الأدبية لا بد لنا من دراسة آثاره الأدبية .

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣١ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٢ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ ص ٣١ .

(٤) تاج العروس ص ٥٩٠ .

(٥) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٤٣ .

لم نعر على أى أثر ألفه ابن نباتة فى مصر قبل رحيله إلى بلاد الشام ، لأنه كان آنئذ أديباً مغموراً ، ويرجع الفضل الأكبر فى تشجيعه على التأليف إلى الملك المؤيد أبى الفداء الذى أجرى عليه كل عام راتباً سوى ما يتحفه به من الهدايا فى كل مناسبة يلقاه فيها<sup>(١)</sup> . وقد وفى ابن نباتة حقه من الشناء والتقدير فى فاتحة كل كتاب ألفه بإشارة منه ، وذكر لنا تشجيعه له ومؤازرته فى حفظ المؤلفات فى الخزانة الشريفة السلطانية المؤيدية . وذلك فى معرض إجازته للصفدى : وأما مصنفاتى التى هى كالياسمين لاتسارى جمعها . ولولا جبر الخزانة الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية لما استجزت نصيبها ورفعها فهى : « كتاب مطلع الفوائد ويجمع الفرائد » ، وكتاب « منتخب الهدية فى المدائح المؤيدية » ، و « الفاضل من إنشاء الفاضل » و « زهر المشور » . و « إبراهيم الأخبار » . و « شعائر البيت القوى » . لم تكمل إلى الآن . والأرجوزة المسماة « فرائد السلوك فى مصايد الملوك »<sup>(٢)</sup> .

هذه بعض مؤلفاته التى ألفها فى عهد الملك المؤيد حتى عام ثلاثين وسبعمائة ، بدليل أن الصفدى استجاره - كما هو مفهوم من الإجازة - سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وقد ذكر ابن نباتة أنه أبطأ فى الجواب . ولكنه فضل أن يبطن ولا يخطئ كما يقول . يضاف إلى هذه مؤلفات أخرى ظهرت فى الفترة التى تلتها . وسوف نأتى على شرحها وتعريفها فى مكانها من هذا النصل . يمكننا أن نصنف الآثار المذكورة - قبل البدء بدراستها - ضمن زميرتين : آثاره الشعرية ، وآثاره النثرية .

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧٣ .

(٢) خزنة الأدب ص ٢٩٢ ، الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧٣ ، والوقى بالوقيات ص ٣١٤ ، والمنهل الصاق (مخطوط) ج ٦ ورقة ٧١ .

## القسم الأول دواوينه الشعرية الديوان الكبير

نبحث - بالطبع - أول ما نبحث ديوان شعره، وقد عثرت على عدة مخطوطات له<sup>(١)</sup> وطبع مراراً<sup>(٢)</sup>، لكن معظم هذه الطبعات مغلوطة وغير محقق ، وتحتاج لجهود كبيرة لتهديبها وتشذيبها، ولعلنا نقوى على ذلك في يوم من الأيام . لم يشأ الشاعر أن يكون شعره كله حبيس ديوانه ، ولذلك نراه قد صنفه منذ أول عهده تصنيفاً طريفاً ، فهو قد جمع بين أمرين : تصنيفه بحسب الأغراض الشعرية كبعض الدواوين الصغيرة ، وتصنيفه الآخر بحسب الهيكل العام للقصائد، وعدد أبياتها، وكأنما كان يجمع في ذلك التقسيم بين القديم والجديد . يضاف إلى ذلك إكثاره من نظم المقطعات الشعرية الصغيرة المؤلفة من بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة . أما القصائد المؤلفة من سبعة أبيات فسمها : السبعة السيارة .

حاول الأقدمون جمع شعره كله بما فيه الدواوين الصغيره بديوان كبير ، وكان على رأس هؤلاء بدر الدين البشتكى الذى جمع ديوان الأصل مع سائر دواوينه الأخرى ، وضم إليها المقطعات الشعرية المختلفة ، فكان لنا من ذلك الديوان الكبير الذى عرف بين الناس وتداولوه منذ القديم . أشار البشتكى إلى ذلك فى فاتحة الديوان فقال : جمعته من ديوان الأصل ، و« ظرائف الزيادة » ، و« مطالع الستة » و« المؤيديات » ، و« القبطر النبأى » ، و« جلاسة

(١) توجد نسخة خطية منه بدار الكتب المصرية ، والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت ، كما أن هناك نسخاً أخرى موزعة فى مكاتب العالم أشير إليها فى ملحق فهرس الكتب العربية المخطوطة المحفوظة بالمتحف البريطانى برقم ١٠٨٦ .

(٢) طبع بالإسكندرية طبعة مجهولة التاريخ ، وطبع جزء آخر فى المطبعة الوطنية بمصر سنة ١٢٨٨ هـ ، وطبع فى مطبعة التمدن بمصر أيضاً سنة ١٣٢٣ هـ ، وهى الطبعة التى اعتمدها فى هذه الدراسة بالرغم مما فيها من الأخطاء .

القطر ، ، و « السوق الرقيق » ، والسبعة السيارة ، ، وغالبها بخطه <sup>(١)</sup> .

أشارت بعض المصادر القديمة إلى الديوان الكبير ، فذكر ابن حجة في خزائنه : « وكنت أظن أن هذه النكته من اختراع الشيخ عز الدين الموصلي إلى أن وقفت على الديوان الكبير من نظم الشيخ جمال الدين بن نباتة ، فوجدته قد أخذها منه ، إلا أن يكون وقع حافر على حافر » <sup>(٢)</sup> .

لكنه لا يجمع مع ذلك كل شعره ، لأنني عثرت على مقطوعات وقصائد لم تنشر في الديوان الكبير ، وقد لاحظ الأقدمون ذلك ، فأشار الشوكاني إلى هذا النقص في البدر الطالع في معرض ترجمته للبدر البشتكي تلميذ ابن نباتة : « وجمع ديوان شيخه ابن نباتة ، وفاته كثير منه . فاستدرك ابن حجر مما فاته من شعر ابن نباتة نحو مجلد » <sup>(٣)</sup> .

كما ذكر الشوكاني أيضاً أن « ديوان شعره مجلد لطيف : كله غرر ، وهو موجود بأيدي الناس » <sup>(٤)</sup> .

لم يقتصر الاستدراك على ابن حجر ، فقد عثرنا بأخرة في دار الكتب الظاهرية على زيادات مستدركة على ديوان ابن نباتة . وقد جمعها رمضان ابن موسى العطيفي سنة ١٠٤٦ هـ . وقد أشار إلى عمله هذا في عنوان الديوان وفي مطلع القسم المستدرك بعد انتهائه من نسخه بقوله : « كنت كتبت ديوان الشيخ جمال الدين بن نباتة من النسخة التي جمعها بدر الدين البشتكي . ثم وقفت بعد ذلك على نسخة فيها شيء زائد على ما جمعه البدر البشتكي . فأحبيت أن يضاف إليه ، فإكان ناقصاً من التصيد . أكملته على هامش النسخة كما ترى ، والباقي كتبه في هذه الأوراق . واتكأ في جميع أمورى على الله الخلاق » <sup>(٥)</sup> .

(١) مقمته الديوان ص د .

(٢) الخزانة ص ٣٣٣ .

(٣) البدر الطالع ج ٢ ص ٩٤ .

(٤) البدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٥) زيادات ديوان ابن نباتة (مخطوط) ، ورقة ١١٨ - ١٦٩ .

يضاف إلى هذه الدواوين الشعرية التي ألفها الشاعر وجمعت في ديوان كبير واحد بعض الآثار الشعرية الأخرى التي هي منتخبات ومختارات من دواوين الشعراء الآخرين قدامى ومحدثين ، وسنحاول أن نلم ببعض هذه الآثار .

### القطر النبأتي

اقتصر فيه الشاعر على مقاطع مختارة من شعره الرقيق سما له علاقة بمذهب الشاعر في التورية . وقد سمعه الصفدي من لفظه<sup>(١)</sup> ، والجدير بالذكر أنه كان يجتمع بالشاعر في الجامع الأموي عند شباك الكاملية وقد كتب إليه ذات مرة ، وهو في القاهرة<sup>(٢)</sup> :

بحقِّكَ لا تقلُّ فيمن تقضى وفاتَ لقد مضى بالطِّبِّاتِ  
وراحَ وشعرُهُ حلو رقيقٌ فما يتكلمُ (القطرُ النبأتي)

أشار الشاعر موربياً إلى ديوانه هذا في التوقيع الذي هياه ليدخل به ديوان الإنشاء بقوله : « ويبطر الأفهام نغم كلامه الحلو ، فيتحقق الناس أنه "القطر النبأتي" »<sup>(٣)</sup>.

جاء في مقدمة هذا الديوان قول المؤلف : « كنت قدّمتُ ، لمن شرف لفظي لديه . وعُرف قدم انتسابي إليه ، نبذة من قصائد شعري المتطوّلة ، وعرضها على نقد خواطره المتطوّلة ، فقامت نبذة من المقاطيع تمدُّ لحظها ، وتطلب حظها ، قائلة : طالما كنا لك في المقاصد أعوانا ، وقاتلنا معك في الأغراض فاجعل لأسمائنا في العرض ديوانا ؛ فجمعت منها في هذه الأوراق ما إذا لحظته سعادته ، وأمدته إفادته ، استطرفت منه الأفهام ،

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢٢١ ، وكشف الظنون ج ٢ ص ٢٣٥١ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوقاي بالوفيات ص ٢١٤ ، والمجل الصافي (مخطوط) ورقة ٧١ ج ٦ . ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس رقم (Arabe 2234) في مجموع . كما ذكر الزركلي أنه رأى منه نسخة بمكتبة اللورنزيانة (Orien 286)

(٢) الوقاي بالوفيات ص ٣١٩ .

(٣) الوقاي بالوفيات ص ٣٢٧ .

وتسترت وجوه الأزاهر خجلا منه بالاكمام ، وسميتها ( القطر النباني ) لأنها قطر من وابل ، ولأن اسم " أبجد " المشهور لهذه التورية قابل <sup>(١)</sup> يتألف هذا الديوان من خمسة فصول : أولها في المدح والشكر والثناء وما أشبه ذلك ، والثاني في الغزل وما أشبهه ، والثالث في الرثاء . والرابع في المداعبة والحجون ، والخامس في الأوصاف والأغراض المختلفة .

تناقل الأقدمون هذا الديوان لأنه يمثل المذهب الشعري السائد في هذا العصر . فهو ضروري لكل شاعر ومتأدب لينسج على منواله . يقول تقي الدين البدرى : « ونقلت من "القطر النباني" قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة : رَبِّ رَاحِ بَيْتٍ أَشْرَبُهَا مِنْ يَدَيَّ حُلُوِّ اللَّمَى خَنْثٍ <sup>(٢)</sup> لاحظنا أن ابن حجة اعتمد على هذا الديوان في باب التورية من شرح بديعته ، ولانبالغ إن قلنا : إن معظم ما في هذا الباب مستمد من هذا الديوان .

### منتخب الهدية في المدائح المؤيدية

جمع الشاعر مدائح الملك المؤيد في ديوان مستقل لكثرتها وأهميتها ، وسمّاه « منتخب الهدية في المدائح المؤيدية » <sup>(٣)</sup> . وقد أطلق عليه القداماء أيضاً اسم « المؤيديات » و « الديوان الصغير » و « ديوان ابن نباتة » . تحدث الشاعر في خطبة هذا الديوان عن الملك المؤيد . ومما قاله بعد الحمد والصلاة : « فإني لما نسبت بالمدائح السلطانية . الماكية المؤيدية العمادية . واشتهرت بذكرها اشتهار السجع في الحمام . وعرفت في تسطيرها مجمل ألف القلم وسرد لأمة الطرس فُعُرفت - كما يقال - بالألف واللام . أمرني بعض

(١) القطر النباني (مخطوط) ورقة ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) راحة الأرواح (مخطوط) ورقة ١٠٧ .

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والخزافة ص ٢٩٢ ، والوقاي بالوفيات ص ٢١٤ .

والنهل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٧١ ، وكشف الظنون ج ٢ ص ١٨٥٠ وقد طبع بالمطبعة الكاسطية سنة ١٢٨٩ هـ ، وفي بيروت ١٣٠٤ هـ ، وفي مصر ١٣٢٣ هـ . ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة كوبلريلي باستنبول بخط الشاعر ، وعنها مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

أولياء دولته الزاهرة ، وأغدياء نعمته الباهرة ، أن أجمع له نبذة من تلك المدائح التي أجلبُ بضائعها لسوق كرمه ، والهدايا التي أقدم بها كل عام لأبواب حرمه ، فقابلت بالطاعة أمره ، وقضيت لحاجته حاجة في النفس مسترة ، وقلت : تاريخ فضل تزدهم الأسماع عليه ، وتصنيف أدب تأدب التصانيف على الحقيقة بين يديه ، وألغاز طوقها المنّ فصلحت ، ومعان نُفخت فيها أنفاسُ الفضل فنفت ، وأوصاف شهية عرضت على الذوق والعين فعذبت وملحت ، وفي مثل هذه النعمة يتنافس المتنافس ، وعندها تنادى ورفاء نفس القلم فوق فرعه المائس <sup>(١)</sup> .

لايحتوى هذا الديوان الصغير للمؤيدات على كل ما قاله الشاعر في الملك المؤيد من مدائح ، وإنما اقتصر على أربع وعشرين قصيدة وثلاث موشحات وزجل واحد ، كما يضم عشر مقطوعات ، منها سبع ثنائية ، وثلاث ثلاثية .

### نظم السلوك في مصايد الملوك

سمعها الصفدى من ابن نباتة ، وهي أرجوزة في وصف رحلة صيد ممتعة ، صعب الشاعر فيها الملك الأفضل وعدد أبياتها سبعة وستون ومائة بيت ، وقد أشار إليها ابن حجة الحموى في خزائنه بمعرض حديثه عن الانسجومات إذ يقول : « ومن الانسجومات الموجزة التي لو أدركها الشريف لتطفل على نسيم أبياتها واعترف أن ما للصادح والباغم تغريد صادحاتها ، أرجوزة الشيخ جمال الدين بن نباتة الموسومة بـ « نظم السلوك في مصايد الملوك » <sup>(٢)</sup> .

تمثل هذه القصيدة اتجاهاً خاصاً في الشعر العربي في ذلك العصر ، وهي تصف لنا الطبيعة الرائعة ، وتنتقل من وصفها إلى التحدث عن الطيور ، وذكر صيدها بالبندق ، وقد عثرت على رسالة ثرية لشهاب الدين محمود ، تدور حول

(١) المؤيدات ، ص ٢

(٢) الخزانة ص ٣١٥ ، والدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢١٩ - ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، والديوان ص د وكشف الظنون ج ٢ ص ١٢٤٣ . منه نسخة مخطوطة في برلين ، وأخرى في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، ونشرها الدكتور أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٢ ص

الموضوع ذاته في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » ، وتكاد تكون الطريقة واحدة في عرض الصور الشعرية ، لولا أن هذه نظمت شعراً ، وهاتيك سطرت نثراً . وقد لفت نظري أن ابن نباتة ألحق هذه الرسالة الشهابية التي سميت (رسالة البندق) بكتابه سجع المطوق . وبدلنا هذا على علاقة متبادلة في هذا الفن الأدبي بين الشاعرين وبين أدباء العصر عامة .

كما لفت نظري أيضاً في هذه الأرجوزة الفريدة وصف مملكة حماة وطبيعتها ونواعيرها وواديها ، فأحببت أن أورد مطلع هذه الأرجوزة لأبين أثر الطبيعة الحموية في شعر ابن نباتة :

أثنى شذا الروض على فضل السحب	واشتملت بالوشى أرداف الكُثب
ما بين نورٍ مُسْفِرٍ اللّثامِ	وزهرٍ يضحك في الأكمامِ
إن كانت الأرض لها ذخائرُ	فهى لعمري هذه الأزاهرُ
قد بسطتها راحة الغمامِ	بسطَ الدنانيرِ على الدراهمِ
أحسن بوجه الزمنِ الوسيمِ	تَعرفُ فيه نضرة النعيمِ
وحبذا وادى حماة الرحبُ	حيثُ زهى العيش به والعشبُ
أرض السناء والهناء والمرحُ	والأمن واليُمنِ وراياتِ الفرخُ
ذاتُ النواعيرِ سقاةِ التربِ	وأمهاتِ عصفه (١) والأب (٢)
تعلّمت نوح الحمامِ الهتفِ	أيامَ كانت ذات فرعٍ أهيفُ
فكلها من الحنينِ قلبُ	لا سيمًا والماء فيها صبُ
لله ذاك السفحُ والوادي الغردُ	والماء معسولُ الرضابِ مطردُ
يصبو لها الرائي وهفو السامعُ	ويُحمدُ العاصي فكيف الطائعُ
إذا نظرت للربا والنهرِ	فارو عن الربيعِ أو عن جعفرِ
محاسنُ تلهى العيونَ والفكرُ	ربيعُ روضاتٍ وشُحورُ صَفَرُ
أمامَ كلِّ منزلٍ بستانُ	وبينَ كلِّ قريةٍ ميدانُ

(١) عصفه : العصف هو ورق الزرع أو بقله .

(٢) الأب : الكلا والمرعى أو ما أنبتته الأرض من العشب رطبه ويابه .

أما رأيتَ الورقَ في الأورافِ جاذبةً القلوب بالأطواقِ  
 فبادرِ اللذةَ يا فلانُ واغنمِ متى أمكنتك الزمانُ  
 ولا تقُلْ مشئى ولا مَصيفُ فكلُّ وقتٍ للهنا شريفُ  
 كلُّ زمانٍ ينقضى بالجسدِ كلُّ زمانٍ عيشٍ كيفما دارَ اعتدلُ  
 أحسنُ ما أذكرُ من أوقاتهٍ وخيرُ ما أبعثُ من لذاتهِ  
 بروزنا للصيدِ فيه والقنصُ وحوزنا من مرهٍ أحلى الفرضِ  
 وأخذنا الوحشَ من المساربِ وفعلنا في الطيرِ فوقَ الواجبِ  
 لما دنا زمانُ رمى البندقُ<sup>(١)</sup> سِرنا على وجهِ السرورِ المشرقِ...<sup>(٢)</sup>  
 أما هذه الأرجوزة الرائعة فقد قيلت في مدح الأفضل عند ما كان  
 يدعى بلقبه الأول وهو المنصور ، ويعنى ذلك أنه ألقبها له في أول عهده  
 بالحكم أو في أواخر أيام أبيه المؤيد، وكان إذ ذاك ولياً للعهد .

### المنتخب المنصوري

سمعه الصفدى من انمظه وهو الوحيد الذى ذكره من بين العلماء<sup>(٣)</sup> ولعل  
 الشاعر جمع فيه كل ما قاله في مدح الملك الأفضل ، وسبق لنا أن ذكرنا أنه  
 كان يسمى بالمنصور . على نمط ما فعله في المدائح المؤيدية التى قالها في أبيه

### سوق الرقيق

اقتصر الشاعر فيه على انتخاب بعض أبيات قصائده فى النسيب والغزل  
 وغير ذلك ، ويقف فيها عند بيت التخلص . ذكر جامع الديوان البشتكى  
 أنه كان أحد مصادره فى جمع الديوان الكبير<sup>(٤)</sup> ، وقد ذكر لنا قصيدة  
 غزلية قال إنها من سوق الرقيق ، وهى مؤلفة من أربعة أبيات :

(١) البندق : الذى يرى به ، وهو فى الأصل ثمرة شجرة الواحدة منه بندق .  
 (٢) الديوان ص ٥٨٥-٥٨٧ ، والخزافة ص ٣٢٥ ، والمهبل الصافي (مخطوط) ج ٦ ورقة ٢٩٤  
 (٣) الواقى بالوفيات ص ٣٢٠  
 (٤) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، والديوان ص د ،  
 و ص ٤٩ . ذكر بروكلمان أنه توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة برلين ، وأخرى فى المكتبة الأهلية  
 بباريس ، وقد أطلعت عليها وهى ضمن مجموع ، وشاء فيه « مختار ديوان الشيخ جمال الدين  
 ابن نباتة المشهور : ( سوق الرقيق ) » رقم 3362 . Arabe .

سلامٌ على عهدِ الصَّباةِ والصَّبا سلامٌ بعيد الدار لا غرَّو إن صبا  
مفارقُ أوطانٍ له وشبيبة إذا شرقت أهلُ التَّواصلِ غرباً  
يعاودُ أحشاهُ من الشوقِ فاطرٌ ويتلو عليه آخرَ الآي من « سباً »  
وما زال صَباً بالأحبةِ والهأ إلى أن حكاهُ دمعهُ فتصَبَّبا<sup>(١)</sup>

أشار تقي الدين البدرى إلى هذا الديوان . وقال : نقلت من ( سوق  
الرفيق ) للشيخ جمال الدين محمد بن نباتة قوله :

عَوَّضَ بِكَأْسِي مَا أَتَلَقْتُ مِنْ نَشَبٍ فَالكَأْسُ مِنْ فِضَّةٍ وَالرَّاحُ مِنْ ذَهَبٍ<sup>(٢)</sup>  
رتب هذا الديوان بحسب تسلسل الحروف الأبجدية .

### جلاسة القطر

نظن أنه تنمة للقطر النباني الذى ألفه فى المرحلة الأولى . أو أنه مختار من  
مؤلفه المذكور . ولم أعثر على أى إيضاح يتعلق بذلك سوى ما أشار إليه جامع  
ديوانه إلى أنه أحد مصادره . ولعل فيما ذكره ابن حجة فى خزائنه عن جماعة  
نسجوا على منواله ما يعطينا شيئاً من الإيضاح يلقى النور على هذا الأمر :  
« وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله فى عصره .  
لكن الذوق السليم يشهد أنهم جلاسة<sup>(٣)</sup> قطره<sup>(٤)</sup> » .

أورد ابن حجة هذا القول فى معرض الحديث عن التورية والاستخدام .  
وقد ألقى النور على هذه الجلاسة من القطر النباني . إنها إذاً التورية . ونعتقد

( ١ ) الديوان ص ٤٩ ، ولم نعثر عليها فى مخطوطة سوق الرفيق .

( ٢ ) راحة الأرواح ( مخطوط ) ورقة ١٠٦ .

( ٣ ) جلاسة : الجلئس بالفتح الغليظ من العسل ، وبقية العسل فى الإناء ، وعند ابن  
سيده : الجلئس هو العسل ، وقيل هو الشديد منه ، وقد سمي جلاساً وجلاساً . قال سيديويه عن الخليل  
هو مشتق .

( ٤ ) الخزانة ص ٥٥ .

بعد هذا أن المقصود بها هو المقطوعات الشعرية الصغيرة التي نظمها في التورية والاستخدام ، وهذا يوضح لنا المذهب الرمزي الذي أخذ به نفسه ، وألف بسببه بعض الدواوين الشعرية الخاصة .

### السبعة السيارة

هي كذلك أحد الدواوين الصغيرة التي اعتمد عليها البشكى في جمع ديوانه الكبير<sup>(١)</sup> وأعتقد أنها موجودة بكاملها فيه ، أما القصائد التي تتألف من سبعة أبيات فكثيرة جداً . ولم يشر البشكى إلى أنها من السبعة السيارة إلا في مرات محدودة . ولعل هناك سبباً في هذه التسمية وتحديد أبياتها بسبعة ، كما حددها العروضيون ، ولا يبعد أن يكون المؤيد قد اقترح عليه هذا الأسلوب في الشعر في أواخر حياته . لأننا لانعثر خلال مطالعتنا الديوان إلا على بعض المؤيديات والأفضليات ، ويعنى هذا أنه بدأ بنظمها في المراحل الأخيرة من حياته وطفغ على شعره طغياناً كبيراً .

يؤيد ما نذهب إليه أن المنصور الثاني جد الملك المؤيد كان قد اقترح على شعرائه المادحين ألا تتجاوز القصيدة سبعة أبيات<sup>(٢)</sup> . ولعل المؤيد بدوره أطلع شاعره عن ذلك .

ثابر على أسلوبه في السبعة السيارة حتى أواخر عمره . والدليل على ذلك أننا نجد مدائح كثيرة منها قيلت في السلطان الناصر حسن وأمين سره علاء الدين ابن فضل الله .

أما موضوعاتها فمختلفة ، تجمع بين المدح والثناء والغزل وغيرها من الأغراض المعروفة ، ولا يجمع هذه القصائد في هذا الديوان الفريد إلا وحدة الهيكل الشعري القائم على التقيد بعدد الأبيات . كما لاحظت أنه كان يخص قسماً من ممدوحيه بهذه السبعة السيارة ، نذكر منهم تاج الدين السبكي<sup>(٣)</sup> ، فمعظم مدائحه كادت

(١) الديوان ص ٤٦ ، ٧٤ ، ٢٢٥ ، ٣٠٨ ، ٣٤٩ ، ٤١٠ ، ٤٦١ ، ٥١٩ ، ٥٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٢٦ .

(٣) الديوان ص ١٥٨ ، ٢٢٦ ، ٣٠٩ ، ٣٤٩ ، ٥٧٤ .

تكون من هذا النوع ، ونور الدين بن حجر<sup>(١)</sup> وغيرهما من الممدوحين . وقد لفت نظري استخدامه هذه التسمية في معرض مدحيه أيضاً ، وقد تبين لنا هذا عندما أنشده يتقاضى رسم ممش . وحماة مشهورة بمشمشها الحموي الذائب :

مُبلبلُ أصداغٍ أثارَتْ بِلابلِي	وَجَرَّتْ هَوَى عَشَّاقِهَا بِالسَّلَاسِلِ
وَمِشْمِشُ بَسْتَانِ ثُرَيَّاهُ أَشْرَقَتْ	وَأَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ ؟
بَلِي إِنْ تَصَافِحُ بِالرَّجَا يَدَ أَحْمَدِ	تَصَافِحُ ثُرَيَّاهَا يَدُ الْمُتَطَاوِلِ
كَرِيمٌ شَكَّتْ يُمْنَى الْغِيُوْثِ شِمَالَهُ	فِيَالِكَ مِنْ غَيْثِ كَرِيمِ الشَّمَائِلِ
مَقْسَمَةٌ جَدَوَاهُ بَيْنَ فَوَاضِلِ	لِمَدَاحِهِ تُهْدَى وَبَيْنَ فَضَائِلِ
تَعْلَمُهُمْ نَظْمَ الثَّنَا مُبْدِعَاتُهُ	فِيَا لِعَقُولِ حَتَّى بَعْقَائِلِ
عَلَى «السَّبْعَةِ السِّيَارَةِ» اِمْتَاَزَ فَضْلُهُ	فَلَا زَالَ ذَا طَوْلٍ <sup>(٢)</sup> عَلَيْهَا وَطَائِلِ <sup>(٣)</sup>

تؤكد هذه السبعة أن كل قصائد هذا الديوان ذات سبعة أبيات هي بالضرورة من السبعة السيارة ، لأنه لم يذكر عندما أوردتها جامع الديوان أنها من السبعة السيارة ، وإنما ذكر أنه أنشدها يتقاضى رسم ممش ، دون أن يجشم نفسه عناء ذكر اسم الممدوح الذي قيلت فيه .

### ظرائف الزيادة

نعتقد أنها مقطوعات شعرية صغيرة<sup>(٤)</sup> تتألف من بيتين أو يزيد ، ولعل الشاعر أراد من ذلك أن يضمها ملحة أو نكتة أو لغزاً أو ما يستحسنه من ظرائف المجون وظرائف الزيادة ، تدور حول إحدى تورياته البديعية أو غيرها،

(١) الديوان ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨ .

(٢) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والنفي والسمة .

(٣) الديوان ص ٤١٢ .

(٤) الديوان المقدمة ص د .

ولا نعرف عن هذا الديوان إلا أنه أحد المصادر التي اعتمد عليها البشتكى في جمع الديوان الكبير .

### مطالع الستة

دعها بعض المصادر باسم مطالع السنة<sup>(١)</sup> . وهي تشمل مطالع قصائده في الغزل والنسيب مما يتألف من ستة أبيات أو من القصائد التي تتألف بشكل عام من ستة أبيات ، إن جاز لنا أن ندعوها قصائد متجاوزين تعريف العروضيين . والدليل على ذلك أن جامع الديوان البشتكى سمي قسماً من مقطوعاته الشعرية بحسب عدد أبياتها . فذكر « المثاني »<sup>(٢)</sup> . و « الثلاثيات »<sup>(٣)</sup> و « الخمسيات »<sup>(٤)</sup> و « السبعة السيارة » . ولكنه لم يشر إلى المقطوعات التي تتألف من ستة أبيات إطلاقاً . وهي كثيرة موفورة العدد وأظن أن الصحيح هو ما أقوله ، وأنها مطالع الستة لا مطالع السنة .

لم يقف ابن نباتة عند هذا الحد . بل سلك سبيل غيره من الشعراء السابقين أمثال أبي تمام وأبي عبادة وأبي العلاء . واختار من دواوين الشعراء جملة منها ديوان ابن الرومي . وديوان ابن سناء الملك . وديوان شرف الدين عبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة . وديوان ابن قلاقس ، وديوان ابن حجاج<sup>(٥)</sup>

### مختار ديوان ابن الرومي

يشتمل على طائفة من مختارات شعره في ذكر النسيب والتشبيب والعتاب والاستعطاف والهجاء والرثاء والأوصاف وغير ذلك<sup>(٦)</sup> .

(١) المصدر السابق .

(٢) الديوان ص ٤٩ .

(٣) الديوان ص ٧٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الواقي بالوفيات ص ٣٢٠ .

(٦) أرشدنا إلى هذا الديوان الأستاذ العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم ، وذكر أنه توجد منه =

## مختار ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى

ذكره الصفدى فى جملة تصانيف الشاعر ، ولا نعرف عنه شيئاً .

## مختار ديوان ابن سناء الملك

ذكره الصفدى كذلك ، ولا نعرف عنه شيئاً .

## مختار ديوان ابن قلاقس

اختار ابن نباتة من هذا الديوان ما أعجبه وراق له ، وما يوافق مذهب العصر فى الشعر ، وما كان من أبناء فكره . وحذف منه ما نسب إليه فى ديوانه من غير شعره ، ورتبه على حروف المعجم ، وقد افتتح هذا الاختيار غير شعره ، ورتبه على حروف المعجم ، وقد افتتح هذا الاختيار بقوله : « طالعت ديوان الأديب البارع أبى الفتوح نصر الدين بن قلاقس . فطالعت الفن الغريب وفتح على بتأمل ألفاظه فتلوت : نصر من الله وفتح قريب ، بيد أنى وجدت له حسنات تبهى العقول فضلا ، وسيئات يكاد يذكرها ابن قلاقس يُقلى » (٢) .

تعطينا هذه المقدمة فكرة عن الروح النقدية التى يتمتع بها ابن نباتة . وقد طالع ديوانه ، واختار منه حسناته وترك سيئاته بعد أن أشار إليها . عرض ابن حجة خلال حديثه عن « براعة الاستهلال » بعض ما اختاره ابن نباتة من شعر

= نسخة مخطوطة فى مكتبة أيا صوفيا بالآستانة ، وعنها مصورة دار الكتب المصرية برقم ٥٢٢٢ هـ أدب .

انظر مقدمة (سرح العيون) ص ٢٢ .

(١) خزنة الأدب ص ٦ .

ابن قلاقس وما قاله : « وما اختاره الشيخ جمال الدين بن نباتة - رحمه الله - من ديوان أبي الفتوح نصر الدين بن قلاقس ، وهو حسن في هذا الباب قوله :  
 كم مقلّة للشقيق الغض رمداء إنسانها سابح في بحر أنداء  
 وقوله :

قفا واسلاً منى زفيراً وأدمعاً أكانا لهم إلا مصيفاً ومرعباً  
 وهو من الغايات التي اختارها ابن نباتة من شعر ابن قلاقس ،<sup>(١)</sup> وقد ذكره الصفدي في جملة مؤلفاته<sup>(٢)</sup>.

### تلطيف المزاج في شعر ابن حجاج

أشار الصفدي أيضاً إلى أن ابن نباتة اختار من ديوان شعر ابن حجاج<sup>(٣)</sup> ، وهو اختيار جيد ، وقد أعجب ابن حجة كثيراً بهذا الاختيار ، ونوه كثيراً بمقدمة ابن نباتة ، وأوردها وأشار إليها مراراً . ولعل من الخير أن نورد هنا هذه المقدمة توضيحاً لرأيه في شعر ابن حجاج ، إذ يقول في خطبة كتابه : « فإني رأيت نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض ، وأمم أشعارهم تبعث جميعها في صعيد واحد من الأرض إلا أشعار الأريب الفريد أبي عبد الله الحسين بن الحجاج ، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها ، وذرية عجيبة تبلغ بإتقان اللهو واللعب رشدها ، لم يحط خاطر أحد بمثلها خيراً ، ولا استطاع على معارضة شهدها صبراً »<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق .

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط محمود النابلسي ، وأخرى بالمكتبة الأزهرية ، وطبع بمطبعة الجوائب بمصر سنة ١٣٢٣ هـ باسم (ديوان ابن قلاقس) بتصحيح الشاعر الكبير خليل مطران . انظر مقدمة تحقيق (شرح العيون) للأستاذ العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٣) الحسين بن أحمد ، وقد عرف بالفكاهة والمجون ، توفي ببغداد سنة ٣٩٨ .

(٤) تأهيل الغريب ص ٢٩٧ ، والخزانة ص ٤٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، وكشف الظنون ج ١ ص ٤٨٠ ، وهذا الكتاب مخطوط في أكسفورد وبودليانا .

يمثل ابن حجاج مدرسة خاصة في الشعر العربي خلال القرن الرابع الهجري، وقد فصلنا مذهب هذه المدرسة النحاقية في عرضنا الحياة الفكرية، ويكفي أن نشير إلى إعجاب ابن نباتة بهذا الأسلوب الفريد. وقد عثرنا على مقطعات شعرية صغيرة تسير في هذا الاتجاه. ولم يفصل الشاعر ذلك إلا تشبهاً بهذه المدرسة الغربية ليكون قد أخذ من كل شيء بطرف ولاسيما وهو أمير شعراء العصر.

يوسفنا أننا لن نجرؤ على إيراد نماذج تطف مزاجنا من شعر ابن حجاج، لأن حدود الحشمة تردعنا عن التمثل بها. ولا بأس علينا أن نورد من بعض القصائد مطلعها، لأن ما لا نستطيع أن نذكره كله لا نترك أوله:

تفديك أُمى وأبى      وابنى وإن كان صبي  
يا من إليه حيناً      وجلته منقلبي  
يا من مديح غيره      عندي عزيز المطلب<sup>(١)</sup>

وفي قصيدة أخرى يستهلها قائلاً:

يا ديمة الصفع صُبي      على قفا المتنبي<sup>(٢)</sup>

أظن أنه خير لنا أن نقف عند هذا الحد، وقد أورد ابن حجة قدراً كبيراً مما اختاره ابن نباتة، نكتفي بالإشارة إليها، وهذا حسبنا، وإن لم يكن لنا فيه تلطيف المزاج.

### خبز الشعير

ليس بديوان شعر، ولا بمختارات من دواوين الشعراء، وإنما هو كتاب يصح أن ندرجه في كتب نقد الشعر، لأن ابن نباتة صور فيه ما وقع بينه وبين

(٢) الخزانة ص ٤٠٧.

(١) الخزانة ص ٤٦، ٤٧.

تلميذه صلاح الدين الصفدى ، إذ جمع كل ما سرقه منه أو عارضه به ، وسماه : « خبز الشعير » لأنه مأكول مذموم . فقوله مأكول لأنه سرق شعره ، وقوله : مذموم ، لأنه زعم أنه يسرق غيره من الشعراء ، فهو بذلك استوفى المثل العربى حقه فى تسميته كتابه هذا .

أما المثل العربى السائر فهو : ( الشعير يؤكل ويذم ) ، وقد ضرب هذا المثل لكل من يتنفع به ويجازى بالقبیح . ذلك أن الشعر يؤكل فيسمن ، ويغنى عن جوع وهو مذموم<sup>(٢)</sup> . والصورة الأخرى لهذا المثل القديم : ( خبز الشعير يؤكل ويذم ) ، وهذا كالمثل السابق أكلاً وذمماً<sup>(٣)</sup> ، أعجب ابن حجة بهذا الكتاب ، فأشار إليه مراراً فى تصانيفه ، وذكره أكثر من مرتين فى خزائنه حتى أوردته كاملاً فى باب التورية<sup>(٤)</sup> .

لا بأس أن نذكر مقدمة هذا الأثر ، لنعرف غرضه فيه وغايته منه ، وقد أوردها ابن حجة كاملة فى معرض حديثه عن براعات النثر فى الاستهلال<sup>(٤)</sup> ، واستهل خطبة الكتاب بقوله تعالى « رب اغفر لى ولوالدى ولن تدخل بيتى مؤمناً .. » وقال بعدها : « اللهم ومن دخل بيتى كافراً بفوائدى المنعمة ، وبيت شعرى سارقاً من أنفاظه ومعانيه المحكمة ، فأحجلته فى سره وعلانيته ، وعاقبه على قوله ونيته . » وفيها يقول : « بلغنى أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودتى ، وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندى ، وأقمته - وهو لا يدرى الوزن - مقام من زكاه نقدى ، وأودعته ذخائر فكرى فأنفقها ، وأعرته أوراق العتيقة فلا والله ما ردها ولا أعتقها ، بل إنه - والله - غير الشاء بالهجاء ، والولاء بالجفاء ، ونسبى إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغناء عنها والغنى ، فتغاضيت وقلت : همّاز مشاء بنميم ، وغصّة صديق أنجرعها من حميم ، وأخلّيت من حديثه باب فى مجلس صدرى ، وصرفت ذكره عن فكرى ، ولكن وقفت له على تصانيف وضعها فى علم الأدب

(١) شرح المفصل ج ١ ص ٥ .

(٢) أمثال الميدانى ج ١ ص ٣٣٤ .

(٣) خزانة الأدب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٤) خزانة الأدب ص ١٣ ، ١٤ .

والعلم عند الله تعالى ، وشحها بشعره وشعرى المفضوب المهبوب ، يقول صاحبي :  
 (ألا لا) <sup>(١)</sup> وما يتوضح من جيد تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظي مشكاتها .  
 ولا تتضوع زهرة إلا وفي الحقيقة نباتها ، فضحكت - والله - من ذهنه الداهل ،  
 وذكرت على زعمه قول القائل :

وفتَى يقولُ الشعرَ إلا أنه فيما عَلِمْنَا يَسْرِقُ المسروقاً

وعجبت كيف رضي لنفسه هذا الأمر منكراً ، وكيف حلا لذوقه اللطيف  
 هذا الحرام مكرراً ، وقد أوردت الآن في هذا الكتاب قدراً كافياً ، ووزناً من  
 الشعر وافياً ، سميته « خبز الشعير » المأكول المذموم . وعرضته على معدلة  
 مولانا ليعلم أينما مع خليله مظلوم؛ <sup>(٢)</sup> .

رتب ابن نباتة كتابه المذكور على قوله : ( قلت أنا ) فأخذه الشيخ صلاح  
 الدين ( وقال ) ، ولعله من الواجب علينا أن نورد بعض ما قاله السارق  
 والمسروق . ومما جاء في خبز الشعير قوله :

— قلت أنا :

بروحى عاطرُ الأنفاسِ ألى ملى الحسنِ حالى الوجنتين  
 له خالان فى دينار خدُّ تباعُ له القلوبُ بحبتين  
 — فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى ، وقال :

بروحى خدُّه المحمرُّ أضحى عليه شامةٌ شرط. المحبَّة  
 كأنَّ الحسنَ يعشقه قديماً فنقطه بدينار وجبة <sup>(٣)</sup>

فلما وقف ابن نباتة على هذين البيتين قال متبهما : ( لا إله إلا الله ،  
 سرق الشيخ صلاح الدين - كما يقال - من الحبطين حبة ) <sup>(٤)</sup> هذا مظهر

(١) ضمن الشاعر قول سليك بن سلكة السعدى ، أحد صالِك العرب :

يا صاحبي ، ألا لا حى بالوادى إلا عبيدٌ وأمٌ بين أذواد  
 الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٢٦ .

(٢) خزنة الأدب ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥ . (٤) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

من مظاهر الحركة النقدية النباتية ، وكان هذا النزاع الأدبي يمثل لنا أثر أدبنا الكبير في خلق هذه الثورة الأدبية في عصره . ولعل أصيب لوقت : إن الصفدي أراد من ذلك استشارة ابن نباتة ليكسب شهرة بذلك . ولقد تعدى هذا الأمر هذا الطور ، وبلغ الأمر حدًّا جعل الصفدي ينعت أستاذه بالسرقة من أشعار العرب ، ولقد تأثر كثيراً ، وذكر أنه كان يود ألا يجيبه وألا يتعرض له ، لكنه لم يستطع عليه صبراً بل انبرى له ، فكان ثمرة ذلك خبز الشعير .

وحديث بالذکر أن نشير في ختام حديثنا عن آثاره الشعرية إلى أن ابن حجة اختار مجموعة من غرر شعره سماها « بياض النبات »<sup>(١)</sup> وهي ما تزال مخطوطة ، وأن أديباً مجهولاً اختار من شعره مجموعة في المديح وغيره ، سماها « الدرر المقتاتة من مختار شعر ابن نباتة » ، واستهلها بقوله : « قال الشيخ الإمام العلامة جمال الدين ، عمدة الأدباء فخر الكتاب . . . »<sup>(٢)</sup> .

تشتمل هذه الدرر المقتاتة على قصائد في المديح وجور الظلمة ، وفي هامشها تقييدات ، وتليها نقول أدبية ، ولم تزل هذه المختارات مخطوطة كعظم مؤلفاته المار ذكرها .

### القسم الثاني

#### تصانيفه النثرية

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن أشهر آثاره النثرية — بالإضافة إلى آثاره الشعرية — قد وضعت للملك المؤيد أي الفداء وبتشجيع منه . ولعل فيما أورده خلال إجازته للصفدي من ذكر أسماء مؤلفاته خير دليل على ما نذهب إليه ، بله ما يقوله ابن نباتة نفسه في فاتحة خطبة كل كتاب . ولا بد لنا لدراسة هذه الآثار من أن نصنفها بحسب مراحل تأليفها ، فنقسمها إلى زميتين :

(١) توجد منها نسخة مخطوطة بخط ابن حجة في مكتبة أحمد الثالث باستنبول .

(٢) توجد هذه المختارات ضمن مجموعة مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم ٧٢ مجامع

## آثار المرحلة الأولى

تنتهى هذه المرحلة بوفاة الملك المؤيد ، وأشهر آثاره التي صنفها هي التالية :  
 كتاب « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » ، « كتاب « سجع المطوق » ، وكتاب  
 « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، وكتاب « الفاضل من إنشاء  
 الفاضل » ، وكتاب « زهر المثور » ، وكتاب « شعائر البيت التقوى » و « رسالة  
 السيف والقلم » .

## مطلع الفوائد ومجمع الفرائد

كتاب « نقيس في الأدب »<sup>(١)</sup> موزع على ثلاثة أقسام : القسم الأول  
 خاص بفرائب الحديث النبوي والأساليب العربية وأبيات المعاني المشككة ،  
 والقسم الثاني خاص بمبتدعات الشعراء ومخترعاتهم ، والقسم الثالث خاص  
 بمبتدعات الكتاب المخترعة .

والكتاب على جانب كبير من الأهمية ، وكان المؤلف حريصاً في القسم  
 الثاني والقسم الثالث على بيان مترلته بالنسبة إلى الأدباء قديماً وحديثاً .

أشار المستشرق الفرنسي البارون دوسلان (Le Baron de Slane) إلى  
 أهمية هذا الكتاب ، ووضعه ضمن الفهرس الذي وضعه للمخطوطات العربية<sup>(٢)</sup>  
 وضع المؤلف فيه ثمرة ثقافته الواسعة في مصر والشام ، وقدمه للملك

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، ٢٢١ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوفاء بالوفيات  
 ص ٢١٤ ، وكشف الظنون ج ١ ص ١٧٢ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، وتوجد منه  
 نسخة خطية في باريس ، رقم ( Arabe 3344 ) ، ونسخة ثانية بمكتبة طلعت بدار الكتب  
 المصرية برقم ٤٥١٠ . أدب ، وثالثة بالمكتبة الأزهرية برقم ٤٧٣ أدب أباطة ، ورابعة بمكتبة  
 خالت أفندي ، وغيرها مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أتمت تحقيق هذا الكتاب  
 القيم ، وهو الآن قيد النشر والطبع في مجمع اللغة العربية بدمشق ، وسوف يتم صدوره في بحر هذا العام .

De Slane : Catalogue des manuserits Arabes No : 3344, P, 1558 (٢)

المؤيد أنى الفداء ، وقد أحدث ثورة أدبية كبرى وحركة نقدية شاملة فى عصره ، فانبرى لتقريبه كبار أدباء العصر وشعرائه ، أمثال الشهاب محمود والقزوينى والزملكانى وغيرهم ، وقد أشار عليه المؤيد أن يترجم للأدباء الفضلاء الذين تناولوا مؤلفه باثشاء قلبى أمره ، وكان لنا من ذلك كتابه سجع المطوق .

### سجع المطوق

أما اسم هذا الكتاب<sup>(١)</sup> فيذكر ابن حجة أن ابن نباتة اقتبس من لطائف أبى الحسين الجزار فى تورية المطوق كما فى قوله :

أنتَ طَوَّقْتَنى صَنِيعاً وَأَسْمَةً      تُكْ شُكراً كِلاهُما ما يَضِيعُ  
فِإِذا ما شِجَاكَ سَجِعى فِإِنِّى      أنا ذاكَ المَطوَّقُ المَسجوعُ<sup>(٢)</sup>

أشار ابن نباتة فى مقدمة الكتاب إلى سبب تأليفه ، وذكر سبب تسميته ، فقال : « وسميته سجع المطوق لتطويقي بالإنعام ، ولسجعى بالمحامد على غصون الأقاليم »<sup>(٣)</sup> وقد ترجم للفضلاء الذين قرظوا كتابه « مجمع القوائد » منهم الشهاب محمود ، والجلال القزوينى ، وكمال الدين بن العطار ، وأمين الدين بن النحاس ، وبهاء الدين بن غانم ، وغيرهم . وأورد بعد ذلك نبذة من مكاتباته ، وقد أُلحق بالكتاب بعض الرسائل الهامة مثل « مفاخرة بين الورد والرجس » وغيرها<sup>(٤)</sup> .

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٧ ، والخزانة ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، والوفاى بالوفيات ص ٢١٤ ، والبدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، ومنه نسخ خطية موجودة فى دار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت والمكتبة الأزهرية ، ومنه نسخة أخرى مخطوطة فى المدرسة العبدلية فى الموصل ، ذكرها الدكتور داود جليلى فى كتابه « مخطوطات الموصل » فى الصفحة ١٦٥ رقم ٤ ، ومنه نسخ أخرى فى دار الكتب المصرية ، وأيا صوفيا ، و حكيم أوغل بإستانبول رقم ٤٤٥ وفى معهد المخطوطات ( ف ٤٥٨ أدب ) وهى بخط المؤلف نفسه .

(٢) خزانة الأدب ص ٢٥١ ، ٢٥٢ . (٣) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٢

(٤) المصدر السابق ورقة ٦٦ .

## شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون

ألف ابن نباتة هذا الكتاب<sup>(١)</sup> أيضاً تلبية لطلب الملك المؤيد ، وقد أشار في مقدمته إلى ذلك ، وأوضح أنه اعتذر للملك تواضعاً . وقد أُلح عليه بقبول هذه المهمة . فقابل أمر الملك بالطاعة الواجبة . كما أوضح بعض العقبات التي اعترضت سبيله في شرح رسالة ذي الوزارتين ابن زيدون ، وذكر أنه لم يتيسر له أن يراجع بعض الأسفار في خزائن دمشق الوقفية<sup>(٢)</sup> .

بدأ الرسالة فترجم لمنشئها ، وبين سبب إنشائها ، وتناولها بعد ذلك ، فشرحها فقرة فقرة شرح أديب كبير ، وقد أحدث تأليفها آنذاك ضجة كبرى في الأوساط الأدبية ، فتناولها كثير من الأدباء بالتعليق والشرح نذكر منهم الصمدي الذي شرحها ، سماها « تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون » .

طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة فيها الخطأ والتحريف ، وقد ترجم للتركية ، وقام أخيراً المحقق الثبت الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم فنشر الكتاب نشرًا علميًا سليمًا ، وصنع له الفهارس المتنوعة التي تساعد الباحث على الإفادة من الكتاب المذكور .

## الفاضل من إنشاء الفاضل

اختاره ابن نباتة من أدب القاضي الفاضل<sup>(٣)</sup> ، وذكر في فاتحة خطبة الكتاب أنه أورد للملك المؤيد مقتطفات من أدبه ، فأمر أن يجمع ذلك في سفر خاص .

(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢٢٣ ، واليدر الطالع ج ٢ ص ٣٥٢ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والمنهل الصافي مخطوط ج ٦ ورقة ٧٠ ، ٧١ . وتوجد منه نسخة مخطوطة في أكسفورد .

(٢) شرح العيون ص ٢ .

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٨ ، ٢٢١ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوفى بالوفيات ص ٢١٤ ، والمنهل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ .

يحسن أن نورد مقدمته لتدل على أثر أبي الفداء في النهضة الأدبية ببلاد الشام ، وعلى تشجيعه لابن نباتة واعتماده عليه في قيادة حركة التأليف في عصره : « أما بعد حمد الله ، ينشئ الخلق بصنعه ، والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حزب الحق وجمعه ، فهذه فقر جليلة النماء والانتماء ، وكلمات طيبات أصلها ثابت وفرعها في السماء ، اخترتها من كلام سيدي القاضي الفاضل - رحمه الله - اختياراً يقوم عنى بوصفه ، وينأى عن الدر بعطفه ، وذلك أني كنت أوردت فيه بالمواقف الشريفة السلطانية المؤيدية - نصرها الله - نبذة أصغى إليها لإصغاء الحبير بسرهما العارف بتيرهما ، المطلع في ليالي السطور على ليلة قدرها ، فجلبت لذلك السوق من هذه الجواهر ، وحملت ذلك الفكر بمثل هذه الأزاهر ، وذكرت هذا البيت الأيوبي يرتب علمائه الذين هداهم وفتح بلهاه ظاهر . رضى الله عن ماضيه ، ونصر باقيه ، وشيد ببقاء عماده الشريف مبانيه » (١) .

### زهر المتثور

كتاب (٢) في فن الترسيل ، وقد شاع التأليف في هذا الموضوع كثيراً . نذكر من هؤلاء مثلاً الشهاب محموداً وغيره . وقد أورد ابن حجة شيئاً من هذا الكتاب في معرض التمثيل على الاستعارة قائلاً : « وقد عن لى أن أنثر في حدائق الاستعارة نبذة من زهر المتثور . وأورد منه ما يزهر بوروده على روضات الزهور .

وقال جمال الدين بن نباتة : كتبها المملوك ومنظر الروض قد شاق ، ودمعُ

(١) الفاضل من إنشاء الفاضل (مخطوط) ورقة ١ . توجد منه نسخة خطية في مكتبة جامعة يال هانغ في أمريكا ، وقد وُصِّفَت في (المخطوطات العربية في دور الكتب الأمريكية) ص ١٩ ، كما توجد نسخة خطية في مكتبة المتحف البريطاني ومنها مصورة دار الكتب المصرية ، ونسخة بالمكتبة الأزهرية بعنوان (المختار من إنشاء القاضي الفاضل) .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢٨ ، ٢٢٣ . مخزنة الأدب ص ٢٩٢ ، والواق بالوفيات ص ٢١٤ . والمجلد الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ .

الغيث قد رقاً ووجه الأرض قد راق ، وقدودُ الأغصان قد راسلت أهواء القلوب  
بالأوراق ، وقيان حمائها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق ، والورد قد احمرّت  
خده الوسيم ، وفكت أزواره من أجياد القضب أنامل النسيم ، وخرجت أكفه من  
أكامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم<sup>(١)</sup>.

هذا الكتاب في ترسل ابن نباتة جارٍ على النهج الذي سار عليه القاضي  
الفاضل من قبل .

### أبزار الأخبار

لا نعرف منه إلا اسمه<sup>(٢)</sup> ، وقد أشار إليه مؤلفه خلال إجازته للصفدي ،  
وورد في الدرر الكامنة مصحفاً باسم « إيراد الأخبار » وفي الخزانة باسم  
« إبراز الأخبار » و« أبرار الأخبار » وقد اعتمدنا على ما أورده الصفدي لضبط  
اسمه .

### شعائر البيت التقوى

يبدو أنه ألف هذا الكتاب لتخليد الملوك الأيوبيين الذين حكموا حماة ،  
وعلى رأسهم المظفر تقي الدين الذي تولى الملك سنة ٥٧٤ هـ . وقد وهم ابن حجر  
في ضبط اسمه أيضاً ، فأورده باسم شعائر البيت النبوي ، وقد اعتمدنا على  
الخزانة في ضبط اسم هذا الكتاب ، كما ذكر في إجازته للصفدي أنه لم يتم حتى  
ذلك التاريخ<sup>(٣)</sup>.

(١) خزانة الأدب ص ٤٩ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢٣ ، والخزانة ص ٢٩٢ ، والوفاى بالوفيات ص ٢١٤ ،  
والمهمل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ .

(٣) الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٢٣ ، وخزانة الأدب ص ٢٩٢ ، والوفاى بالوفيات  
ص ٢١٤ والمهمل الصافي (مخطوط) ج ٢ ورقة ٧١ . منها نسخة مخطوطة في المكتبة التيمورية ،  
وقد طبعت في بيروت سنة ١٣٠٢ هـ .

## المفاخرة بين السيف والقلم

ألف ابن نباتة هذه الرسالة في المفاخرة<sup>(١)</sup> وهو في كنف أبي الفداء ، وقد أوردها ابن حجة كاملة في معرض حديثه عن التغاير ، وقدّم لهذه الرسالة بقوله : « وقد عن لى هنا أن أرفع بالمتأخرين في التقديم راية ليعلم المنكر الفرق بين البداية والنهاية ، فإن الشيخ جمال الدين أظهر في المفاخرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانهُ      لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ »<sup>(٢)</sup>

استطاع ابن نباتة أن يمثل لنا مسرحية رائعة ، أما بطلاها فهما السيف والقلم ، وأما الحكم فهو ملكه المؤيد . وقد استطاع أن يضيء على الرسالة حياة وحركة ، ولا بأس أن نلتقط هذه الصورة الأخيرة لهذه المفاخرة لئرى الحكم يفصل أخيراً بينهما بالعدل والقسطاس : « وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الأعظم الذى أشرت إلى يده الشريفة ، وتوسلت بمحاسنها اللطيفة ، فإنه مالك زماننا ، ومثلى نغماننا ، ومصرف كلامنا ، وحامل أعبائنا الذى ما هوى لهوى . . . وانتبه المملوك من سنة فكره ، وطالع بما اختلج سواد هذه الليلة فى سره ، والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان التى هى نظام المفاخر ومقام المآثر . وغوث الشاكي وغيث الشاكر ويمتع بظلال مقامه الذى لا تكسر الأيام مقدار ما هو جابر . ولا تجبر ما هو كاسر »<sup>(٣)</sup> .

تحدث ابن حجة عن هذه الرسالة فى بحث براعات الاستهلال فقال : « ولقد كشف الشيخ جمال الدين بن نباتة عن هذا الوجه القناع ، وأظهر من بهجته فى رسالة السيف والقلم ما ليس لمطالع الدور عليه اطلاع ، فإن الرسالة مبنية على المفاخرة بينهما . . وما أظن أن أحداً من المتقدمين

(١) خزانة الأدب ص ١٠٤ - ١٠٩

(٢) خزانة الأدب ص ١٠٤ .

(٣) خزانة الأدب ص ١٠٩ .

نسج على هذا المنوال ، ولانثفت في عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال»<sup>(١)</sup> .  
واختتم الناقد ابن حجة ذكر هذه الرسالة بقوله :

« تمت رسالة الشيخ جمال الدين التي كشف بها عن قناع المغايرة ، وأتى فيها بكل مثال ليس له مثيل ، ووسمها بصاحب حماة . فأطاعه عاصي الأدب ، وهب له على الكبر إسماعيل »<sup>(٢)</sup> .

ورد ذكر هذه الرسالة في « سجع المطوق » فقد أشار المؤلف في معرض حديثه عن أمين الدين بن النحاس إلى أنه طلب منه أن يبعث بها إليه<sup>(٣)</sup> . وهذا يدلنا على أن أدياء عصره كانوا يتناقلون آثاره وتصانيفه الكثيرة .

### المفاخرة بين الورد والرجس

وهي أيضاً رسالة في المفاخرة<sup>(٤)</sup> ، ولعل الرياض الغناء في بلاد الشام ولساتين حماة القاهرة ذات النواعير النائمة كانت من العوامل التي فتحت ذهن الأديب فأنشأ هذه المفاخرة الفريدة .

لانبعد عن الحق إن قلنا إنها مسرحية رمزية مبسطة، يضفي الحياة والحركة على أبطالها ، وأجمل ما في هذه الرسالة تشخيص الأزهار بشكل جميل يوشحها بالسحر والفتنة . ولعلنا نقف لنستمع كلام الراوي : « فلما رأيت كلا منهما قد جاء في حجته بالبرهان والدليل ، ولم يتضح لي أيهما أولى بالترفضيل ؟ وضاق علي في الفرق بينهما المسالك ، ورأيت مالكي في المدينة ، فلم يجز لي أن أفتي وفي المدينة مالك ، فهو فريد عصره في فضله وآدابه ، وهو يفصل بينهما بفصل خطابه ، وقد بلغ من رتبة الأدب أقصاها ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »<sup>(٥)</sup> .

يظهر أن الحكم الذي يفصل بينهما هذه المرة هو ابن نباتة لأنه ختم هذه

(١) المصدر السابق ص ١٧ .  
(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .  
(٣) سجع المطوق (مخطوط) ورقة ٥١ .  
(٤) المصدر السابق ورقة ٦٦/٦٩ .  
(٥) المصدر السابق ورقة ٦٩ .

المفاخرة قائلا : إنه فريد عصره في فضله وآدابه ، وهو الذي يحكم بينهما بالعدل . ومن عادته أن يكثر من مديح نفسه كلما سئحت له سائحة . وهو إن حكم في المرة الفائتة مولاه المؤيد ربّ السيف ، فإنه يحكم اليوم نفسه وهو رب القلم والبيان .

## ٢

## آثار المرحلة الثانية

نصنف في المرحلة المذكورة آثاره الثرية التي دمجتها يراعتة بعد موت المؤيد : وغنى عن البيان أن إنتاجه قد تضاعف عن ذي قبل . أما أشهر ما وقفنا عليه فهي : مراسلات ابن نباتة في مخاطبة أقرانه ، وكتاب « سلوك دول الملوك » ، وكتاب « حظيرة الأنس » وكتاب « تعليق الديوان » ، وكتاب « ديوان خطب جمعية » و« خطبة في تعظيم شهر رجب » ، و« رسالة في هجاء ابن شنار » .

## مراسلات ابن نباتة في مخاطبات أقرانه

يضم هذا الكتاب<sup>(١)</sup> الرسائل الأدبية التي تبادلها مع أقرانه ، وهو سجل هام للحركة النقدية التي كان المؤلف محورها ودعامتها .

## سلوك دول الملوك

لعل هذا الكتاب<sup>(٢)</sup> من الكتب القديمة التي كتبت عن آداب الملوك ، ولعله من أقدمها بعد الذي كتبه ابن المقفع من قبل . وهو يدور حول آداب

( ١ ) توجد منه نسخة خطية في مكتبة طلعت .

( ٢ ) توجد منه نسخة خطية في أكاديمية فينا .

الدولة وسياستها ، ويتحدث عن الملوك وواجباتهم نحو أنفسهم وأهلهم ورعاياهم .  
وكأنما أنس في نفسه الكفاءة ليكون التصوح الذى يهيمه أن يرسم للملوك  
الأيوبيين سبلهم فى الحكم وواجباتهم ، وهو بحق يعتبر المؤدب الأكبر للبيت  
الأيوبي .

### حظيرة الأنس إلى حضرة القدس

وصف ابن نباتة فى هذه الرسالة الفريدة<sup>(١)</sup> رحلته إلى بيت المقدس مع  
صديقه الوزير صاحب أمين الدين سنة خمس وثلاثين وسبعمائة . وقد تحدث  
فيها بالتفصيل عن المدن التى زارها أو حل بها . تعتبر هذه الرسالة من الرسائل  
الهامة التى تصور شطراً من حياة ابن نباتة بعد موت المؤيد أبى الفداء : وقد  
أشار فيها إلى موت ابنه عبد الرحيم ، وذكر أن الوزير الأمين صحبه معه ليخفف  
من لوعته على فقد فلذة كبده .

أورد ابن حجة هذه الرسالة كاملة فى « ثمرات الأوراق » ، وقد حدثنا أن  
محمد بن البارزى قرأ على المسامع الشريفة رسالة لابن نباتة وأخرى له لاختيار  
الألفاظ والمعانى من كلا الرسالتين<sup>(٢)</sup> .

### التحفة الأنسية فى الرحلة القدسية

لم يكتف بهذه الرسالة لوصف الرحلة ، بل ذكر أنها تاريخ ومجموع ،  
وأنه سيضع غيرها فى سفر خاص : وتمت هذه السفر . . . والتقطت من  
الفوائد الوزيرية ما كنت أرتقب جواهره وأزاهره ، وأردت أن أذكرها فى هذه  
الخطبة لأنها جواهر . وأختتمها بعض العلم فى هذه الأوراق فإنها أزاهر .  
فكثرت على هذا اللفظ المسجوع . واقتضى الحال أن أجمعها فى سفر يقال فيه  
تلك الرحلة وهذا تاريخ ومجموع<sup>(٣)</sup> .

(١) ثمرات الأوراق ص ١٣٨ - ١٤٣ . (٢) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٣) الواق بالفويات ص ٣١٩ .

عثرنا على ذلك السفر الذي يقال فيه تلك رحلة من خلال إشارة استدللنا بها عليه ، وقد جاءت عرضاً في كلام الصفدى إذ ذكر أنه سمع من لفظه : « التحفة الأنسية في الرحلة القدسية »<sup>(١)</sup> .

نخلص إلى القول إن ابن نباتة جمع الرحلة وأرخها في « حظيرة القدس » وفضلها في سفر كبير سماه « التحفة الأنسية » .

### تعليق الديوان

ألف ابن نباتة هذا الكتاب بعد أن ولى التوقيع في الديوان<sup>(٢)</sup> . فجمع فيه كل ما أنشأه خلال ذلك وقد ذكرنا توقيعين من توقيعاته خلال مراحل حياته ، ونظن أنهما بعض هذا الكتاب ، وقد لاحظنا أن الفلقشندى أورد نماذج كثيرة منها في كتاب صبح الأعشى .

### ديوان خطب جمعية

لعل هذا الكتاب هو الوحيد الذى ألفه ابن نباتة بعد عودته إلى مصر وقد أنشأ عدداً من الخطب على عدد أسابيع السنة لتلقى كل يوم جمعة في المساجد . ويظهر أن الناصر حسناً طلب إليه تأليف هذا الكتاب ليوحد الخطب الدينية في المساجد كلها ضمن إطار واحد . وللدلالة على أنه ألفها في مصر لا بد لي من أن أذكر ما جاء في آخر خطبة له في الديوان وهى خطبة النيل ، إذ يقول فيها : « اللهم اجلب الزيادة لنيلك المبارك ، وبلغ به المزارع والمنافع . . . » ويورثى باسم السلطان الناصر حسن فيقول : « وكن اللهم مؤيداً لهم وحافظهم وناصرهم . . . »<sup>(٣)</sup> .

(١) ثمرات الأوراق ص ١٤٢

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة برلين

(٣) ديوان خطب جمعية ، ص ١٠٩ ، ١١٠ . طبع طبعات كثيرة .

عارض الأقدمون هذه الخطب ، فذكر ابن حجر في درره أن الحسين بن محمد المعروف بابن قاضي عسكر ألف ديوان خطب سماها : « المقال المخبر في مقام المنبر »<sup>(١)</sup> يعارض بها خطب ابن نباتة . كما أنه يجدر أن نذكر أن جده عبد الرحيم خطيب الخطباء قد ألف ديوان خطب خاصة . وأما أديبنا جمال الدين فأصبح مثله خطيب الخطباء .

### خطبة في تعظيم شهر رجب

يبدو أن المؤلف لم يكتف بالخطب الأربع التي وضعها لشهر رجب في ديوان خطب جمعية ، وفق أسابيه الأربعة ، وإنما أفرد للشهر المذكور خطبة خاصة<sup>(٢)</sup> به لكونه مباركاً والدعاء مستجاب فيه .

### رسالة في هجاء ابن شنار

ما أكثر رسائله التي لم تصلنا ، وقد أصابها الضياع . نذكر منها هذه الرسالة وقد عثرنا على ذكرها عرضاً في ترجمة « ابن شنار »<sup>(٣)</sup> في الدرر الكامنة ، وكان بينه وبين ابن نباتة خصام شديد ومنافرة مشهورة ، وله فيه هجاء . واتفق أنه قرأ على ابن نباتة قطعة من نظمه ونثره فكتب له قائلاً : « الحمد لله حاشا من فخر ، والصلاة والسلام على محمد ما نبج الكلب في ضوء القمر . . . »<sup>(٤)</sup> .

استمر على هذا الأسلوب في هجائه ، وقيل : إن هذه الرسالة من عجائب ما أنشأه ابن نباتة :

(١) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦٨ (٢) توجد منها نسخة خطية في كوتنا  
(٣) بدر الدين ، الحسن بن علي بن حمد بن شنار الغزي ، ولد سنة ٧٠٦ هـ ، وهو شاعر معاصر لابن نباتة ومن كتاب الإنشاء المعروفين في ديوان دمشق . كانت بينه وبين جمال الدين منافرة شديدة ، وله فيه هجاء . . ألف رسالة هامة سماها (تريض القرين) ، وقد عارض بها ابن شهيد في رسالته المشهورة (التوايح والزوايح) . توفي سنة ٧٥٣ هـ . (الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٢) .

(٤) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٤ .

انتشرت كتب ابن نباتة انتشاراً كبيراً في الأوساط الأدبية المختلفة، حتى إن النواجي صاحب حلبة الكميت استخدم أسماء بعض كتبه مورياً كما في قوله :

« وأبرزت في وصف الكميت شعر من تفحّل ، وأمسى وهو إلى الغايات سباق ، وابتعت ما غلت قيمته ، ولكن ما خرجت عن سوق الرقيق »<sup>(١)</sup>.

ويقول في مكان آخر : « وأتحفته بعد قهوة الإنشاء بزهر المثور ، ورامت بسجع المطوق تشنيف مسامعه »<sup>(٢)</sup>.

لعلنا لاحظنا من خلال أسلوب النواجي التورية بأسماء بعض كتب ابن نباتة هي ( سوق الرقيق ) و ( زهر المثور ) و ( سجع المطوق ) ، بالإضافة إلى ذكر اسم كتاب ( قهوة الإنشاء ) الذي ألفه ابن حجة .

( ١ ) حلبة الكميت ، ص ٢ ، ٣ .

( ٢ ) حلبة الكميت ، ص ٣٠ .